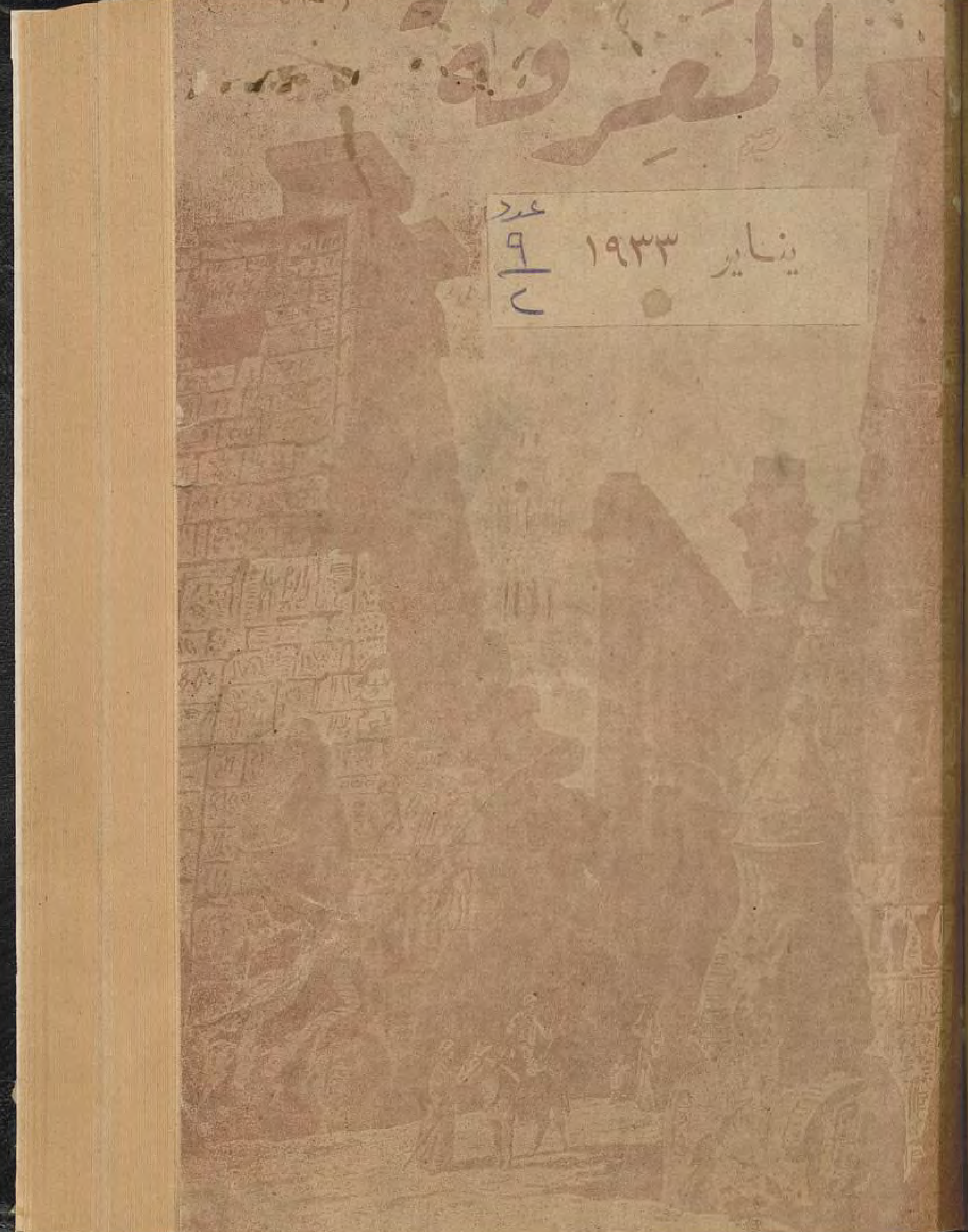

المعرفة
يناير ١٩٣٣
عدد ٩ / ٢



الأستاذ علي الجارم
(لمناسبة رأيه عن الشعر)





الدكتور محمد بك حسين هيكل
(لمناسبة رأيه عن الشعر)



الأستاذ هرمان جرابو
(اقرأ حديثه في هذا الجزء عن مصر)

آراء فى الشعر والشعراء



الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى



الأستاذ أنطون بك الجميل



الأستاذ محمد الهراوى

الجزء التاسع السنة الثانية		أول يناير سنة ١٩٣٣ رمضان سنة ١٣٥١

مجلة — شهرية — جامعة

لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الإسلامبولي

المجلد الرابع — شعارها : اعرف نفسك بنفسك — العدد ٢١

عاطفة الحب

فى نظر العلم والفلسفة

ضاق نطاق هذا الجزء عن نشر القسم الثانى من هذا البحث الذى بدأناه فى العدد الماضى ؛ وموعدنا العدد المقبل .

الرسالة العذراء

﴿ الرسالة العذراء ﴾ اسم لرسالة نفيسة ، تعد إحدى ذخائر الأدب العربى النفيس ، لابراهيم بن المدبر ؛ حوت من جليل البحث ، وطريف الفكر ، ورقة الأسلوب ، وسلاسة اللفظ ، ما جعلها ـ بحق ـ كنزاً من كنوز أدبائنا العرب المغاوير .

وقد صححها وشرحها باللغة العربية ، ووضع لها مقدمة مفصلة بالفرنسية ، تناول الكلام فيها على فن الانشاء ومذاهب الكتاب فى القرن الثالث ، الأستاذ البحاثة والعالم الفاضل الدكتور زكى مبارك .

وقد بعثت إدارة « المعرفة » بهذه الهدية النفيسة إلى حضرات المشتركين (الذين سددوا قيمة اشتراك هذه السنة) . ورجاؤنا أن يتفضل حضرات الذين لم يسددوا قيمة اشتراك تلك السنة بتسديدها ، لنبعث بتلك الهدية إليهم .

فى الشعر والشعراء

لمناسبة وفاة المرحومين « حافظ » و « شوقى »

١ - هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

٢ - ما مدى مستقبل الشعر والشعراء ؟

خلف موت الشاعرين العظيمين - حافظ وشوقى - ما خلف من حزن وأسى ، وترك ما ترك من حسرة وألم ، وأحدث ما أحدث من هوة وثغرة ، الزمن وحده كفيل ببيان نصيبهما من الحق والباطل ؛ وما أراه أنا وأنت ، ويتفق فيه زيد وعمرو ، قد لا يراه الزمن ، أو يتفق فيه حكمه ؛ فلندع ذلك إليه . وكل ما علينا الآن عمله ، إنما هو التوجه إلى البحث عن الشاعر المصرى المنتظر ، نأخذ بيده ، ونتيح له فرصة البعث والظهور ، فلا نوصد الباب أمامه ، أو نقف - بتعصبنا للنثر مثلا ، أو للشعر الاغريقى مثلا ، أو للشعر الغربى مثلا آخر ، أو بحكم علاقاتنا بالفقيدين مثلا رابعاً - سداً منيعاً دون ظهور هذا المنتظر .

وليفهم من لا يفهم ، أنا نلحظ فيما ندعو إليه - من أخذ بيد شعرائنا المعروفين ، أو المغمورين - غرضاً قومياً نبيلا ، فأما أن نتهاون فيه - منذ الآن - ونحط من أقدار بعضنا بعضاً ، فتلك سياسة الهدم والتدمير ؛ وما كان لمثل تلك السياسة الغلب أو الفوز فى عصور الاستقرار ، وفى بناء مجد الأوطان وسؤددها .

وإن « المعرفة » لترجو ، لو تتاح لها فى القريب العاجل ، فرصة استفتاء شباب الأمة ، فيمن يخلف الشاعرين ، ويحفظ لنا الزعامتين : زعامة الشعر ، وزعامة القومية ، وأعنى بها زعامة مصر على الشرق ، فى دولة الشعر .

والشباب وحدهم هم خير من نتوجه إليهم فى هذا ؛ فما تزال قلوبهم طاهرة نقية ، لم تدنسها منافسة ، أو يعد عليها عدوان من التحيز أو الغرض .

أقول هذا بعد الذى رأيت من إجماع من قابلت - من الشعراء والكتاب والأدباء ، على

اختلاف نحلهم ، وتعدد مذاهبهم - على الاحجام عن إعلان رايهم صريحاً فيمن يخلف الشاعرين .

وها نحن أولاء نقدم - فى هذا الجزء - آراء بعض حضراتهم ، على أن نقدم الآراء الأخرى فى الجزء القادم إن شاء الله ؛ ومن ثم يكون المجال واسعاً أمام الشباب للتفكير فى الأمر ، فى روية وحكمة وتريث .

رد الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لست أعرف مثيلا « للمازنى » الكاتب ، و« المازنى » الأديب ، و «المازنى» الشاعر ، غير (برنارد شو) فى نقده اللاذع ، وأسلوبه التهكمى ، وسموه على استرضاء الجماهير .

وقد أصبح بأسلوبه هذا علماً على مدرسة النقد الحديث،التى تتأثر أسلوبه،وتنهج نهجه .

وليس أدل على ما ذكرنا عن أسلوبه ذاك،من هذا الرأى الذى كتبه - فى الفترة التى زرته فيها - وهو جالس إلى مكتبه،يستقبل زائراً ليودع زائراً آخر، وينتهى من التحدث إلى بعض المحررين ، ليعد مواد التحرير لعامل المطبعة الذى لا يرحمه ، والذى يأبى إلا أن يستأثر بجميع وقته .

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

أرجو أن تسمح لى، أن أوجز فى جوابى عن سؤاليك اللذين تفضلت بتوجيههما إلى ؛ والايجاز خير من الاطالة ،تفادياً من إملال القراء فى مسائل لم يبق قلم إلا تناولها بالكلام .

أما السؤال الأول،فجوابى عنه: أن المرحومين « حافظاً وشوقى» يمثلان مذهباً أو مدرسة كان البارودى فاتحتها ، وكانا هما ختامها ، وبموتهما انتهت هذه المدرسة ، ولم يبق منها شىء يستحق الذكر ، وقد تقضى العصر الذى أنتجهما قبل أن ينتقلا هما من هذه الدار ، فلا يمكن فى رأيى أن يقال : إن مكانهما الآن خال ، أو إنهما أحدثا فراغاً فى عالم الأدب الحديث ؛ والسبب بسيط جداً ،وهو أنه لم يكن لهما مكان فى هذا العصر حتى يقال إن مكانهما قد خلا، وإنما كان مكانهما فى العصر الذى خلا ، والذى جاء العصر الحاضر على آثاره ، وكانا هما متخلفين من ذلك العصر ، أو امتداداً منه ، كما يمتد لسان من الأرض فى ماء البحر ؛ ونحن الآن لنا : آلام ، وآمال ، ومثل ، غير التى كانت لعصرهما ؛ وفهم عصرنا للشعر وغاياته ووسائطه ، يختلف عما كان يفهم زمانهما فى ذلك .

مستقبل الشعر

نسيت سؤالا ثانياً هو مستقبل الشعر، وأنا على خلاف راى الذى يقول : إن تقدم المدنية يقضى عليه ، وأعتقد أن الامر على النقيض ، فكلما اتسعت آفاق العقل والنفس ، كان مجال الشعر أوسع ، والشعر ليس جهلا ، ولا هو وليد الجهل، حتى ينمو فى ظلام التأخر والانحطاط، ثم يجىء نور المدنية فيمسحه ويعفى عليه؛ ومع التقدم تتفتح العقول والنفوس، وتصبح أفطن وأدق إحساساً ، وأسد نظراً ، وأعمق غوصاً ، وأهدى طريقاً ؛ والشعر ليس ترفاً لأنه متصل بأصول الحياة ، ومستمد من مادتها الخالدة .

وحسبى الآن هذا القدر ، وعسى أن يقنع الأستاذ الزميل صاحب « المعرفة » ومحررها بهذا الايجاز . ابراهيم عبد القادر المازنى

رأى الاستاذ محمد الهراوى

خلق نبيل ، ونفس رضية ، وإيمان بالمستقبل ، واطمئنان إلى الحق ، وشاعرية متوثبة . . . تلك هى أبرز ميزات الأستاذ « الهراوى » ، وأظهر صفاته ، وأجلى ظاهرة فيه .

وقد أعرف له من المواقف المشرفة، فى حياة المرحومين حافظ وشوقى، ما لو عرفه الناس، لأكبروه إكباراً فوق إكبار ، وبادلوه حباً فوق حب .

ولست أعرف إن كان يوضع فى صف الآخذين بالجديد أم الآخذين بالقديم ؛ وإنما أترك هذا لك تتبينه من رأيه الذى سجلناه فى السطور التالية :

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

أقول لك فى صراحة وصدق وإخلاص ـ وأنت من أعرق الناس دفاعاً عن العقيدة، وصلابة فى الحق، وتمسكاً بالجوهر ـ : إن الشاعرين ـ على ما خلفه موتهما فى نفوسنا من حسرة وألم وحرقة ، تحز فى نفوسنا حزاً ـ لم يتركا هذا الفراغ المزعوم، فمعاصروهما من الشعراء المجدين لا يسمحون بترك هذا الفراغ ، بما لهم من شعر حسن جيد ، لا يقل روعة وجلالا عن شعر الفقيدين العظيمين، بل هو ـ على العكس ـ قد فتح طريقاً كانت مسدودة من قبل، ومهد سبيلا كانت موصدة من زمن ، وذلك راجع إلى ما أحاط بهما من الشهرة بفضل البيئة والوسط ، وبفضل علاقتهما بالشخصيات البارزة فى مصر والشرق .

ولست أشك فى أنك تعرف أثر هذه العلاقة ، وأثر الأسماء الضخمة فى تعميم الشهرة

فى نفوس عامة الناس ، وإذاً تستطيع أن تعرف من هذا أنهما أحدثا فراغاً فى الشهرة ، وليس فى الشعر كما يتصور بعض الناس . وهذه الشهرة هى فن آخر غير فن الشعر .

وقد آن الوقت الذى يجب أن نتضامن فيه ـ معاشر الشعراء والأدباء ـ على محو هذه المؤثرات من أذهان الجماهير ، وإبعاد التأثير الخارجى عن الشعر والشعراء ، ليستطيع الشعر تأدية رسالته ، ويقدر الشعراء أنفسهم فيما يأخذونها به من تجويد وتصوير ، وإنى لأعتقـد أن فى تضامن شعراء العصر ـ بدون منافسة شخصية كما كانت الحال قديماً ـ على إنهاض الشعر وتجديد نواحيه ، ما يفتح لهم الباب على مصراعيه ، ليسلك كل منهم سبيله إليه .

وكل ما هو مطلوب من الأمة أن تقدر جهود المجيدين من شعرائها فى الحال والمستقبل ؛ فالشاعرية تضعف وتقوى تبعاً لضعف الأمة أو قوتها : من جانبها إلى نفسها أولا ، ومن جانبها إلى شعرائها ثانياً .

فالتضامن من ناحية الأمة فى التقدير والاشادة ، ومن ناحية الشعراء فى التجديد والاجادة ، هو موضع الأمل فى المستقبل ، باذن الله تعالى .

مستقبل الشعر

تسألنى يا صديقى عن مستقبل الشعر ، وأنا أحس منك انتظار إجابتى بأن المستقبل فى ضمير الغيب ؛ لـكنى أرجو أن تسمع إلى ما أدلى به إليك :

إنى أعتقد اعتقاداً جازماً ، لا ريبة فيه ، أن مستقبل الشعر سيكون خيراً من حاضره ، كما أن حاضره خير من ماضيه ؛ وإن فى هذه الحشود المتدفقة ، وفى هاتيك الجماهير المتلهفة على الشعر ، المتعطشة إلى تذوقه ، الراغبة فى استماعه ، المتتبعة آثاره ، لدليلا ـ وأى دليل ـ على أن الشعر سيحتل من النفوس منزلة أرفع ، وستتاح له فرص من الحياة الهنيئة الطيبة ، الملأى بمختلف الآمال ، مما لم يـكن له من قبل .

وأقول لك أيضاً : إن الشعر قد استطاع فى الوقت الحاضر أن يجذب إليه قلوباً كانت عنه نافرة ، وأن يقود إليه نفوساً كانت عنه جامحة ، وهذه باكورة مباركة ، قد بدأت تؤتى ثمارها الناضجة المنتظرة فى ضمير الغيب ، فى الوقت المناسب ؛ وأعتقد أن تلك البوادر الموفقة برهان ساطع يبرر لى التفاؤل الحسن لمستقبل الشعر ، كما أعتقد أن تلك العوامل ـ مجتمعة إلى بعضها البعض ـ ستحفز فوجاً من الشعراء المغمورين ، وحشداً من الأدباء المطمورين ، وستدفع هؤلاء وهؤلاء جميعاً إلى الانتاج آناً ، والاجادة آناً آخر ، والتنويع تارة ، والتفنن تارة ؛ وبحكم سنن الـكون وكائناته ، بل بحكم قانون الحياة ، سيأخذ الشعراء الجديون عدتهم إلى تحقيق رسالتهم ، وتأدية أمانتهم بالتجويد ، والتحقيق ، والتدقيق ، والافتنان ، والابداع فى

تصوير العواطف الانسانية تصويراً دقيقاً لنواحي حياة العصر والبيئة المختلفة ، وتلك هي في الواقع رسالة الشعر ومهمة الشعراء .

لهذا أعتقد أن شعراء مصر – ومصر هي صاحبة الزعامة الشعرية والأدبية – سيبتكرون ألواناً جديدة من الشعر هي نواحي الحياة المستقبلة، بل أزعم لك أن شعراء العصر الحاضر قد ابتكروا فعلا تلك الألوان مما لم يكن له سابق عهد ؛ وفي شعر الأطفال ، وأهازيج الصناع، وأغاني البيوت، وأناشيد العامة، مثل للألوان المبتكرة من الشعر العربي العف الصحيح؛ وستكون هذه أساس الابتكارات المقبلة؛ وهذا هو بنيان دولة الشعر الحديث الذي سيحيي فنوناً نافعة، ويميت أخرى أصبحت غير صالحة ؛ وسيكون قوي الخيال، عربي الأسلوب ، متى أبعد الله عنه فتنة المدنية الغربية بفضل غيرة أهل اللغة والمجامع المستقبلة .

وأقول في النهاية : إنه على الرغم من العقبات القائمة في سبيل الشعر والشعراء ، فإن الفرصة ستتاح له للتغلب على هذه العقبات إن شاء الله تعالى .

رد الأستاذ انطون بك الجميل

الأستاذ أنطون الجميل رجل (جنتلمان) بكل معاني الكلمة ؛ فهو مهذب اللفظ، مهذب العبارة ، مهذب الأسلوب ؛ وقد حببته هذه الظاهرة، تقدير المثقفين من مختلف الطبقات جميعاً ، تقديراً يبلغ الشأو . كما أتاحت له ملكة فنية في النقد الأدبي العالي ، وحاسة شعرية يلمسها القارىء مجلوة في مجلته الأدبية التي كان يصدرها منذ عشرة أعوام تقريباً باسم « الزهور » .

تقدمنا إليه بهذين السؤالين ، فاعتذر عن الاجابة عن السؤال الثاني ، مكتفياً بالاجابة عن السؤال الأول إجابة كتبها بقلمه ، هي هذه التي ننشرها بنصها :

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

من ينكر أن الأدب العربي قد مني هذه السنة بخسارة فادحة بموت «حافظ» ثم بموت «شوقي» ، خسارة شعرت مصر بها قبل سواها، لأنهما أجلساها الصدر في دولة الأدب، وشعرت بها مع مصر سائر الأقطار العربية ، لأنهما كانا من مفاخر لسان العرب ؟

أما التنبؤ بمن سيخلف كلا منهما في المكان الذي تبوآه في مملكة القريض والبيان، فليس بالسهل ولا بالمستطاع . فشاعر مصر ، بل شاعر العربية ، مكنون في ضمير الغيب ، قد تبرزه الحوادث في غدنا القريب .

ولا يعزبن عن البال أن ما ناله كل منهما من الشهرة ، وبعد الصيت ، قد يكون طمس عبقريات كثيرة ستبرز إلى الميدان بعد أن خلا من فارسيه المعلمين ، كما أن ما أحرزه كلاهما

من المنزلة الرفيعة فى حياته ، ومن التكريم والاشادة بذكره بعد مماته ، سيشحذ القرائح والأذهان للمباراة فى حلبة الشعر .

وليس من الحكمة والمنطق فى شىء ، أن نندب الشعر والأدب بعد فقد ذينك الشاعرين؛ فالوادى الذى أنجب البارودى ، وصبرى ، وحافظاً ، وشوقى ـ ولا أذكر إلا الأموات الذين عاصرناهم ـ سينجب غيرهم من عباقرة الشعر وأعلام الأدب ؛ فمشعل الشعر لا يطفأ نوره أبداً، ولا ينضب زيته ، بل ينتقل دائماً من يد إلى يد ، تغذيه القلوب النابضة ، والنفوس الحساسة .

وخير ما يقال ـ فى هذا المقام ـ هذه الأبيات لشوقى نفسه :

قديم الشعاع كشمس النهـــا ر ، جديد كصباحها الملهب
أبوقراط مثل ابن سينا الرئيـ س ، وهومير مثل أبى الطيب
وكلهمو حجـر فى البنـــا ء ، وغرس من المثمر المعقب

أنطون الجميل

رأى الدكتور هيكل بك

اما أن « هيكل » فى طليعة كتابنا المصريين ، فمسألة مفروغ من بحثها على ما أعتقد، وإنما أزعم أن جمهرة القراء لم يعرفوا ـ كما لم يعرف « هيكل » نفسه ـ أنه شاعر،وشاعر مجيد، وشاعر إلى حد بعيد،لأنهم لم يقرأوا له قصيدة منظومة موزونة مقفاة،ولأنه ينكر على نفسه الشعر ، وقول الشعر؛ لكنى أرجو أن تتعرف إلى أسلوب الشاعر لتعرف إن كان « هيكل » شاعراً ، أم غير شاعر ؛ أما أنا فأزعم أن أسلوب الشاعر ، هو ذلك الأسلوب الذى يعبر عن مختلف الأحاسيس الانسانية ، وخلجات النفس البشرية ، وما يعترك فى نفوسنا من آلام ، وآمال ، ورغبات ، وأحلام،وحق وجمال،فى أصدق تصوير ، وأدق تعبير.وأنا أعتقد أن هذا كله قد أتيح « لهيكل » الأديب ، أو « هيكل » الشـاعر إن شئت الدقة فى التعبير ، هو إذاً شاعر ناثر ، أو هو ناثر شاعر ، وله بعد ذلك أن يرضى بهذا ، أو لا يرضى به .

ذهبت إليه وليس لديه متسع من الوقت،فاكتفيت بالتحدث معه عن مستقبل الشعر ، هذا الحديث الذى تقدم إليك خلاصته فيما يلى :

مستقبل الشعر

قبل أن أجيب عن سؤالك هذا ، يجب أن نعرف أولا ما هو الأدب فى حقيقته ،وما هى رسالة الشعر وماهيته ، حتى إذا ما عرفنا المقدمات ورتبناها ترتيباً صحيحاً ، استطعنا أن نستنتج استنتاجاً صحيحاً ؛ بل أكثر من هذا ، أرى أنه فى تحديد معنى الأدب بصفة عامة ،

ومعنى الشعر بصفة خاصة ، ماينتهى بنا إلى فهم الرسالة الفنيةعلى وجه ، إذا لم يكن بالفاحد الكمال ، فلا أقل من أن يكون أقرب إلى ذلك الكمال المنشود .

عندى أن الأدب فى عمومه ، والشعر بنوع خاص ، رسالة يقصد بها إلى بعث حب الجمال والقوة ، بل حب الحياة فى مراحلها المتعددة ، بل حب الوجود فى وحداته المختلفة ، وحب الحق فى أية صورة من الصور ، والجمال فى أى مظهر من المظاهر .

وما أحسب تأدية هذه الرسالة على وجهها الصحيح يتأتى لأديب أو شاعر ـ بالغاً ما بلغ كلاهما من الشهرة والدعاية ـ ما لم تكن صادقة الأداء،صحيحة التوجيه ، بل ما لم تكن الروح الفنية التى تتجه إلى المثل الأعلى ، خالصة من الأدران ، مبرأة من الشهوات ، منزهة عن الأحقاد الشخصية .وهذا الشاعر الذى لا تتأتى له وسائل عرفان ما فى الحياة من حق وجمال، قمين به أن يترك رداء الشعر ، قبل أن يرشح نفسه له،أو يذهب فى الدعاية لنفسه بين قومه به، فيلبس مسوح الوعاظ زوراً وبهتاناً .

ولكى نتلمس مثلنا الأعلى فى شعر الشاعر ، يجب أن نتلمس أولا مبلغ ما فى شعره من تصوير للآمال التى تتصل بنفوسنا،أو وصف للآلام التى تستشعرها قلوبنا،أو تحديد للرغبات التى تضطرم بها جوانحنا ، بل نتلمس فيه الفكرة وهى من الشعر أساسه ، والأسلوب وهو ثوبه الموسيقى الجميل ، ومثله وهو ثمرته الناضجة ؛ ولكى تكون حديقة الشعر جميلة يانعة ليكشف لنا الشاعر عما فى الحياة ، يجب أن ينهل من ورد الفلسفة ومن ورد العلم معاً ، لأنهما فى الحقيقة الوسيلتان الفعالتان اللتان بهما ندرك كنه الحياة ، ونتعرف إلى ما فى مذاهبها المتعددة ، وألوانها المختلفة ،من حب وفن وجمال،لذلك كان الشاعر الأكثر نهلا من هذين الوردين،أقرب إلى المثال الذى نطلبه، وأقدر على تأدية الرسالة التى تحملها إياه طبيعته .

الشاعر والعلم والفلسفة

وهنا قلنا للدكتور: قد يعترض على هذا معترض فيقول : إنه ليس شرطاً فى الشاعر أن يكون متمكناً من العلم والفلسفة ، لأن الشعر عاطفة ووحى وإلهام ، وكل ما هو عاطفة ووحى وإلهام،إنما يعتمد على النفس الحساسة،والشاعرية المدركة ،والذوق السليم،والفطرة المطبوعة ، لا على العلم أو الفلسفة؛ولهذا يقال فلان شاعر بالطبيعة،وفلان شاعر بالصنعة،وما سمعنا أن الزمن أبقى على ذكر شاعر من شعراء الصنعة إبقاءه على شعراء السليقة أجمعين ، فما قولك فى هذا ؟

فقال: إنك تعود بى إلى خلاف حدث فى نفس هذا الموضوع،أو ما يقرب منه تماماً،وقد حدث ذلك بينى وبين صديقى « خليل مطران » فى أوائل سنة١٩٢٨،وكان مثاره التساؤل عما إذا كان الأدب العربى قديمه وحديثه يكفى لتكوين الأديب،وقدكان موقفى ـ كما تعرف ـ موقف المقتنع بأن لا بد للأديب من دراسة اللغات الأجنبية،والاحاطة بمراحل العلم والفلسفة؛ليتسع تصوره للمثل الأعلى،وينمو خياله

ويتجدد فهمه للحياة ، ويترامى أفقه ؛ ولهذا كان العرب قديماً يقولون: إن الأدب هو الأخذ من كل شيء بطرف ؛ وكانوا لهذا يضيفون إلى علوم اللغة ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والفصاحة ، علوماً كثيرة من سير العرب وأخبارهم وتاريخهم ومواقع بلادهم ؛ ومع اقتناعى بهذا الذى ذكرت فى اعتراضك ، فإنى أقول لك : إن مثل الأديب المطبوع الذى لم يتثقف بالعلم والفلسفة، ولم يتعرف إلى أدب الافرنج أو اليونان مثلا ، مثل الشجرة المثمرة التى لا تنتج ثماراً طيباً، ما لم يرعها صاحبها تهذيباً وتشذيباً، ويتعهدها رياً وسقياً، ثم هى تؤول ـ آخر الأمر ـ إلى الذبول ثم إلى تسليم أنفاسها إلى الموت، فلا يبقى فيها ـ إن قدر لها البقاء ـ إلا ألياف من الجذع ، لا تنفع إلا للوقود، كذلك أرى أن مثل أديب الصنعة، مثل الأرض الجدباء، لا تثمر ثمراً ناضجاً ـ لو قدر لها الإثمار ـ مهما أنفقت فى سبيلها من جهد ومال .

ونحن بالطبع لا نريد هذا الصنف الأخير ، سواء أكان من الأدباء أم الشعراء ، وإنما نريد النوع الأول ـ أعنى المطبوع ـ على أن يكون فى الوقت ذاته مستكملا أدوات الصنعة من علم وفلسفة ودراية بالآثار الفكرية فى الشرق والغرب، أى يكون قارئاً لشعراء الانجليز أو الألمان أو الفرنسيس أو الايطاليين أو اليونانيين مثلا ، حتى يستطيع أن يحقق لنا المثال الذى تنشده نفوسنا جميعاً .

لقد تطورت الانسانية فى جميع مراحلها تطوراً هو أقرب إلى الطفرة منه إلى التريث ؛ وهذه المشكلات السياسية ، وهذه الآراء الفلسفية ، وهذه المكتشفات الحديثة ، وهذه المذاهب العلمية المتجددة ، التى قلبت الكون وكادت تغير معالمه ؛ ولونته بألوان مختلفة من البناء والهدم آناً ، والترميم والتدمير آناً آخر ، والاصلاح والتخريب آونة ؛ كل هذه داعية من يتصدى لحمل الرسالة الأدبية إلى تعرف هذا الكون فى مختلف مراحله؛ فهذا العصر الذى تغيرت فيه الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء ، لا ينفع فى وصفه ذكر الأطلال، أو البكاء على الديار ، أو نشدان القافلة ، أو تطلب المرعى ، أو السعى وراء الهودج ، أو البحث عن عين الماء ، أو ما شابه ذلك من أساليب الحياة البدوية ، التى أكل عليها الدهر وشرب .

الوحدة الموضوعية

ولماذا لا أزيد القول صراحة فأقول لك : إن أدبنا العربى فى جميع مراحله كان أدب حوادث ، لا أكثر ولا أقل ؟

وأنت إذ تحاول تلمس الفكرة فيه أو الوحدة الموضوعية إنما تحاول عبثاً ، ذلك أن نفس الشعر العربى بالغ القصر ، وهو على قصره قصير الفكرة ، بينما نراه ـ على قصره هذا ـ طويل الغزل والتشبيب ، كثير المدح للأمراء والتحدث بمفاخرهم ؛ أما الفكرة الأساسية فيأتى ترتيبها فى النهاية ، فاذا هى لا تستقر فى النفوس استقرارها المنطقى المعقول ، وإنما تذهب

من النفس إثر تلاوتها أو سماعها فى الفضاء الواسع،ذلك أن الأصل فى القصيدة لم يكن الفكرة، وإنما كان مجرد النظم والرغبة فى استرضاء الممدوح لا أكثر ولا أقل .

وهم على إكثارهم من التغزل ، والتشبيب ، والمدح ، والفخر ، والهجاء ، إلى غير ذلك من فنون شعرهم، لم يكونوا ليستطيعوا للوصف إطالة ولا جودة ، ولست أعذرهم فى هذا أو آخذ بالرأى الذى يقول : إن حياتهم كانت متشابهة ، لأنها حياة بدوية فطرية لا تتعدى الصحراء أو البادية ، وإن صلتهم بالمدنيتين : الرومانية ، والفارسية كانت فى حكم النادر .

أقول إننى لا آخذ بهذا الرأى مطلقاً ، ولا يحل من نفسى محل الاقتناع،لأن هذا الرأى ـ على فرض التسليم بصحته جدلا ـ لم يكن ليضع فى أقدام الشعراء قيوداً تمنعها السير، أو يطوق أعناقهم بأغلال تمنعها الحركة .

وها نحن أولاء نقرأ فى تاريخ الدولة العباسية وشعرائها عجباً ، فنراهم ـ وقد امتد سلطان المسلمين ، واستطالت دولتهم ، وعلت كلمتهم ، واتسعت أطماعهم ـ تطوروا من الاقليمية إلى الجامعية ، ومن القومية إلى العالمية ، بل أخذوا يكشفون عن أغراض نبيلة ، وأطماع أوسع ، وأخذوا يجددون فى الألفاظ ، ويحيون ما اندرس منها ، ويضيفون إليها بالبحث والاشتقاق ما استحدث فى عصورهم واستجد فى عهودهم ، ويسجلون ما وصل إليهم من أخبار الأمم القديمة وسير الأمم المجاورة .

أما الآن وقد أصبحنا نفكر بعقول غربية ، ونستهدى فى تفكيرنا بمخلفات أجدادنا من دين ولغة وتاريخ وأدب أيضاً ، فان الأمر يبدو شاذاً كل الشذوذ حين نوقر آذاننا بسماع هؤلاء الشعراء الذين ما يزالون يحدثوننا عن ليلى وسلمى ورباب ، باكين الأطلال والديار ، ذاكرين بعد المزار ، حانين إلى عهد الجمل والهودج،والشرعة والعرمض ، وضارج وحومل .

أجل ! إنه ليبدو شاذاً تمام الشذوذ ، بل اتهاماً لأذواقنا وعقلياتنا ، حين نقرر أن هؤلاء شعراء .ولهذا لست أعرف ـ على التحديد ـ إن كان مستقبل الشعر سيكون خيراً أم أسوء من حاضره وماضيه،فقد أكون أكثر إيماناً بأن المستقبل للنثر دون الشعر ، كما يدل على ذلك حاضرنا وماضينا القريب .

على أنه يوم يتاح لشعرائنا ـ ونسميهم شعراء تسامحاً ـ أن يجددوا فى فنون الشعر ، ويطرقوا أبواباً جديدة تشبه تلك الألوان التى نحسها فى (شلى) و (بيرون) مثلا ، بل يوم يطول نفسهم فى الوصف والتحليل ، والتعمق والاستقراء ، والغوص وراء المعانى العالية ، والقصص والملاحم ، كما كان يفعل شعراء اليونان . . . ويوم نتلمس فى شعرهم الوحدة الفنية الموضوعية ، وسمو الخيال واتساعه ، وتصوير المثل الأعلى تصويراً دقيقاً . . . .

يومئذ ، ويومئذ فقط ، ننادى بأن المستقبل للشعر .

رأى الأستاذ على الجارم

لو أردت أن أصور لك تلك الجوانب الضافية، التى تتميز بها شخصية العالم الأديب، والأديب العالم، والشاعر الفحل الأستاذ «الجارم»، لطال بى القول؛ وحسبى أن أقول لك إنه عالم فذ فى فنون اللغة والبلاغة والأدب، وبحاثة بعيد الغور فى تاريخ اللغة وما يتصل بها من: نحو، وصرف، وبيان؛ وهو حين يزجى إليك رأياً من آرائه، إنما يحرص على أن يدفع إليك الرأى الرصين، والفكرة السديدة، والعقل الراجح، والمنطق المتزن، والقول الفاره، والكلام السهل الممتنع؛ ثم هو يحرص - إلى ذلك - على أن يكون رأيه مشفوعاً بالحجة والبرهان، مقترناً بالمنطق والدليل. وقد يكون كل ما يؤخذ عليه أنه - وهو الشاعر الفحل، الرائع اللفظ، السرى المعنى، البعيد الخيال - مقل فى قول الشعر، فلا يقوله إلا فى أدق ساعته، لا عن عجز، وإنما سمواً به عن الابتذال، وترفعاً عن المهاترة.

فاجأته فى منزله بهذه الأسئلة، فأدهشنى منه أن يرتجل الاجابة عنها ارتجالا، كأنما يقرأ من كتاب أمامه، أو يتلو قصيدة لما يتمها بعد، أو كأنما كنا على موعد سابق. وهأنذا أقدم إليك ما علق بذهنى من هذا الحديث: الذى بدأه بقوله:

هل أحدث موت الشاعرين فراغاً ؟

إنه لمن العسف كل العسف، أن ننكر أن ثمة فراغاً هائلا قد حدث إثر موت هذين الشاعرين العظيمين، اللذين أعادا من جديد سلطان الشعر إلى سابق عهده، وبسطا ظل زعامته فى الوادى بسطاً؛ على أن هذا الفراغ لا ينبغى أن يصرفنا بحال من الأحوال، عن تلمس الشاعر المجهول الذى سيصبح أمير الشعر؛ وإذا كان هذا الشاعر المنتظر نسميه الآن بالمجهول ونعبر عنه بالحرف (س) كما يعبر الرياضيون، فان المستقبل كفيل بالكشف عنه والايماء إليه.

وهذا الذى رأيناه من تمجيد الأمة للشعر: حكومة وشعباً، سيكون باعثاً قوياً على خلق الروح الشعرية الحساسة، وبعث الشاعر الفنان الذى يؤدى رسالته فى عزم وقوة، وفى تجديد وتجويد، وفى روعة وافتنان؛ بل أستطيع أن أقول لك إن هذه الظاهرة - ظاهرة التقدير الأدبى للشعر والشعراء - ستحفز الشعراء إلى الابداع فى القول، والافتنان فى الوصف، والتجويد فى البناء، والغوص وراء المعانى الرائعة، وتلمس المثل العالية، وكشف العواطف الانسانية الدفينة، وتصوير الخوالج النفسية المصرية تصويراً دقيقاً.

وقد يكون من حقى أن أعتقد اعتقاداً تام اليقين، أن الثغرة - التى منينا بها الآن بعد

موت الشاعرين ـ أقل اتساعا وأصغر مدى من تلك التى أحدثها موت «البارودى» فى عصره ؛ وأنت تعلم ذلك الأثر الهائل الذى أحدثه موت «البارودى» فى دولة الأدب وبنيان الشعر ، وقد تعلم أن الناس وقتئذاك ، قد ذهبوا يتلمسون السبل فى تعرف الشاعر المنتظر ، بل راحوا يظنون الظنون ويتنبئون ويقدرون ، فتأبى الأقدار إلا أن تفاجئهم بـ « شوقى » ، ليكون إعجازاً لارهاص «البارودى» ، كما كان « البارودى » إعجازاً لارهاص « الساعاتى ».

أما كيف تسنم « شوقى » ذروة هذا المجد ، فيعود إلى ما آتاه الله من المواهب الفطرية ، والأخلاق الرضية ، وبسطة العيش ، والجاه ، واتصال بالأمراء والعظماء ، وسعة الثروة ، والفراغ ، وهدوء البال ؛ فان كل ذلك كان سبباً : وأى سبب ، فى قبضه على صولجان الشعر حتى وفاته .

وقد كان « شوقى » مثقفاً بالغ الثقافة ، متذوقاً كل التذوق لما يقرأ ويدرس من أدب العرب ، ودواوين العرب ، ولغة العرب ، وأدب الفرنجة ، ولغة الفرنجة ، أضف إلى ذلك ما كان يحفظه من تواريخ الأمم ، وحوادث العالم فى مختلف مراحله ، مما جعل شعره مملوءاً بالأسانيد التاريخية ، والحكم ، وضرب المثل ، والتفنن فى الوصف ، والبراعة فى التخلص ، وحسن المدخل ، وجميل الوقع .

وقد فاتنى أن أقول لك : إن أبرز ميزة كانت فى أخلاق « شوقى » ، إنما هى ميزة الاستسلام إلى الخالق تعالى ، والرضا بحكمه ، والاطمئنان إلى قضائه وقدره ، اطمئناناً وفر له هدوء النفس ، وطمأنينة القلب ، وراحة الضمير .

وقد لمست هذا كله فى محادثاتى معه ، ومن صداقتى له ؛ فعرفت منه السر فى هذا الينبوع الفائض ، الذى أفاضه الله عليه ؛ فاذا قدر لشاعر من شعرائنا المعاصرين هذا الذى ذكرت ، فليس من شك فى أنه سيصبح أمير الشعر المنتظر .

مستقبل الشعر والشعراء

وتسألنى رأيى فى مستقبل الشعر ، إذاً فاسمع :

لا شك أن الشعر سينهض نهوضاً بارزاً ، وقد تأثر الآن بعوامل المدنية ، وأصبح فى كثير من نواحيه صورة صادقة للعصر الذى نعيش فيه ، وقد عاد أسلوبه إلى ما كان عليه من روعة فى العصر العباسى الزاهر ، وأصبح ـ مرة أخرى ـ فناً له أصوله ومبادؤه ، وهو يقال الآن فى مختلف الموضوعات ، ومتعدد الأفانين ؛ والشعراء يتوجهون إليه فى غالب أحيانهم كما يتوجه رجل الفن إلى قطعة من الفن ، يبرزها رغبة فى إظهار مواهبه ، وتنفيساً عما يجيش فى نفسه من صور ، ويختلج فى ذهنه من خيال ؛ فهو يقول الشعر ، لأنه يحبه ، ولأنه جزء من نفسه ، ولأن الفطرة تدفعه إلى أن يقوله ؛ ولا شك أن ذلك كفيل بالابداع والاحسان .

هل تأثر الشعر العربى بالثقافة الأجنبية؟

وتقول لى : إن الشعر العربى قد تأثر ـ إلى حد بعيد ـ بالثقافة الأجنبية ؛ ولست أخالفك فيما تذهب إليه كل المخالفة ، ولكنى أقول :

إن الشعر العربى كان قليل التأثر بالثقافة الاجنبية، لأن شعراء العربية أرادوا أن يحافظوا على أسلوب الشعر القديم ومناهجه ، ولم يريدوا أن يدخلوا عليه عاصفة من التجديد تذهب بآثاره ، لأنهم رأوا ـ وما رأوه حق ـ أن كل فن يجب أن يكون مطبوعاً بطابع الأمة ، ملائماً ذوقها العام ؛ ومثل الشعر فى ذلك مثل الموسيقى ، أرأيت لو أدخل على النغمات الشرقية عنصر من النغمات الغربية ، أكانت تطرب لها أذنك ، أم تهش لها نفسك ؟ . . . فلكل أمة فنها ، ولكل أمة ذوقها ؛ لذلك حافظ الشعراء ـ ما استطاعوا ـ على أوزان الشعر وأساليبه وأخيلته ، ولم يغفلوا التجديد فى المعانى والموضوعات ، وقد اتسع صدر الشعر العربى لهذا التجديد ، ولم تضق به أوزانه ولا قوافيه، لأن اتساع اللغة وكثرة مفرداتها ومترادفاتها ، أفسح الطريق لكل قائل ، كيفما طال نفسه ، وأبعد فى مراميه .

أين الوحدة الموضوعية الفنية؟

وهنا قلت له : إن أغلب قصائد شعراء العرب والعصر الحاضر خال من الوحدة الموضوعية الفنية، فما رأيكم فى هذا ؟

فقال: نشأ الشعر فى الجاهلية الأولى مظهراً لخطرات النفس وأحاسيس الفؤاد، وبخاصة حينما كانوا يرتجلون الشعر ، فكان الشاعر ينتقل من فكرة إلى أخرى ، ومن مظهر من مظاهر الوجدان إلى آخر ، لأن أصول الفن الشعرى لم تكن وضعت، فكان الشعر يقال عفو الخاطر ورسالة البديهة ؛ وتستطيع أن تمثل لذلك بمعلقة «طرفة» ، فقد تنقل فيها من وصف الأطلال إلى وصف الناقة، إلى وصف محبوبته، إلى الشكوى، إلى وصف ملاهيه ومجونه ... إلى غير ذلك.

واستمر الشعر فى صدر الاسلام ، وفى عهد بنى أمية على هذا السنن ، إلا ما يبرز أحياناً فى قصائد الشاعر من وصف الحياة الجديدة التى ابتعثتها الفتوح الاسلامية ، وإلا ما كان من رشاقة الألفاظ ورقتها، مما تأثر فيه المسلمون أسلوب القرآن الكريم؛ أى أن الأسلوب الشعرى الفنى تهذب كثيراً واتسع مجال القول قليلا بفنون جديدة ؛ أما هيكل الشعر ومنهجه ومثله، فقد بقيت حافظة كيانها العربى الصميم ، وربما كان من أسباب هذا قرب ذلك الجيل من عهود العرب الأولى ، وشدة تعصب الأمويين للعرب والعربية ؛ على أنا نرى فى ذلك العصر طائفة احتفظت بوحدة الموضوع فى قصائدها ، وهم طائفة الشعراء الغزلين ؛ كعمر بن أبى ربيعة ، وجميل بثينة وغيرهما ؛ ممن كان يبنى قصيدته على الغزل من أولها إلى آخرها ، بحيث تكون مظهراً لفكرة واحدة .

ولما جاءت الدولة العباسية ـ وقد قامت بمناصرة الفرس وجهادهم ـ كان للفرس والفارسية شأن يذكر ، فانتقلت الحياة العربية الصميمة من البداوة إلى الحضارة ، وامتزج العقل السامى بالعقل الآرى ، ونهض الخلفاء فى صدر الدولة العباسية بمناصرة العلم والأدب ، فترجموا كثيراً من آثار اليونان والرومان ؛ وكان لهذه الآثار مدى بعيد الأفق فى تثقيف العقول العربية ، وإمدادها بألوان جديدة من الأفكار والأخيلة؛ وظهر هذا الأثر فى الشعر العباسى من غير شك ، وكثرت معانيه ، وجددت أخيلته ، ورقت عبارته، وكان مظهراً صحيحاً للحياة العباسية، يمثلها من حيث قوتها، واتساع سلطانها، وعظم ثروتها، ومجالات الأنس والسرور فيها.

وقد اتسع نطاق متن اللغة بدخول كثير من الألفاظ الأعجمية بعد أن صقلها العرب بصقالهم ، فامتزجت بلغتهم غير مستوحشة ولا نابية ، وأصبحت ثروة جديدة للغة العربية ؛ وقد كان يكون التجديد أعظم مما شاهدناه ، لولا ميل فطرى فى نفوس الشعراء للتمسك بآثار آبائهم ، والمحافظة على مبانى الشعر وقواعده ، ولولا أن كان هناك طائفة من النقاد على رأسهم : الأصمعى ، وحماد الراوية، وغيرهما ـ الذين كانوا يتعصبون للشعر العربى القديم، ويعدون كل خروج عليه خروجاً عن ذوق الشعر ، وتقصيراً عن بلوغ مداه ـ فكانوا لا يفضلون على الشعر الجاهلى شعراً ، وكان لهؤلاء من النفوذ بين كبار رجالات الأدب وزعماء الدولة الشىء الكثير ، فكان الشعراء يتعمدون ترسم آثار السابقين لينالوا الزلفى عند هؤلاء النقاد .

وأول من أطلق فكره من هذه الأغلال ـ على ما أعرف ـ ابن قتيبة الذى وضع كتابه «الشعر والشعراء» لنقد زيف الشعر وصحيحه ، دون تأثر بالقديم أو الجديد .

وقد حاول «أبو نواس» الخروج على الشكل الدربى فى بعض قصائده ، فأخذ يهزأ بمن يبكون على الأطلال ، ويندبون الرسوم فى طلائع قصائدهم ، وهو الذى يقول :

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل حديثك فى ابنة الكرم

وله ما يشبه هذا المطلع فى النعى على التمسك بالقديم ، ولكننا نراه فى بقية شعره يحافظ على هذا السنن ، ويأخذ نفسه به أخذاً ؛ على أن الشعر قد ظهر فيه تجديد فى الأوزان فى هذا العصر ؛ ولمسلم بن الوليد ـ وهو من وزن جديد ـ قوله :

يا أيها المعمود قد شفك الصدود
فأنت مستهام حالفك السهود
تبيت ساهراً قد ودعك الهجود
وفى الفؤاد نار ليس لها خمود

ولغيره ـ من شعراء العباسيين ـ أمثال لهذا ، منثورة فى كتب الأدب .

وقد وجد شىء من التجديد فى القافية أيضاً ، تراه واضحاً فى ديوان ابن المعتز .

فالتجديد فى هذا العصر حصل فى الوزن والقافية كل على حدة ، ثم جاء ابتكار الموشح

الأندلسى فجمع بينهما ، فهو تجديد فى الوزن ، وتجديد فى القافية معاً ، والموسيقى هى التى دفعت إلى ابتكار الموشح .

الشعر والموسيقى

ومن ثم سألنا الأستاذ أن يشرح لنا العلاقة بين الشعر والموسيقى ، وعما إذا كان فى أشعار العرب ما يشبه ملاحم اليونان ، فقال :

كان الشعر لا يسلس قياده لنغمات الموسيقى ، فرأى الأندلسيون أن يضعوا النغمات أولا ، ثم يقولوا الشعر على هواها ثانياً ، وبذلك خضع الشعر للموسيقى ، بعد أن خضعت الموسيقى للشعر طويلا .

أجل ! إن الشعراء فى هذا العصر لم يتجاوزوا الموضوعات المعروفة إلا قليلا ، فلم ينحوا نحو الشعر التمثيلى أو القصصى ، الطويل القصائد ، الكثير الملاحم ، البعيد النفس ؛ لأن الاهتمام ـ على ما يظهر لى ـ بترجمة العلوم كان فوق الاهتمام بترجمة الآداب ، ولأن اتجاه الشعراء ـ فى أغلب مناحيه ـ كان للتكسب بالشعر ؛ على أن الشعراء فى هذا العصر لم يتركوا حادثة ذات شأن من غير أن يسجلوها فى أشعارهم . . . وشعر المتنبى فياض بوصف وقائع سيف الدولة وملاحمه ، ويكفى أن تقرأ قصيدته التى استهلها بقوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

لتعرف أن العرب لم يقصروا فى وصف الملاحم وتصوير الوقائع ، ثم اقرأ بعد ذلك قصيدة أبى تمام فى وصف فتح « عمورية » التى استهلها بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

تجد وصفاً ممتعاً وتصويراً دقيقاً للملحمة ؛ نعم ، إن هذه القصائد ليست بالطوال ، ولكنها على قصرها وافية بالغرض الذى سيقت له وقيلت فيه .

فنحن نستطيع الآن أن نقول : إن التجديد فى الشعر العباسى كان جلياً ، ولكنه حافظ على أسلوب الشعر العربى القديم وسننه ومناهجه .

تطور الشعر

ثم انتقل الشعر بعد الدولة العباسية انتقالا آخر ، وكان لذلك تمهيد ابتدأ من « المعرى » أو بعد وفاته بقليل ، وكان زعيم هذا الانتقال القاضى الفاضل ، فهو مؤسس الطريقة الفاضلية فى النثر ، وقد سلك الشعراء طريقها فى الشعر ، فأصبحت العناية بالألفاظ وزخرفها وتزيينها متجه الشاعر وغايته ، ولم يكن البحث عن المعانى ونضارة الأساليب العربية فى هذا العصر بالذى يستثير اهتمامهم ؛ وهو نوع من التجديد أرادوا أن يسلكوا به طريقة جديدة فى صياغة الشعر ، وقد بلغت هذه الصياغة حد كمالها فى الصدر الأول من عهد المماليك ، وكان زعيم الشعراء فيها ابن نباتة فى مصر ، والصفدى فى الشام .

وتسألني رأيي في هذا الشعر فأقول لك : إننا لم نوفه حقه من الدرس والعناية، وإننا بهرنا بجمال الشعر العباسي فانصرفنا إليه جملة ، ولم نأبه إلا قليلا لقراءة الشعر فيما يليه من العصور .

إن شعر عصر المماليك شعر مصري في روحه ونزعته وموضوعاته، فمن العناية القومية أن نعنى بدرسه وتحليله والنفوذ منه إلى تاريخ هذا العصر، قبل أن نعنى بشعر بغداد وما وراء النهر .

وتستطيع أن تسمى هذا العصر عصر الزينة والجمال ، فقد كان الجمال متملكا فيه كل نفس ، وقد ظهر أثر ذلك في مساجد المماليك ومواكبهم ، وما كانوا يتحلون به ويحلون به محافلهم من صنوف الجمال ؛ وقد كان الشعر صورة لهذا الجمال ايضاً ، فكله زخرف ، وكله حلية لفظية ، وكله جمال مبرقش ، تتجلى فيه خفة الروح المصرية ، وتظهر فيه النكتة البلدية بديعة رائعة أخاذة ، تدفعك — على الرغم منك — إلى المرح والابتهاج الايناس .

مثال ذلك قول « ابن دانيال » الذى كان طبيب عيون بالقرب من « باب الفتوح » :

يا سائلي عن حرفتي في الورى واضيعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس ؟

وقول الجزار ، وقد كان قصاباً بالقاهرة :

كيف لا أمدح الجزارة ماعش ت طويلا وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيني وبالشعر كنت أرجو الكلابا ؟

ثم تقهقر الشعر بعد طائفة ابن نباته ، فأصبح خالياً من جمال الزينة ، خالياً من المعاني ، واستمر به الضعف حتى نهض نهضته الحديثة ، وكانت اول صحوة له في شعر «الساعاتي» الذي ظهرت فيه لمحات من الشعر القديم والأسلوب القديم ، وظهرت فيه مجانفة عن زخرف اللفظ الذي لم يشفع له شفيع من حسن الذوق أو خفة الروح ، ثم جاء « البارودي » وغبر، فلم يشق له غبار ، وكان في الحق نادرة الفلك ، والسبب في نهوضه أنه عني بدراسة شعر السابقين من الجاهليين والأمويين والعباسيين ، ولم يرض أن يقتصر على دراسة عصره ومن سبقهم من الشعراء بأمد قريب ، كما كان شأن غيره من الشعراء .

ظل ذلك شأن الشعر حتى أتاح الله للعربية « شوقي » شاعرها الفرد ، وبلبلها الغرد ، الذي أضحى علم زمانه ، فأبدع في فنون الشعر ومذاهبه ما شاء له الابداع ، وجدد كثيراً في معانيه وأمانيه .

* * *

ومجمل القول أن الشعر العربي كان فيه باحة للتجديد قليلا أو كثيراً في عصوره المختلفة ، وأن الشعراء حافظوا — جهد طاقتهم — على بقاء هذا كله مصوناً من أن يعبث بأركانه عابث، أو يمس بسوء بنيانه، فظل طوداً شامخاً، وبقي أثراً خالداً ، نتنسم منه أريج آبائنا السابقين وأجدادنا الأولين ، ونراه مفخرة لمجدنا العربي، وبنائنا الاسلامي، وروحنا الشرقي ، ومزاجنا القومي .

وسيبقى الشعر — كما كان — تزخر بحوره بما كان للعرب من : أدب رائع ، وخيال ساحر ، وبيان آسر ، وتصوير ماهر .

عبد العزيز . . .

ذكريات وأسرار

شباب الشيطنة أو شيطنة الشباب

من حديث فكاهي جرىء

لسعادة شيخ العروبة أحمد زكى باشا

> الشاب أحمد زكى افندى مترجم مجلس النظار فى عام ١٨٩٢ ـ رئيس الوفد المصرى فى مؤتمر المستشرقين بلوندرة ، يطلب العلم ولا ينسى أن يطرح الشبكة للصيد ـ أحمد زكى بك رئيس أقلام مجلس النظار سنة ١٨٩٤ ، يذهب الى جنيف رئيسا للوفد المصرى فى مؤتمر المستشرقين ـ أحمد زكى بك سكرتير ثانى مجلس النظار فى سنة ١٩٠٠ ، يسافر الى المعرض العام فى باريس ، فيجد « كل الصيد فى جوف الفرا » ـ شيخ العروبة أحمد زكى باشا يتأنق ـ منذ سنة ١٩٢٨ ـ فى بناء بيت لله لكى يحسن الله له الختام بعد سنين وسنين ان شاء الله .

لست أزعم أن شيخ العروبة ، وعلامة الشرق الأستاذ «أحمد زكى باشا» نكرة فأعرفه ، أو مجهولا من القراء فأقدمه ؛ كذلك لا أزعم أن بحوثه التاريخية الجيدة ، أو دراساته اللغوية الطريفة ، أو مراحل حياته المملوءة بجلائل الأعمال ، مفتقرة إلى التنبيه عليها ، أو الاشادة بها ، أو الارشاد إليها .

وإنما أزعم لك أن «زكى باشا» الشيخ الوقور ، وصاحب السن المتقدمة ، والعالم الجليل ذا الطود الشامخ فى العروبة ، والقدم الراسخة فى العربية ، كان فى باكورة شبابه فتى جريئا بكل معانى الكلمة ؛ وكان يقضى حق الشباب ، كل حقوق الشباب ، أنى أتيحت له الفرصة ؛ ثم يسرح للصيد ، أيان ساقه الهوى أو الهواء ، فيفوز بالغنيمة كما يختار .

ولست أشك فى أننى أخجلك ـ أيها القارىء العزيز ـ بهذا الذى أزعم مفاجأة ، بل لست أشك أنك ستتهمنى بالمغالاة فى قولى ... لكننى أرجو أن تتريث ، وأن تعلم أن « زكى باشا » على جلال شيخوخته ، وسعة علمه ، وعظيم مكانته ، وعلى ما يحمل من تقديس للعربية والعروبة ، إنما هو غير « أحمد زكى أفندى » رئيس مندوبى الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الثامن المنعقد فى لوندرة عام ١٨٩٢ م ، ثم فى جنيف سنة ١٨٩٤ م ، وغير « أحمد زكى بك » الذى أصدر لنا فى سنة ١٩٠٠ كتاب « الدنيا فى باريس » ، ووصف فيه معرضها العام .

أرجو أن تعتقد ذلك ، وإلا فاستمع إلى هذه القصة الجريئة التى قصها علينا الباشا فى أحد مجالسه الحافلة بالأصدقاء من العلماء والأدباء .

وتسألنى كيف استطعت استخراج أسرار شيخ العروبة فى شبابه ؛ فاعلم إذن أن نشاط الباشا ، ومقدرته على العمل ليلا ونهاراً ، تجعله يعتقد أنه لا يزال فى سن الفتوة ... فتراه يغضب إذا ما اجترأت عليه ، وقلت له : إنه شيخ،أو شيخ العروبة.وتراه يرضى كل الرضا ، وتروح سنه ضاحكة،وينطلق وجهه بالبشر والفرح والايناس،إذا خاطبته بأنه فتى العروبة ... وقد استدرجته من هذه الناحية الضعيفة فيه،إى والله ! استدرجته بلباقة حتى جعلته يقول لى:

شباب وفتوة

أراك يا فتى العرب مشرد الذهن،موزع الفكر،مضطرب اللب،تستشعر الخوف من الغد، وتضطرب من ذكر المستقبل ؛ وتلك سياسة لا أرضاها لك، ولا لأمثالى من الشبيبة العربية !

نحن نريدكم عدة للأمة ، وقوة للشعب . ولن يتحقق هذا الأمل ، ما لم تلاقوا الحياة هاشين باشين ، وتقابلوا عواصفها فرحين باسمين ، وتقاوموا أعاصيرها بقلوب قوية ، ونفوس وثابة ، وروح مشبعة بالصفاء ، مؤمنة بالحق والقوة والجمال .

ألا إن أيامكم عليكم معدودات ، وأمنياتكم فى الدنيا محصورات . ألم تسمع قول المعرى فيلسوف الشعراء ، وشاعر الفلاسفة :

وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ولا بعد مر الأربعين صباء ؟

بل ألم تسمع قول صفى الدين الحلى :

حق الصبا دين عليك ، فوفه بالأنس بين مخايل ورداح ؟

أجل ! إن الحياة لأضيق من أن تتسع لهذا التبرم أو ذاك التزمت . ولهذا لاترانى أتعرف إلى الهم ، أو أدع الأحزان تتلمس إلى نفسى سبيلا ، أو أترك الأوهام تتحسس من قلبى دخيلا . وقد كنت ، وأنا فى فجر العمر وضحوة الصبا – أعنى فى الرابعة والعشرين – كما أنا الآن ، مملوءاً صحة ، وعافية ، وقوة ، وفتوة . وكنت – إلى ذلك – أبسم للحياة ، واستهتر بالدنيا ، وأسخر من المتشائمين .

فلسفة الشباب ...

سألته : ما عهدناك متفلسفاً ولا متصوفاً،بل باحثاً متعمقاً،فمن أين،وإلى أين،وكيف تتحدث بهذه الفلسفة ؟ فقال :

كانت لى فى هذه البابة فلسفة طريفة . فقد كنت أفترض دائماً أن الدنيا مرحة هانئة ، فينانة سرحاء . وارفة الظلال . فلا أنظر إليها نظر أولئك الذين عجزوا عن إدراك كنهها ، والتعرف إلى مكنوناتها . بل كنت أغالط عقلى بعقلى،فأنتزع البرهان من نفسى لاقناع نفسى

بأن الدنيا تساوى الآخرة ؛ أليس الله تعالى قد سوى بينهما ، فقال لنا على لسان محمد بن عبد الله نبيه العربى الكريم : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة » ؟

هكذا كان خيالى ، وهكذا كانت فلسفتى ، بل فلسفة الشباب ؛ فكنت أنتهز الوقت ، وأهتبل الفرصة ، وأتملك الزمن قبل أن يتملكنى بحادثاته وصروفه ... بل قبل أن تعصرنى أعاصير الحياة عصراً ، وتصهرنى آلام الدنيا الدفينة فى بوتقتها صهراً ...

وهنا استوقفت الباشا ، وقلت له : إنك تشير فى كتاب رحلتك إلى أوربا « السفر إلى المؤتمر » إلى أشياء ستذكرها بالتفصيل فى كتاب آخر وما رأيناه ، فهل وفيت بوعدك ؟

فقال : إن ظروف الأحوال وأعمال الوظيفة قد حالت دون المرام .

فسألته أن يفضى إلينا بشىء من ذلك ، فقال :

حباً وكرامة ، وسأذكرها بالرغم من أنفك يا خبيث ، ولو أدى ذكرها إلى خجلى من نفسى وأمام قراء مجلتك الذين أجلهم وأعتذر إليهم مقدماً .

بين لندن وباريس

والآن فلأرجعن بك إلى عام ١٨٩٢م ، حيث كنت فى الرابعة والعشرين من العمر فى وظيفة « مترجم مجلس النظار » ؛ أوفدتنى الحكومة المصرية إلى لوندرة لحضور مؤتمر المستشرقين السابع ، ومعى المرحوم الشيخ محمد راشد إمام المعية السنية ، والدكتور فولرس ناظر الكتبخانة الخديوية ؛ فتعرفت بأوربا ، وبما فى أوربا ، وبمن فى أوربا ؛ وارتبطت بنفر جديد من علماء المستشرقين فى إيطاليا ، وفرنسا ، وإنكلترة ، وإسبانيا ، والبرتقال .

وبعد ذلك بسنتين ، أرسلتنى الحكومة الخديوية على رأس الوفد المصرى إلى مؤتمر المستشرقين الثامن المنعقد فى عام ١٨٩٤م بمدينة جنيف بسويسرة ، ومعى زميلاى فى المدرسة المرحومان عمر بك لطفى وكيل مدرسة الحقوق ، وأحمد شوقى بك أمير الشعراء .

فبعد أن فرغنا من المؤتمر ، ذهبت إلى بلجيكا ، وفرنسا ، وإنجلترا ؛ وانتهزت الفرصة لامتاع النفس والقلب والفؤاد بكل ما فى لندرا وباريس ، من متع ، ومسرات ، وظللت أعبر (المانش) بين العاصمتين الكبيرتين إحدى عشرة مرة ، دون أن يصيبنى دوار البحر ، أو ينالنى منه سوء ؛ ولم يكن جل همى من تلك الرحلات ، إلا الاستزادة من العلم ، والتوسع فى البحث ؛ على أنى فيما بين ذلك ، كنت لا أضن على نفسى بما تصبو إليه من التطلع إلى كواكب الجمال ، وجمال الكواكب ، فى كوكبنا السيار فى ذياك الفلك الدوار .

وقد كنت تعرفت أثناء زيارتى السابقة للوندرة بأسرة كريمة ، متوسطة الحال ، لكنها شريفة السجايا، شرقية الخصال ؛ فأضافونى على الطريقة المألوفة عندهم، فى نظير جنيه انكليزى واحد عن الأسبوع الكامل .

كانت ربة البيت تدعى (مسز براى) ، تستقبل زوارها وزائراتها فى مساء الثلاثاء من كل أسبوع . فقدمتنى فى حفل جامع إلى سرب من الآنسات ، وحور من الظباء فاتكات ، تاه فيها لب الليث المصرى ، وثانى أبى خراش العربى[1] ، وجرت فى عروقه دماء عربية شرقية؛ وكان لكلمة مصرى Egyptian أثرها الساحر ، وسحرها الآسر ؛ فقد أوحت إلى نفوس المجتمعات والمجتمعين حشداً من الخيالات الرائعة عن قدماء المصريين ، بل كانت كافية لأن تلهمهم عظمة (خوفو) ، وجلال (رمسيس الثانى) ، وأنف (كليوباترة) الذى فتن العالم بجماله فشطره شطرين،وحول تياره الجارف من الشرق إلى الغرب،ومن الغرب إلى الشرق ؛ بل كانت نسبتى إلى مصر الخالدة ـ يا فتى الشباب ـ كافية لأن تلهم القوم مشاعر النفس المصرية، وما وصمت به من تهم خرقاء ، أقلها تهمة الكهانة ، ومعرفة الضمير والمستقبل .

قالت آنسة من الآنسات ـ وقد أخذها سحر المصرى الوافد ـ : وإذاً فأنت مصرى يا « إجيبشيان » مثل « جبسس Gypsis » ، على معرفة تامة بعلم الكف .

فما هو إلا أن طنت فى أذنى هذه النغمة الناعمة ، حتى أخذتنى أخذ عزيز مقتدر ، فأجبتها فى لهفة وشغف : « أجل . . . أنا مصرى ، ولكن بمعنى Egyptian فقط » . فقالت : هذا تواضع مشكور .

ثم بادرتنى بأن بسطت لى يمناها لا للتقبيل ـ يا خبيث! ـ ولكن لقراءة (البخت) . فانتهيت إلى كفها بسطاً وقبضاً ، وتقليباً وغمزاً ، وحساً وجساً ، وصرت أتنقل من البنان إلى الراحة، ومن المعصم إلى الذراع ثم إلى المرفق. وهكذا ظللت أقلب فى هذه العروق السكسونية، وأترسم ذلك الدم ـ الأزرق القانى معاً ـ أستلهمه وأستوحيه ، وأواجهه وأناجيه ، دون أن تفلت تلك اليد البضة من مخالبى وبراثنى . وما كان لى من سبيل لتمام الاستمتاع بهذه الغنيمة التى صارت إلى يدى، سوى أن أتظاهر بمعرفة الحظوظ، وبعلم ما فى الكفوف من خطوط ، إلى دعوى الاحاطة بعلوم الأولين والآخرين ، وإنما أردت بعد أن صارت فى يدى تلك الحمامة أن أكون على الأقل مثل « عراف اليمامة »[2] .

---

(١) فى ذلك اشارة الى قول الشاعر القديم :

تكاثرت الظباء على خراش ... فما يدرى خراش ما يصيد

(٢) اشارة الى قول الشاعر الآخر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف مكة ان هما شفيانى

فقالا : شفاك الله ، ما لنا ... فيما حملت منك الضلوع يدان

هكذا صار أحمد زكى عالماً بالكف رغم أنفه . . . وللضرورة أحكام قاسية ، لكنها فى هذه المرة كانت لطيفة ومؤاتية .

سبحان من قسم الحظ وظ ، فلا عتاب ولا ملامة

قلت له : زدنا بياناً يا فتى العروبة ، أدام الله لك الصحة والقوة والفتوة ، فقال :

لا أطيل عليك ، فهذا شباب ! وللشباب حديث طويل ، كلما استطلته طال . وبحسبي أن أقول لك : إننى حين لامست هذه اليد،سرى فى جسدى تيار كهربائى، ارتجفت له كل أعصابى، واهتزت منه مشاعرى وأوصالى،وكان فى هذا التيار نور إلى جانبه نار ...

كانت الساعة رهيبة ، وكانت المحنة شديدة ، فماذا أفعل ؟ لجأت إلى حيلة وسوس بها الشيطان الخناس ؛ فكان فيها بعض الخلاص،ذلك أنى قلت للمجتمعين والمجتمعات:سأصدقكم القول ، لكن لى شروطاً :أولها أن تكون الشمس بازغة ، حتى أتبين الخط الملتوى من الخط المستقيم على ضوء النور الربانى . وثانيها أن يكون حديثى مقصوراً على مقصورات الطرف. وثالثها أن التى تريد معرفة ماضيها ... وحاضرها . . . ومستقبلها . . . تبدأ بدفع الاتاوة المقدسة ، وهى من رمز الشمس أى البياض ، بما لا يزيد على نصف شلن من الفضة المسكوكة ، أما الذهب فهو أصفر العين ، ولا قيمة له عند معاشر العرافين ! ورابعها أن يعلم الحاضر والغائب أنى لا أعتقد هذا العلم،ولا أصدقه ، وأنى إنما اقرأ ما أراه فى الخطوط ،كما أنكم تقرءون كتب المجوس ولا تصدقونهم .

فوافق الجميع ؛ وكانت حيلة منى لكى يتسع لى الوقت للتفكير فى الأمر، وتدبير المكر .

وهنا أدرك « فتى العروبة » شبه الصباح ، فسكت عن الكلام المباح ؛ لكننى عاودته واستدرجته باسم شبابه الدائم ! حتى باح بما فى جعبته من أسرار الملاح ، قال:

***

كانت الساعة رهيبة ، وكانت المحنة شديدة ، وفى صباح الغد ، لم تتخلف واحدة من أوانس الأمس وعقائله ، بل زاد عددهن بسرب من الصويحبات الصباح .

وقد كنت أمضيت ليلتى فى الاستعداد بطريق الاستمداد؛ذلك أنى حصرت ما فى الوجود من أمانى النفس ، ورغبات الفؤاد ، وملهمات الأحاسيس ، وآمال الانسانية فى مراحلها المتعددة . فوجدتها ، على اختلاف ألوانها ، وتعدد فنونها ، لاتخرج عن أمر من أمور الحب والزواج ، أو طول الأجل وكثرة الأمل ، أو طيب الرفاهة والتهافت على طلب المال ، إلى مافى طبيعة الناس من السعى وراء السعادة والكدح لاجتناب الشقاء ، أو صرف الهمة إلى الجاه

والعظمة ، إلى ما هنالك من سائر أنواع الطموح .

فكنت كلما تناولت كفاً ناعمة ، تجسست النبض هنا وهناك ، ثم أخذت أتوسم الوجه ، وأستشف الملامح ، وأحدق النظر فى الأسارير ، وأستشرف ما وراء العين ، ثم ألقى بكلمة حيثما كانت ، وكيفما اتفقت ، أى كما تخطر على البال من غير تفكير ولا روية ، لكنها كانت عفو الخاطر. فكنت أترجم عما يلابس الأطفال من أحوال ، فاذا صادفت ارتياحاً ، انتقلت إلى ما قد يحصل عادة للفتاة فى خدرها ، ثم فى مدرستها ، ثم فى مخالطاتها لأترابها . فكان لى مجال فسيح فى القول والتقول ، وفى الكهن والتكهن .

* * *

فقلت : وكيف أمنت يا أستاذ الوقوع فى الخطر ؟ فقال :

من أعجب العجب أنى كنت صادقاً فى كل تخرصاتى ، موفقاً فى كل تكهناتى .

فمن فتاة شيطانة كادت فى صباها تحرق بيتها بشمعة ، بينما هى تقرأ الرواية الغرامية فى خلسة من أبويها ، إلى فتاة خبيثة فى المدرسة ، إلى أخرى خانتها صديقتها . إلى رابعة عبث بها صاحبها فهجرها بعد أن أفرغت له قلبها دون شىء آخر ، إلى كل ما هو عادى مألوف لكل إنسان وإنسانة .

فهذه وصلها خطاب رفيق رقيق منذ أسبوع ، وتلك سترقص الليلة مع فتى تهواه ويهواها فيحول العذول دون إتمام الرواية ، وهذه زوجة مات لها ولد فكادت تموت فأتاح الله لها فرصة السلوى بصديق يخدم الانسانيـة بكل ما فى وسعه ! إلى والدة أخرى ضحت حياتها من أجل ولدها فكان جزاؤها منه العقوق .

أما هذه السيدة فيجب عليها أن تشترى رابع ورقة يانصيب من رابع بائع تراه أمام البيت الرابع فى الشارع ، بشرط أن يكون فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الأربعاء .

وهكذا وهكذا من أباطيل الاختراعات ، ومن اختراعات الأباطيل .

* * *

فقلت : لا شك أن « فتى العروبة » أصاب حظاً طيباً من المال والجمال ؟

فقال : رحم الله تلك الأيام ! فقد كانت لى جلسات ممتعات فى كل بهو وردهة ، وكنت لا أفتح البخت إلا للصبايا ، وكان نجاحى — فى أكثر الأحيان — منوطاً بالخادم ، فانها بعد انتهاء كل جلسة كانت تقبض ما يجتمع أمامى من أنصاف الشلنات والشلنات الكاملة ، فكانت لها مصلحة فى أن تكون لى خير معوان . نضر الله وجهها البسام !

ويظهر أن بعض الرجال حسدنى على ما نالنى من إعجاب الأوانس والعقائل ، فقامت مؤامرة !

ففى ذات صباح ، أجمعت الكواكب على أن تعرف الأسرار لكوكب آفل فى شخص عجوز قد أكلت الدهر وشربت عليه : خلقة شوهاء ، وعظام بتراء ، وسحنة خرقاء ، ودردبيس فوهاء ، وأنوثة عجفاء ، عينان جاحظتان ، ومنخران واسعان ، ليس إلى قاعدتهما من قرار ،

ولا إلى احتمال بخر الأشداق من فرار ! فأحاطنى الأسى بجلجله ، وحط على الهم بكلكله؛ لكن إبليس تراءى لى فى شكل قطة سوداء ، مرقت كالسهم الخارق ، وإذا بوسوسة خبيثة دارت فى خلدى ... فقلت لجدة جداتى : « أرى أنك قتلت ولدك، ياستى ... » .

وإذا بتلك الثغور الباسمة تتضاحك فى خبث ومرح، وتتطارح فى دلال وخفر، وتتغامز بسخرية وفرح . فكدت أذهل وأفشل، وتحققت وقوعى فى الخطأ والخطل؛ لكن الكواعب الأتراب رثين لحالى ، فبادرن لإسعافى بقولهن :

« فى هذه المرة ، كذبك علمك وخانتك قراءتك . أم كيف تحدثنا بأن هذه الآنسة قتلت وليدها وهى لاتزال بختم ربها ؟ » .

على أننى صممت وأصررت ، وتبلدت وتجلدت ، وتشددت وتعندت ؛ إلى أن كابرت وكاذبت وألححت . . .

هل رأيت الصخرة الصماء تتحول عن مكانها ، مهما هاجتها الرياح ، أو لاطمتها الأمواج ؟ أردت أن أنتهى من هذه المهزلة ، بعد أن قد ظفرت بما أريد ، وبكل ماأشتهى ، وبعد أن فرغت من تمثيل الدور الذى اندفعت إليه لحاجات فى نفس يعقوب .

وإذا بالأمر غير المنتظر، وإذا بالداهية الدهياء، وإذا بالعجوز الشمطاء، تقول لى بشجاعة وفى سيل من الدموع ووابل من العبرات : سيدى ، أنت صادق ، وقراءتك حق ! فقد أغوانى شيطان من شياطين الانس؛ وما راحت السكرة وجاءت الفكرة، حتى ظهرت الثمرة المرة فخنقت بيدى حشاشة كبدى . . .

وكان منها بكاء ، وكان منهن استغراب، وكان منى خجل واستحياء، يالله غار الانتصار.

***

فقلت لفتى العروبة فى ذلك العهد البعيد :

« لاشك أن منزلتك قدعلت عند القوم ، بعد ذلك اليوم ؛ فهل واصلت استغلال الموقف أم تحرجت فتراجعت » ؟ فقال :

قاتلك الله ياخبيث ! لكأنك على نية التآمر على أنت وقراؤك ؟ لكن بالرغم منك أقول لك : إن الله لم ينعم بالسذاجة على الشرقيين وحدهم ، بل التدجيل بالسحر والأباطيل أمر شائع ذائع عند الافرنج ، كما كان فى بابل ومنف ، وكما هو فاش فى فاس وتلمسان ، وكما هو ذائع فى النوبة والسودان ، وكما هو مستقر فى اليمن والشام ، حتى مطلع الشمس .

فقلت : بالله حدثنا عما قد يكون حصل بعد ذلك .

فقال : إن الرجال الذين كانوا يحضرون هذه الاجتماعات ، قد أخذتهم الغيرة ، فجاءنى

حدهم ، (وكان ناظر مدرسة الهندسة ، أو من كبار أساتذتها على ما أذكر) ، فقال لى :
أأنت مؤمن بهذا العلم ؟ فقلت : كلا ، ولكنى أقرأ ما أراه مسطوراً على الكف بتأثير المخ على الأعصاب ، من الحوادث التى تقع لصاحب الكف ، وقد توصل الأقدمون إلى هذه النتائج بطريقة الاستقراء . وأنت أنت تقرأ ديانة البراهمة والبوذيين والوثنيين ، وتفهم معانيهم ومراميهم ، فهل أنت مصدق لهم ؟ !

وبهذه المجاوبات ، وبتلك المحاولات ، ازداد الرجال حقداً فأغروا السيدات ؛ فأجمعن أمرهن على أن أخالف القاعدة مرة واحدة ، فأتنازل لقراءة كف رجل واحد ، وقع عليه أختيارهن بالاجماع .

فصدفت وتمنعت ، لكنهن أصررن إصراراً ، وهددننى بالصد والاعراض ، ثم تراجعن إلى الرجاء ، وأنت تعلم قول الفرنساويين : « إن ما تريده المرأة يريده الله » فكيف بى وقد اجتمعت كلمة النساء ؟ إذن ، لا مناص ولا خلاص ، والأمر لله ... أمسكت بيد الرجل (وأنا أريد أن أخنقه) ثم نظرت فى وجهه ، وحدثتنى نفسى بأن للانكليز مستعمرات لا تغرب عنها الشمس ، وأنهم مفطورون على اقتحام الأخطار ، وعلى السفر فى البحار ، والتنقل فى البرارى ، والتوغل فى المهامه ، والتوقل فى الجبال . وإذا بلسانى يندفع فيقول من حيث لا أشعر :

لقد سافرت يا سيدى . . . وسافرت سفراً بعيداً . . . ولم يكن . .. . . سعيداً . . . . . .

وهنا بدت على وجوه الحاضرات علائم الارتياح لقولى ، فتشجعت ، وقلت له :

إنك لا قيت تعباً ، وتجشمت مشقة ! . . . كان سفراً بعيداً . حللت فى البلد النائى محلا رفيعاً ... أحرزت فى آخر الأمر ثروة طائلة ... أوه يا عزيزى ... لقد كنت فى الهند...!!

أليس كذلك . . ؟ ثم غرقت السفينة ، فضاعت كل أموالك .

وهنا زاد القوم إيماناً وزدت تضليلا . وقد كان ذلك من ضلال الشباب فاتركنى يا خبيث .

* * *

وأنا أقسم بالله أنه لم يحصل شىء سوى جس النبض ، ولم أقع فى محظور لا يرضاه الشرع ، بل كان شيطان الشباب كله فتنة ، وكله إغراء وطيش ، دون أن يكون وراء ذلك خطيئة تدعو إلى الاستغفار ، والله على ما أقول شهيد ؛ وهو حسبى ونعم الوكيل .

* * *

وإلى هنا أمسك عن الكلام ، وعاد إلى الاتابة والاستغفار .

فأسرعت بالخروج من بين يديه ، وجلست إلى مكتبى لتسطير هذه الذكريات الطريفة قبل أن يذهب شبحها ، أو تضيع كلماتها . ولعل شيخ العروبة لا يغضب على فتى العروبة ، ولا على صديقه .

ع ...

أدب الاسكافى وأسلوبه اللاذع

من حديث شائق وآراء طريفة

للدكتور أحمد فريد رفاعى
مدير المطبوعات الأسبق

وهكذا تتجدد المسألة ، ويتغير مجرى « الأحاديث » ، وهى فى جوهرها تتجه نحو غاية واحدة ومثل واحد، ذلك هو رفع الثقافة، وتجلية المعرفة، وتنمية المدارك بالمعلومات الحديثة.

ولصديقنا الدكتور ولع وأى ولع بعلم التاريخ وأدبه وفلسفته، ولعل المجموعة النفسية التى تحتويها مكتبته فى هذا الباب ، تكاد تكون منقطعة النظير . . . زرناه فى الأيام الأخيرة فألفيناه يقرأ كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الرومى طبعة الأستاذ مرجليوث ، ويقرأ بصفة خاصة فذلكة عن الحسن بن على الاسكافى ؛ فأسمعنا قطعاً من التهكم الرشيق، والأدب اللاذع، ذكرتنا بأساليب كتاب الغرب فى هذا النوع، ثم جر بنا الحديث إلى ما فى اللغة من دقائق جديرة بالإذاعة ، وإلى ما يجب عمله فى سبيل إذاعتها على نحو يستفيد منه النشء فائدة كبيرة ، ويتعرف منها إلى مناحى الأساليب الطلية ، وليقف منها الناطقون بالضاد على ما فى لغة الآباء والأجداد من روعة وطلاوة وحلاوة .

ومن ثم استقر بنا الرأى على ضرورة وضع سلسلة رسالات صغيرة جيبية عن كبار رجالات الأدب ، وأئمة اللغة والبيان ، وطليعة النقاد فى العرب .

ثم انتقلنا إلى شئون شتى فى مختلف العلوم والفنون ، وجمهرة من الآراء العلمية الحديثة ، وحشد من مشاكلنا فى الاقتصاد والمرأة والحياة .

وقد رأينا أن نرجىء هذا الجزء الأخير على أن ننشره فى العدد القادم ، لما فيه من : روعة، وطلاوة، وبعد نظر ، ودقة تصوير ، قاصرين حديثنا الآن على أدب الاسكافى. المحرر

***

قلت للدكتور : أريد أن تحصر فكرك معى فى أدب الاسكافى وأسلوبه، وأن تترك تحقيق نسبه الآن ، وأن نرجىء الحديث عن مشاكل الأسرة وحياتنا الاقتصادية إلى فرصة أخرى.

فقال : « أنت يا صديقى ترغمنى على التحدث عن الأدب إرغاماً ، وأنت تعلم مشغوليتى ومهمتى فى إدارة قسم المحاضرات ؛ ولست أعلم السر فى قطع حديثنا عن مشاكلنا فى الأسرة والاقتصاد ، سوى أنك أديب بالطبيعة ، وبعبارة أصرح ، أديب بالرغم منك ، تفضل الأدب على كل شىء آخر ، وأعتمد فى رأيى هذا على قول (لمبروزو)

وأنت به جد خبير؛ فلقد كتب عن العبقرية كتاباً يعتبر المرجع ـ حتى الساعة ـ فى هذا الموضوع الخطير، كما كتب كتاباً فى الإجرامية هو الحجة فى فلسفة الإجرام: فثم المجرم بالطبيعة، والمجرم بالعادة، والمجرم بالصدفة، والمجرم بالبيئة ... الخ.

فعلى هذا النمط يجوز لنا أن تقول: هناك أديب بالطبيعة، وأديب بالعادة، وأديب بالقراءة ... وهلم جرا.

فقلنا للدكتور: نرجو أن تعود بنا إلى الاسكافى، أو إلى قطعة من قطعه.

فقال: قد لا يهم قراءك أنه الحسن بن على، وأنه ينتهى إلى عبد الملك بن ناهوج، ولكن قد يهم قراءك أن يعلموا أنه كاتب بالوراثة، ومن بيت كتابة وأدب وإشراف على الرسائل الديوانية؛ وما علينا من الفضول فى التحليل والشرح والنقل وما إلى ذلك، ولنقتطف لك الآن قطعة ... ولعلك تذكر ما كان بين (جيتة) و (شلر)، أو لعلك تذكر رسالة الجاحظ عن التحاسد بين الكتاب والأدباء ... فاقرأ إذاً رسالته الخالدة إلى القاضى الفاضل عند قدومه من مصر إلى الحجاز، يسأله فيها شيئاً من رسائله اختتمها بقوله:

« فصار مثل هذه العوارف التى أقتصر فى ذكرها على الايماء، وقوفاً مع محمد سيدنا ـ أطال الله بقاءه مبسوط اليد فى عباد الله بالفرض، مقرضاً له عناء همه فيهم أحسن القرض، منجزاً لهم ما وعد، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ـ عند الخادم؛ ومثله كالبيت من القريض قبل القافية، والمريض الذى مطلته الأيام بالعافية؛ فلا يكمل ذلك ولا يروق؛ ولا يتطرب به المشوق، ولا يترنم به الكئيب، ولا يتسلى به الغريب، دون تمامه، وتكافى أجزاء نظامه، وعبقه بمسك ختامه، ولا يحس هذا بلذة على الحقيقة وإن شرفت، حتى يجد روحه روح الشفاء، فيدرك مزيتها بطرق الصحة، ومروءتها بحاسة سمعها، وتساعفه الأقدار بتكميلها لك وجمعها.

وما أسفى إلا عليها فاننى بقرطاسها لا بالدنانير أكلف
فجد لى بما أهواه منها فاننى سألحف فى استيهابها وأكلّف
وما هذه الأهواء إلا غرائز قبيح لدى نقادها المتكلف

وإن كان الخادم عن حال من شرف بهذا من أغنى الناس، ولم يكمل بعدته الاستئناس، فليس له أن يكون معترضاً، ولا أن يتلقى ذلك بغير التسليم والرضى، فان الخدمة السامية هى التى يبين لديها الأقدار، وبأفعالها تترتب المنازل وتتفاوت الأخطار، وكنت عند كونى بمرو، عرض على شيخنا فخر الدين أبو المظفر عبد الرحيم بن تاج الاسلام أبى سعد السمعانى ـ تغمدها الله برحمته ـ جزءاً يشتمل على رسائل للحسن القطان إلى الرشيد الوطواط، محشوة بالسب له والثلب، تصريحاً لا تعريضاً، ويلزمه الحجة فى أنه نهب كتبه، وسلبه نتيجة

عمره ، ويستحسب الله عليه ، وضاق نطاق الزمان من تحصيلها وكتبها ، وقلت :

وكم منية خلفت خلفى وبغيـة ومن حاج نفس حال من دونها الترك
إذا ذكرتها النفس منت وأرزمت وودت لفرط الوجد أدركها الفتك
سلام على تلك الديار وقدست نفوس بمثواها ثوى العلم والنسك

وبقيت نفسى إليها متطلعة ، وإلى مكنونها ملتفتة ، فظفرت برسائل الرشيد محمد بن محمد ابن عبد الجليل العمرى البلخى المعروف بالوطواط ،متضمنة لأجوبة يدل آخرها على إضراب القطان عن تهمته ،والاذعان بابراء ساحته» .

بل اقرأ قوله :

« إن شر ما فى بنى آدم من الخصال الذميمة ، والأفعال اللئيمة ، إيذاء الصغار الكبار ، وإيحاش العبيد الأحرار ، وهذا له ـ أدام الله فضله ـ جبلة فطر عليها ، وطبيعة استرسل معها ، وسجية شهر بين العامة والخاصة بها ، يشتم كل يوم فى منزله ومكانه ، وعلى سدة داره وطرف دكانه ، خلقاً كثيراً ، وجماً غفيراً ، من الرافعين قصصاً إليه ، والعارضين عللهم عليه ، فيرجعون وجفونهم تتصوب عبراتها ، وقلوبهم تتصعد زفراتها ، لما يلاقون من سوء خلقه ، ويقاسون من خشونة نطقه ، ويقفلون وألم ذلك التهجم والاعراض ، والوقيعة فى الأحساب والأعراض ،أشد عليهم من ألم الأسقام والأمراض ،ولهذا جعل شخصه ،وصيّر نفسه ـ مع أنه أفضل زمانه ، وأعلم أولاد أقرانه ـ ضحكة الأدانى والأقاصى ،وسخرة للأذناب والنواصى ، حتى صار بحيث إذا مشى فى الأسواق ، تعادى صبيان البلد حوله ، فيسخرون منه ، ويضحكون عليه ، وينعرون فى قفاه ؛ ولا أقول فيـه ـ أدام الله علوه ـ إلا ما قال الخليل بن أحمد الفراهيدى فى ابن المقفع ، حين رأى كمال فضله ، ونقصان عقله :

« علم وافر ، وعقل قاصر » ؛ ومن قصور عقل ابن المقفع أنه مر ببيت النار ـ وكان من أولاد كسرى ـ فتنفس الصعداء ، وتمثل ببيت الأحوص بن محمد الأنصارى :

يا بيت عاتكة الذى أتغزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل

فاتهم بالمجوسية ، فألقى فى تنور مسجور فأحرق ، وما أصدق من قال : « قيراط عقل ، خير من قنطار فضل ،ومثقال حلم ، أنفع من مكيال علم » .أنكر ـ أدام الله علوه ـ رشاد مذهبى ، وإنكاره ضلال ، وجحد سداد سيرتى ، وجحوده باطل محال ؛فيا طير الله جمجمة فرخت فيها الأضاليل وباضت ، ويا أسكت الله شقشقة دفقت منها الأباطيل وفاضت ؛ ولا أعنى بهذه الجمجمة إلا جمجمته التى لا عقل فيها ؛ ولا أريد بهذه الشقشقة إلا شقشقته التى يباينها الصدق وينافيها ؛ حتى متى يتهمنى بظنـه ؟ وإلى كم يجرعنى دردى دنه ؟ أيحسب ـ أدام الله علوه ـ

أن ظنه الباطل وخياله الفاسد ووهمه الكاذب،وحى من السماء إلهى،أو إلهام فى الحقيقة ربانى، أو أنه نفث بها روح القدس فى روعه ، لا بل هو واحد من أبناء زماننا_وهذا شر الأزمنة_ عجم الشيطان عوده فاستلانه ، فصير خزانة خياله مكانه،فهذه الخطرات التى تختلج فى جنانه ، وتدور حول حسبانه ، من تلك الخيالات الشيطانية ، لا من الإلهامات الربانية .

ولقد بلغنى من أفواه الرواة ، وألسنة الثقات،أنه _ أدام الله علوه _ أخذ بعين هذه التهمة الكاذبة _ قبل هذا _ واحداً من أعيان جلدته ، وسكان بلدته ، وهو مسعود بن المنتخب _ رحمه الله _ فأغار على أهله وبيته ، وتعرض لحيه وميته ، وخرب دوره ورباعه ، وغصب أثاثه وباعه ، من غير حجة صحيحها ، ولا بينة أوضحها ، اللهم اصرع الظالم على الهامـة ، وخذ منه للمظلوم حتى يرضى عنه يوم القيامة .

ومما أقضى منه العجب ، أن عهدى به _ أدام الله عزه _ قد كان يخرب الأبدان،فها هو الآن يخرب الأوطان ، وما أسرع الدهر إلى تغيير البشر، وما أقدره على تبديل الصور والسير، قرأت فى بعض الكتب : أن خليفة من الخلفاء رأى فى منامه أن واحداً من ندمائه وثب عليه ليقتله ، فلما أصبح استدعى النديم وأمر بقتله ، فقال له النديم : ماذا فعلت حتى استوجبت هذه العقوبة ؟ قال الخليفة : ما فعلت شيئاً ، ولكنى رأيت فى المنام أنك تقتلنى ، فقال له النديم : إن يوسف بن يعقوب _ صلوات الله عليهما _ مع كونه صديقاً نبياً احتاجت رؤياه إلى تعبير ، وافتقرت أحاديثه إلى تأويل وتفسير ، أفتستغنى رؤياك عن مثل ذلك ؟ فضحك الخليفة وخلاه،وأنا أقول:هكذا ظنون جميع ذوى الألباب، معرضة للخطأ والصواب، كأنه _ أدام الله علوه _ تفرد من بينهم بذاته ، وتوحد بعظمة صفاته ، فتنزهت ظنونه عن السهو ، وتقدست أحاديثه عن اللغو ، عصمنا الله من الكبر البائن ، والعجب الشائن ؛ أما حان أن ينتبه _ أدام الله علوه _ من غفلته ، ويستيقظ من رقدته ، وقد بلغ غاية شيبه ، وأخذ الموت بلحيته وجيبه،يقرع كل ساعة منادى الفناء ، فى أذنه الصماء ، أن اترك أوطانك ، واهجر أهلك وجيرانك ، وارحل إلى جهنم بخيلك ورجلك ، فإنها قد أوقدت نيرانها لأجلك ؛ وما حرص جهنم على شىء كحرصها على إحراق شيخ غوى ، وهِمٍ عى ، سىء الخليقة ، مذموم الطريقة ، يتظاهر بالإثم والعدوان ، ويتبع خطوات الشيطان ؛ هو _ أدام الله علوه _ بلغ ساحل الحياة ، ووقف على ثنية الوداع ، وهم بحر عمره بالنضوب ، ومال نجم بقائه للغروب ، فما ظنه : هل فى الحياة طمع ، وقد بليت جدته ، وفنيت مدته ، وتراجع أمره ، وأتى على الثمانين عمره ؟

أيرجو الفتى عوداً إلى طيبـاته وقد جاوزت رأس الثمانين سنُّـه ؟

كتبت هذه الأحرف على سبيل الأنموذج ، والجواب بعد فى الجراب ، والسيف لم يسل

من القراب ، فان انزجر - أدام الله علوه - واتعظ ، وترك الفظاظة والغلظ ، وعاد إلى كرم العهد وصفاء الود ، فأنا خادم مخلص وعبد مطيع وتلميذ معتقد

وإلا فعندى للعدو وقائع تريه المنايا لا ينادى وليدها »

***

والآن يحلو لى أن أنتقل بك ، بعد أن سمعت - فى أناة واطمئنان ، وفى استشعار بروعة الأسلوب، وجمال السبك ، وفى مجانة - ما تضمنته تلك الملح والغرر والدرر من تهكم لاذع ، ونكتة بريئة ، ونقد مر ، ولكنه محبب إلى النفس ، خفيف الوقع على القلب ، ومن متانة فى رصانة ، مع دقة وصف ، وجمال وقع ، وحسن مدخل ، ومائية أسلوب ، وطلاوة عبارة، وفراهة معنى ، وصفاء غلالة .

الآن يحلو لى أن أنتقل بعقلك الرشيد ، وذهنيتك الفذة ، وثقافتك العالية ، لأطلب إلى خيالك المحلق ، وإلى ثروتك الأدبية الرائعة ، وإلى مكنتك التحليلية العلمية : أن تقارن تهكم صاحبنا وخفة روحه ، بالأساليب المستحدثة : كأسلوب (جيروم جيروم) ؛ بل لتقارنها بالأسلوب الرائع الفتان الذى استحدثه نابغة الأدب العصرى وزعيم المجددين الدكتور طه حسين... وكذلك يحلو لى أن تقرأ الجاحظ فى نواح متعددة من رسائله،لا فى رسالة «التدوير والتربيع » التى عنيت أنت بها فحسب ، بل فى كتاب « الحيوان » وشتى رسائله ، ولك - بعد ذلك - أن تقول ليس بعد الارهاص إلا الاعجاز ، ولك بعدئذ أن تطلب إلى وزارة المعارف ألا تحرم الأدب العربى والثروة العربية-التى تدرس فى المدارس الآن-من أمثال : الصيرافى والاسكافى ، والطبرى ، والمسعودى ، والجاحظ ، وابن المقفع ، والعماد الأصفهانى ، وغيرهم من حملة البيان ، فى لغة البيان ، ولغة القرآن .

ولى أمنية فى مكنتك أن تضطلع بها ، لما عهدناه منك من عزم وجلد،وما خبرناه فيك من دأب فى القراءة، ودراية فى أفانين العلم والأدب ، ولما أضحى لمجلتك من قيمة علمية فى متعدد الأوساط العلمية ، وأرقى الهيئات الاجتماعية ، حيث أضحت فى الطليعة ، وأصبح قراؤك كثيرين فى مختلف البلدان الشرقية ... أطلب إليك-فى قوة وحزم-أن تدافع عن ختام هذا الحديث ، وتعمل قدماً فى سبيل نشر القراءة النافعة ، وبعث الثقافة الصحيحة ، والله وحده يتولى جزاءك ، إذا لم يكن فى مصر من يقدر مثل هذه الأعمال الجليلة ، وهذا النوع من الصحافة العلمية الراقية ، والبحوث العالية الرفيعة ...

« المعرفة » ليس للمعرفة أن تعلق على حديث العالم الفاضل الاستاذ الدكتور فريد رفاعى ، بأكثر من أنها ترجو لو يتيح لها القدر ، تحقيق هذه الامنيات الرفيعة ، والرغبات السامية ، التى حملها ماقاله الاستاذ الدكتور .

التربيـــــة فى الأسرة

بقلم الأستاذ أحمد فهمى العمروسى بك

عناية الأمم الراقية بالتربية

تعنى الأمم الراقية بتربية أبنائها وأخذها إياهم بأفضل أساليب التربية والتعليم حتى يشبوا ويترعرعوا ؛ ذلك أنهم يؤمنون أصـدق الإيمان بحسنات التربية والتعليم ، وأثرهما البالغ فى النفوس ، ويعلقون عليهما أكبر الآمال فى تحقيق سعادة الوطن وبنيه .

وليس أدل على ذلك الإيمان، من أن قادة الفكر فى تلك الأمم مجمعون على أنه يستحيل على امة أن تأتى عملا جليلا ، أو تنفذ فكرة خطيرة، إلا إذا اعتمدت فى المضى -فيما تصبو إليه- على التربية والتعليم؛ وذلك بالرغم من تعدد المذاهب وتباين الآراء فى هذا العصر، الذى أصبح مجالا لمتاوج الأفكار ، ومتنازع الآراء .

(ا) فرجال الدين يقولون: إن مستقبل الدين يتوقف على التربية والتعليم، (ب) ورجال السياسة يعتمدون عليهما فى تغليب آرائهم وانتصار أفكارهم، (ح) والمستنيرون من سواد الناس يرون فى نشرهما بين طبقات الشعب فوزاً لقضية الأخلاق، وإعلاء لشأن بلادهم ، ورفعاً لمكانتها بين الأمم .

دولة الطفل

لذلك توجهت أفكارهم جميعاً إلى الطفل ، فحاطوه بسياج من العناية والرعاية ، وغذوه بالمعلومات النافعة المهذبة ، التى تفى بحاجات الفرد والمجتمع معاً ، حتى أصبحت كل أسرة - فى السهر على أبنائها وتعهد شئونهم - كالزارع اليقظ النشيط الذى يتعهد غرسه بالحرث والسقى ، كى يأتى فى الغد بأوفر نتاج .

وقد صدر الكاتب الفرنسى (فيلكس توما) كتابه « التربية فى الأسرة وذنوب الوالدين» بديباجة ممتعة استهلها بقوله :

« بينما ممالك كثيرة تهى وتدول ، إذا بالقرن التاسع عشر يرى دولة جديدة نشأت بين أحضانه ، وأخذت قدمها تترسخ فيه يوماً فيوماً ... تلك هى دولة الطفل » .

من هذا نرى أن القرن التاسع عشر امتاز على ما تقدمه من القرون بأنه عصر الطفل .

فالشعراء فى فرنسا -من عهد (فيكتور هيجو) إلى اليوم- اهتموا جد الاهتمام، وعنوا أيما عناية بدراسة نفسية الطفل الغامضة ، وميوله المتغيرة ، وأفكاره المتقلبة وراقبوا صعوده تدريجياً من عالم الخفاء والظلمة إلى عالم الوضوح والنور، وقد حذا حذوهم فى ذلك : الكتاب، والفلاسفة، والعلماء، والأطباء فالتفوا جميعاً حول مهد الطفل، يرقبون حركاته وإشاراته وابتساماته،

ويدونون تجاريبهم حتى أخرجوا للناس صورة حقيقية للطفل ، تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التى صورها له علماء القرون السابقة ، والتى كان للخيال والمبالغة فيها أكبر الأثر.

أجل ! وجد فى كل جيل من الأجيال السالفة كتاب وشعراء أحبوا أبناءهم حباً عظيماً ، وحنوا عليهم حنواً كبيراً ، فدرسوا طباعهم ، وترجموا عن عواطفهم ، مثل (بلوتارك) الكاتب اليونانى القديم ، الذى عاش فى منتصف القرن الأول للميلاد ، فانه بعث إلى صديق له بكتاب ـ معروف فى عالم الأدب عقب موت بنته الوحدة ـ يصف فيه رقة شعورها وصفاً مؤثراً ، إذ يقول: إنها كانت تتوسل إلى مرضعتها أن تمنح ثدييها ، لا للأطفال الصغار الذين كانوا يلعبون ويرتعون معها فحسب، بل للدمى (العرايس) التى كانت تلهو بها وتفرح برؤيتها ، والتى كانت تجلسها معها على مائدتها، وتغدق عليها أرق وأعذب ما عندها من عبارات المداعبة والملاطفة ، كأن فطرتها السليمة تحس وجوب مقابلة الاحسان بالاحسان ؛ وبهذه المناسبة أذكر أبياتاً « لحطان بن المعلى الجاهلى » ، يصف عطفه على بناته :

لولا بنيات كزغب القطا ... رددن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسع ... فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم ... لامتنعت عينى عن الغمض

ولما مات « ذرة بن عمر بن ذرة » وقف على قبره، فقال : « يا ذرة ! إنه قد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك، لأنا لا ندرى ما قلت ولا ما قيل لك » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال: « اللهم إنى قد وهبت لك ما قصر فيه مما افترضت عليه من حقى ، فهب له ما قصر فيه من حقك ، واجعل ثوابى عليه له ، وزدنى من فضلك ، إنى إليك من الراغبين » .

ولا بد أن يكون عدد هؤلاء الأفراد قد أخذ يزداد شيئاً فشيئاً بتوالى العصور حتى بلغ حداً لا يستهان به فى القرن الثامن عشر تحت تأثير تعاليم (روسو) ، وفلسفته فى تربية الطفل ، ولكنا نعلم أنه بالرغم من انتشار تعاليم ذلك الفيلسوف فى أغلب الأسر والمدارس، فقد كانت الملاطفة والمداعبة يستران وراءهما ضروباً من الشدة والمخاشنة ، وكان الولد عبداً مملوكاً ، والوالد سيداً مالكا .

أما اليوم ، فقد تبدلت الحال غير الحال ، وأصبحت للولد حقوق ، بعد أن لم يكن عليه إلا واجبات ، فصار ذا شخصية حقيقية ، له أن يتمتع بالحرية والاحترام ، وبجميع الحقوق التى تساعد على نمو قواه الجسمانية والعقلية، كما أصبح شخصاً اجتماعياً، ينتظر له فى الغد أن يكون عضواً عاملا فى المجتمع ، له ما لنا ، وعليه ما علينا .

لهذا لم يكن بد للحكومة - التى هى مرآة الرأى العام فى كل بلد - من أن تغير نظمها وفقاً لهذه الأفكار الجديدة، وتعنى عناية خاصة بكل ما له علاقة بتعليم الأطفال وتهذيبهم، فجعلته فى متناول الجميع ، لأن الجميع لهم الحق فيه، وجعلته مجاناً وإجبارياً ، وصيرته شائقاً لذيذاً، حيث أصلحت المبانى القديمة ، وأنشأت مدارس جديدة على طراز جديد جميل ، كما نقحت المناهج تنقيحاً اختزلها إلى النصف، وخلصها من الشوائب والزوائد ، وجعلت القناعة فى العلم أساساً للتعليم فى المدارس الابتدائية .

ولكى تجنى ثمار هذا كله ناضجة شهية ، عمدت إلى إعداد المعلمين المهذبين الأكفاء ، وبذلت - عن سخاء وطيب خاطر - المبالغ الطائلة فى هذا السبيل ، علماً منها أن الانفاق عن سعة فى هذا الباب هو الغنى بعينه .

ولما أعدت المعلم الكفء منحته ثقتها وأعطته الحرية التامة فى تدريس المناهج ، فاذا شاء قدم موضوعات على أخرى ، وإذا شاء حذف منها ، أو أضاف عليها ، ثم هو بعد ذلك يوجه من تلقاء نفسه التعليم الوجهة الصالحة المنتجة بما يناسب البيئة التى يعيش فيها الأطفال ، فان كانت زراعية علمهم أصول الزراعة وأحوالها بصفة خاصة ، وإن كانت صناعية أو تجارية وجههم إلى الصناعة أو التجارة لتهيئتهم لكسب العيش فيما بعد بمزاولة العمل الحر ، لأن التعليم يجب أن يكون نفعياً ومهذباً فى آن واحد .

هكذا سارت فرنسا متعاونة شعباً وحكومة على النهوض بالتربية والتعليم ، فقطعت شوطاً بعيداً فى هذه السبيل ، كأنهم فهموا - جميعاً - تلك النصائح الغالية التى جادت بها قريحة مواطنهم (كوندرسيه) الفيلسوف والكاتب الفرنسى الشهير ، إذ يقول :

« على قدر النصيب الذى تناله الأمة من التربية والتعليم تكون مقدرتها على حكم نفسها بنفسها ، مما يقوم دليلا على أنها جديرة بأن تعيش أمة حرة » .

ولكن بالرغم من هذا التعاون القوى ، والتضامن الشديد بين الحكومة والشعب ، فان الخبيرين بشئون التربية يذهبون إلى أن النتيجة التى وصلوا إليها ، لم تأت متناسبة مع الجهود العظيمة التى بذلت ، وأنهم لا يزالون بعيدين عن النتيجة المرجوة والغاية المنشودة ؛ فلم تزل الأصوات ترتفع بالشكوى من نقص التربية فى جميع مناحيها البدنية والعقلية والخلقية .

فعلى من تقع التبعة يا ترى ؟ يقول المسيو (فيلكس توما) رداً على هذا السؤال : إن المتهم الأول هو الحكومة دائماً ، لأنها لم تبرأ من النقد واللوم مهما تجد ، ولأنها ممثلة فى أشخاص ، والأشخاص يستحيل عليهم الكمال ؛ ويرى أنه يجب علينا أن نذهب فى بحث السبب الرئيسى إلى أبعد من هذا ، فنجده فى الأسرة وفى الأخطاء الكبيرة والذنوب العديدة التى يرتكبها الوالدان فى تربية أبنائهما قبل المدرسة ، إما بسبب الجهل وهو الأغلب ، وإما بسبب الاهمال والأثرة وحب الذات ؛ ومن ثم ينشأ معظم الشر الذى يئن منه المجتمع .

الصحة والزواج

يقول بذلك مسيو (فيلكس توما)،ويرى -فى هذا الصدد- أن أكبر الذنوب التى يقترفها الوالدان وأخطرها - لأنه غير قابل للاصلاح - إهمالهما مراعاة الصحة قبل الزواج . فهل من الانسانية والمروءة والتبصر فى عواقب الأمور أن يسرف الشخص فى الملاهى والملاذ حتى تختل بنيته ، وتعتل صحته ، ويفسد عقله ؛ ثم يقدم على الزواج لينسل ذرية ضعيفة ضئيلة ، تشكو - طوال العمر - الآلام والأمراض التى ورثوها عن والديهم ، دون أن يكون لهم فى ذلك أى دخل ؟ « غيرى جنى وأنا المعذب » ؟

لذلك اهتمت بعض الأمم الراقية بالأمر اهتماماً عظيماً،وحرمت عقد قران رجل على امرأة إلا إذا أثبت كلاهما طبياً أنه خلو من الأمراض الفتاكة المشهورة ، حرصاً منها على سلامة النسل ، وحفظه من الأمراض العقلية والعاهات الخلقية .

أما إذا ترك الأمر -كما هى الحال فى معظم البلدان- إلى حكم الشهوات والمصادفات، وخالف الناس نواميس الطبيعة وخرقوا قوانينها ؛ فانها لا بد تثأر لنفسها ؛ ولا نلوم فى ذلك إلا أنفسنا إذا حل انتقامها بالمساكين الأبرياء .

فاذا رجع الناس إلى صوابهم وثابوا إلى رشدهم فى مسألة الزواج - وقد رأوا نتائجه الخطيرة وتبعاته الثقيلة - لعنوا -قبل أى اعتبار آخر- بأمر الصحة ؛ ولكن ذلك ليس عندهم بالأمر الهام .

يقول أفلاطون : إنك إذا أسديت للناس النصح فى هذا الصدد ، فكأنك تخاطب صماً لا يسمعون ؛ لأنهم ينقادون إلى الشهوة العمياء دون الاصغاء إلى نداء العقل وهدى التفكير .

نعم ، إن الغنى والحسب والجاه والجمال أمور جبلت النفوس على طلبها فى الزواج ، ونحن لا نلومهم على الجرى وراءها ، ولكنا نلومهم على اكتفائهم بها وإغفالهم أمر الصحة التى يجب أن تكون الدعامة التى يقوم عليها صرح الزواج .

ولنفرض الآن أن شرط الصحة قد تحقق فى الزوجين وتم الزواج ؛ فهل نكون بذلك قد وصلنا إلى كل ما نريد ؟ كلا ، فان هناك واجبات تبدأ ببدء الحمل تقتضيها حياة الطفل فى أثناء الحمل،ومعظمها منصب على الأم وحدها،فيجب عليها أن تتجنب كل ما من شأنه أن يضر بصحة طفلها حساً ومعنى ، بل يجب عليها أن تبحث عن كل ما ينميها ويقويها ، فما من عمل تأتيه أثناء الحمل ، أو فكر يمر بخاطرها إلا له أثره فى طفلها ، حتى إنه ليحدث أحياناً أن الطفل يمكث طول حياته يعانى أمراضاً وآلاماً نشأت من أن أمه - وقت الحمل - زاولت أعمالا أنتجت فيه ما أنتجت ، وإن لم يكن لها فى نفسها إلا أثر وقتى .

وإنى أسوق إلى القراء مثالين تاريخيين على أن أعقبهما بأمثلة أخرى يستدل منها على أن

الاستعدادات المختلفة التى تولد مع الطفل : كالخوف، والشجاعة، والكسل، والغيرة، والحسد ، أو الميل إلى عمل من الأعمال دون عمل .. إن هى إلا نتيجة انفعالات نفسية قامت بنفس الأم، أو أثر لأعمال كانت تأتيها أثناء الحمل .

المثل الأول : عن أحد زعماء الحركة الفكرية فى انجلترا فى القرن السابع عشر ، وهو (توماس هوبز) ، فإنه عاش طول حياته يشكو ألم الانكماش والخوف، ويعزوهما إلى انزعاج أمه عند ما اقترب الأسطول الاسبانى (أرمدا) من شواطىء انجلترا ، وكان إذ ذاك جنيناً فى بطن امه ، فليس عجيباً إذاً أن تتأثر فلسفته بهذا ، فانك إذا قرأت مؤلفاته ، تجد أن سياسته الفلسفية تدور حول فكرة أساسية واحدة هى : الاضطراب والخوف، فتقول مثلا: إن الناس فى سبيل تخلصهم من العيشة وفق الحال الوحشية الأولى ـ التى كانت كلها فوضى واضطراباً ـ قد تنازلوا عن حرياتهم، وقبلوا أن يعيشوا تحت سلطة الفرد المطلقة ، ورضوا بالاستبداد، لأنه وإن كان شراً فى ذاته ، فقد خلصهم من شرور الحال الأولى ، وهى أنكى وأمر ؛ ولذا عد من الفلاسفة المتشائمين .

المثل الثانى : عن (مارى ستيوارت) بنت (جيمس) الخامس ملك (اسكتلندا) ـ فيما بعد (جاك الأول ملك انجلترا) ـ من أميرة فرنسية (مارى دى لورين) .

تزوجت (مارى استوارت) بـ (فرنسوا الأول ملك فرنسا) ، وترملت بعد ذلك لسنة، وعادت فى سنة ١٥٦٠ إلى وطنها الأول، واقترنت بابن عمها (هنرى دارنلى)، وكان أصغر منها سناً، ولكن لم يمض على عقد الزواج قليل وقت، حتى أسفت على حدوثه لما تبينته من ضعف بنية زوجها الشاب ، وفساد أخلاقه ؛ كما تألم هو أيضاً منها ، لأنها تأخرت عليه فى منحه امتيازات الملكية وحقوقها ، واتهم فى ذلك أحد احصانها (رِزّ)، ففتك به ذات يوم على مرأى منها، ومع شدة تألمها لهذا الحادث الفظيع، فقد تظاهرت لزوجها بالصفح عما فعل، ولكنها لم تلبث أن دبرت له مكيدة لقى حتفه فيها، ثم تزوجت من القاتل له، فقضت المكيدة عليها بدورها وزج بها لذلك فى أعماق السجون، وصادف أن مرت كل هذه الأهوال ، وهى حامل فى (جاك) الذى صار فيما بعد (جاك الثانى ملك انجلترا) ، فكان لذلك جباناً تضرب بجبنه الأمثال ، حتى إنه كان يرتعد إذا رأى سيفاً يسل من غمده أمامه. والتجارب الحديثة التى أجراها العلماء ويجرونها كل يوم على النفس ، تؤيد هذه النظرية كل التأييد ، فهل هناك حقيقة أمهات يقدرن هذا الموقف قدره ، فيكثرن أثناء الحمل من مراقبة عواطفهن وأفكارهن ، والعمل على ضبطها واستجماعها بالتزام الهدوء والسكينة ، حتى لا يكدرن صفو الطفل فى منبته ومستقره ؟

وهل تعرف الأم ما يجب عليها فى هذا الظرف الخطير؟ ذلك ما سنتكلم عنه فى العدد القادم.

أحمد فهمى العمروسى

التصوف فى الشرق والغرب

للسيد محمد الغنيمى التفتازانى

هذا عنوان لمحاضرة ألقاها السيد التفتازانى فى الاسكندرية فى منتصف أغسطس سنة ١٩٣٢ وقد نالت التقدير اللائق بها ؛ وكنا أعلنا فى العدد الماضى أنها بقلم المستر أدرى، وقد كان ذلك سهواً منا ؛ فنتقدم إلى السيد التفتازانى معتذرين ، راجين أن يكون مطمئناً إلى ما علقنا به على بعض نقط البحث ؟ المحرر

***

يرى علماء الإسلام أن التصوف هو الفلسفة الإسلامية التى سايرت الاسلام منذ بزغ نوره ، وقد تأثر بأدواره جميعاً ، فهو تارة كنز مهمل ، لا يعرفه إلا خزنة أسراره ، ثم هو تارة مدرسة للتربية العملية حمل خريجوها أعباء النهضات الإسلامية فى عصور الازدهار.

وقد ظل علماء الغرب يخبطون فى حقيقة التصوف الإسلامى زمناً طويلا ، فقد زعموا حيناً انه من تراث الاغريق ، وظنوا حيناً أنه من نتاج الأفكار الهندية ، وظل بعضهم معتقداً أن الفرس هم واضعو أسسه قبل الإسلام ، وأن الأتراك هم مطبقو نظرياته بعد ذلك ، وبقيت الحقيقة بعيدة عن متناولهم ، لأنهم لم يقصدوا إلى بابها ، ولم يقدم إليها حب النصفة للشرق وأهله اعتزازاً بما أصبحوا فيه من قوة وسلطان ، وما بات فيه الشرق من ذل وهوان ؛ وظنوا أن القوة هى كل ما يستوجب الاكبار والاجلال ، وأن الضعف هو القبر الذى يجب أن تدفن تحت جنادله كل مفخرة يعتز الضعيف بسبب من أسباب الاتصال بها ، ولو من طريق الميراث ؛ وصادفت هذه الروح الجبارة العاتية جمود الشرق والشرقيين، وخمول علماء المشارقة، وانصراف أكثرهم إلى ما لا يدفع غائلة ولا يكسب مناعة . فانتشرت فى العالم الغربى فكرة تجرد الشرق من أسباب الحضارة ، وأن ذلك القديم الذى يعتز به المشارقة قد تهدمت أركانه وضاع آصله ، وحق لهم أن يصوروا الشرق بهذه الصورة البشعة ، لأنهم منذ اتصلوا بنا بعد قوتهم وضعفنا ، لم يجدوا فينا إلا مرضى القلوب والعقول ممن تقودهم الشهوات وتشجعهم الغايات ، فلا يستطيعون صد معتد ولا رد تهمة هم منها براء .

وأخيراً ، غلبت روح العلم الشفافة التى هى رحم بين أهله جميعاً ، وصفت نفوس بعض علماء الغرب ، فأخذوا يصارحون الجيل بوجوب الاقرار بالفضل لأهله ، والسعى فى إعادة الحق إلى أصحابه ولو إلى حد ما .

فرأينا فى كتب نولدكه ، وجوتى ، وأوليرى ، وجولدزيهر ، وفون هامر ، وآسين

بلاسيوس ، ثم فى كتب ما كدونالد ، وبراون ، ومارجليوث ؛ وأخيراً فى تلك النفائس التى يخرجها للناس الآن الأستاذ (نيكلسون) عميد جامعة (كمبردج) ، وشيخ اللغات العربية ، والفارسية ، والتركية ، والاغريقية بشعبتها الشرقية ... من دلائل الانصاف وخدمة الحقيقة المجردة ما يجعلنا نذكرهم بالثناء والحمد ، كما نثنى على من تابعهم فى مسلكهم النزيه من علماء أوربا فى العصر الحاضر .

وحق علينا أن نخجل مرة ثانية ، لقصورنا عن اللحاق بهم حتى فى الكشف عن مفاخر آبائنا وأجدادنا ؛ ولعل هذا الخجل يوقظ موات قلوبنا ، فيكشف عنها ما ران عليها ، فنبدأ جهودنا فى العناية بتلك السلسلة التى علا الصدأ حلقاتها ، وهى ليست فى حاجة إلا إلى من يجلو عنها هذا الصدأ ، فتعود لامعة براقة تتحلى بها كأكرم الأوسمة وأبهى النياشين ، بل كعقد الماس انتظمت حباته مصقولة مضيئة ، تأخذ بالأبصار .

ما هو التصوف؟

يقول الكرخى : « التصوف هو الأخذ بالحقائق ، والغنى عما فى أيدى الخلائق » ، ويقول الجنيد : « التصوف هو أن تكون مع الله ، وتحب فى الله ، وتبغض فى الله »؛ويقول سمنون : « التصوف،هو ألا تملك شيئاً لا يملكك شىء » ، ويقول إمام الجماعة بهذه المدينة أبو العباس المرسى : « التصوف هو أن تلتزم حدود الله ، وأن تكون معه فى كل زمان ومكان » ، ويقول أبو الحسن الشاذلى : « التصوف هو تدريب القلب على معرفة الرب ، والتخلص من الكدرة إلى النضرة ، وطرد الجفاء بالصفاء » .

من هو الصوفى؟

يقول فريق من علماء الإسلام : إن هذا الاسم مشتق من الصفاء،وفى ذلك يقول الشاعر:

تعارض الناس فى الصوفى واختلفوا   فظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أرضى لهذا الاسم غير فتى   صافى فصوفى حتى لقب الصوفى[1]

وذهب بعضهم إلى أن هذا الاسم منسوب إلى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين آوى إليه بعض الصحابة يرتزقون من صدقاته ، وأخذ عليهم البعض هذا الأسلوب من العيش ، فلم ينصفهم إلا نزول قوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » .

(١) قائل ذلك هو أبو الفتح البستي ، وللبيتين روايتان أخريان . ذكرهما وناقشهما وحققهما محرر هذه المجلة في العددين : الثالث والرابع من السنة الاولى (يوليو وأغسطس سنة ١٩٣١) .

ولا أظن صحة هذه النسبة إذ لو صحت لكانوا صفية ، لا صوفية .

ويقول الطوسى ، وهو أحد أئمتهم : « الأظهر فيه أنه كاللقب ، فأما قول من قال : إنه من الصوف ، فلذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف[١] » ؛ ويرى القشيرى أنه لقب ، لأنه غير مشتق فى لغة العرب ، كما أنه غير مقيس .

ويرى المستشرقون أمثال : نلدكه ، ونيكلسون ، رأى ابن خلدون عند قوله فى المقدمة : « والأظهر أنه قيل بالاشتقاق إنه من الصوف ، وهم مختصون بلبسه فى الغالب لما كانوا عليه من مخالفة الناس فى لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف » .

وإذاً أصبح من المرجح لدى علماء العصر أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اتخذوا لباسه شعاراً تمييزاً لأنفسهم عن المترفين .

وانفرد (فون هامر) برأى لا يزال موضع البحث ، فهو يرى أن الكلمة مشتقة من أصل إغريقى ، وأن (سوفى) باليونانيــة معناها الحكمة ، ومنها (فيلوسوف) ، أى محب الحكمة ، والصوفى هو محب الحكمة ، والباحث عنها فى مظانها[٢] .

ولكن (نلدكه) ردعليه هذا الزعم ، ووقفت المسألة عند هذا الحد بين علماء أوربا إلى الآن ، ورجح عندهم رأى (ابن خلدون) من أن النسبة إلى الصوف أصح وأنسب .

وأول من استعمل كلمة الصوفية من كتاب العرب ، هو (الجاحظ) فى كتاب « البيان والتبيين » ، عند قوله : « الصوفية من النساك » .

ويرى أبو نصر السراج أن الكلمة مستعملة منذ الصدر الأول من الإسلام ، إذ يقول الحسن البصرى : إنه رأى (صوفياً) يطوف بالكعبة ، والحسن البصرى من التابعين الأولين ، وقد أدرك صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأخذ عنهم .

واتفقوا على أن أول من أطلق عليه لفظ « الصوفى » ، هو أبو هاشم الكوفى دفين الرملة بفلسطين ، المتوفى سنة ٢٣٠ هجرية[٣] .

علم التصوف

يقول ابن خلدون فى المقدمة : « الصوفية من العلوم الشرعيــة الحادثة فى الملة ، وأصلها

---

(٢) هذا رأى القشيرى لا الطوسى . المحرر

(٢) نخالف حضرة الكاتب فى هذا الرأى فان فون هامر الالمانى ليس هو الذى انفرد بهذا الرأي . وانما تقدمه من المسلمين الفيلسوف « أبو الريحان البيرونى » المتوفى سنة (٤٤٠ هـ — ١٠٤٨ م) . فذكر هذا الرأي وأخذ به فى كتابه « تحقيق ما للهند من مقالة مقبولة فى العقل أو مرذولة » طبع ليدن ١٨٨٧ م .

(٣) اورد هذه الآراء جميعا مؤلف كتاب « التصوف الاسلامى العربى » المطبوع فى عام ١٩٢٨ م وقد ترجمها المصنف وهو « عبد اللطيف الطيباوى » عن الاستاذين : نيكلسون وبراون . وقد طبع كتابه هذا بعد نشر مقالاتنا عن ذلك الموضوع فى جريدة « العلم » وكنا نحب من الاستاذ التفتازانى ألا يهمل الاشارة الى هذا المؤلف المسكين كما أهمل الاشارة الى ما كتبه صاحب هذه المجلة من قبل .

العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والاعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور : من لذة ، ومال ، وجاه ، والانفراد عن الخلق بالخلوة إلى العبادة ، وقد كان ذلك فاشياً فى الصحابة والسلف ؛ ولما عم الاقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ؛ وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم « الصوفية أو المتصوفة » .

وهنا يجب أن نعرف عبارة « ابن خلدون » على وجهها الصحيح،فأقول : إن ما أراده ترجع إلى المتعة الشخصية،والتلذذ فى ذاته ، وهذا لا يتعارض مطلقاً مع أمر القرآن فى قوله تعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «ولا تنس نصيبك من الدنيا»،وإن أولئك السلف الذين يقول عنهم «ابن خلدون»:إن الزهد كان فاشياً فيهم،هم بعينهم الذين فتح الله لهم فى عشرات الأعوام ما امتنع على غيرهم طروقه فى مئاتها ، بل هم الذين وضعوا أسس المدنية الإسلامية ، فالتصوف كان معناه عندهم تربية الارادة ، والاعتماد على النفس ، وعرفان الواجب ؛ بل كانت الروح الصوفية ، هى التى تقودهم إلى إعلاء كلمة الله وهداية البشر .

فلا يظنن أحد أن التصوف كان معناه عندهم الخمول والكسل ، والتزام الخلوة للعبادة دون القيام بواجب المعبود وحقوق عباده ، بل كان التصوف عندهم مدرسة الرجولة ومعهد الحياة العملية ، ولم يدون التاريخ لواحد من أولئك الأسلاف أنه انقطع عن الدنيا ، فلم يشترك فى مهام أمته ووطنه ، كما أن تكوين الأسرة كان غالباً عليهم جميعاً ؛ ولم يعش واحد منهم عالة على أحد ، لأنهم يعلمون عن يقين قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله» ، كما يعرفون قوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : «اليد العليا خير من اليد السفلى، ولخير لك أن تترك أبناءك أغنياء من أن تتركهم عالة يتكففون الناس»؛وقد غلبت عليهم خشية الله وتغلغل حبه فى أعماق قلوبهم ، ثم جنحوا إلى الزهد ، لأنهم وجدوا فيه مصدر القوة والسعادة ؛ وقد قال سيد الوجود صلوات الله وسلامه عليه :« حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » ، فلم تستهوهم الدنيا بزخرفها ، ولا ألحت عليهم بطونهم باستعار الشهوات ، أولئك الذين عرفوا الله فعرفهم وعرفهم .

ومما أقصه هنا على سبيل الذكرى والتفكهة : أن الامام الليث بن سعد،وقد كان أغنى أهل عصره ، كما كان أعلمهم ، وكان يملك إقليم الجيزة من أوله إلى آخره حبساً وإقطاعاً ، وكان يذبح لأضيافه فى كل يوم عشرات المواشى والأغنام ، وكان إلى جوار داره رجل اختص ببيع (الفول المدمس) فى حانوته ، وفى كل صباح يفد إليه الخادم الخاص للامام الليث ليبتاع منه فولا مدمساً وزيتاً بدرهم ، فأدهش الرجل عدم انقطاع هذا الخادم عن مشترى الفول فى كل يوم ، فقال له يوماً ما : (يا أخى سيدك دا إيه ما يوكلكشى ليه من اللى بيندبح كل يوم للناس ومن أصناف الحلوى والفطاير اللى تسند القلب ، ومستلمك يا مسكين

بالفول المدمس كل يوم ؟) ، أجابه الخادم : (أمال الفول دا لمين ياعبيط ما هو لسيدى ، هو بيدوق غيره إلا يوم الجمعة ؟!) .

ولو أننا استوعبنا ما فى بطون كتب التاريخ والسير من حكايات الصوفية ؛ كابن أدهم ، والحورانى ، والخواص ، والشعرانى وغيرهم ، وسردنا نوادرهم وأخبارهم لضاق بنا المجال ، وكلها تدل على مبلغ عرفانهم بالله أولا ؛ ثم عرفانهم بنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم عرفانهم بواجبهم نحو دينهم وأمتهم .

* * *

إذا عرفنا التصوف الإسلامى على حقيقته ـ وهو العرفان بالله والتزام حدوده ـ استطعنا أن نساير تطوراته منذ الصدر الأول من الإسلام إلى الآن ، فقد كان عند الصحابة والتابعين زهداً وخوفاً من الله ، ثم كان عند تابعيهم مدرسة تربية عملية ، حتى إذا بدأ القرن الثالث للهجرة ، دخلت العناصر الغريبة على التصوف ، فعرفت فكرة الشمول والاتحاد والحلول بين بعضهم ، واتسع نطاق نظرية وحدة الوجود على أثر ترجمة الكتب اليونانية ، واختلاط الأفكار الهندية والفارسية بالفكرة العربية ، ثم أخذ التصوف شكله كفلسفة إسلامية ، إذ استطاع أن يهضم هذا الغريب كله ، وأن يطبعه بالطابع العربى الإسلامى ، وجعل أساس هذه الفلسفة المعرفة بالله أولا وآخراً .

ومن ثم كانت هذه النزعات جميعها متلاصقة بحيث لا يستطيع باحث أن يفرق بين إحداها وأخرى ، ومن هنا بدأت العداوة بين الفقهاء أهل الأثر ، وبين المتصوفة أهل الفكر ، وابتدأ الخلاف بينهم نقاشاً بالرسائل والكتب ، ومجالس التدريس والوعظ ؛ ثم انتهى بصراع عنيف فرق بين الطائفتين إلى أن ظهر الامام الغزالى فى المشرق ، والامام ابن رشد فى المغرب ، وصنف الأول كتابه « إحياء علوم الدين » ، وهو أجل ما صنفه الفقهاء الجامعون فى تصانيفهم بين النقل والنظر ، والفكر والأثر ؛ وقد يطول بنا المقام لو أردنا إيفاء الامام الغزالى حقه وشرحنا ظروف هجرانه الدرس إلى الحس والطوق إلى الذوق ، وكيف ازاح الحجب عن نفسه ، فأشرب مشرب القوم بعد التزام مجاهدة النفس حتى تسنم الذروة ، وأصبحت كتبه مرجع النظارة فى حقائق الاسلام .

أما ابن رشد ، فمع أنه كان من خصوم المتصوفة ، ومن أكبر أعداء نظريات الغزالى وكتبه ، إلا أنه كان بعد تعرف الحقيقة ، السراج الوهاج الذى تدين أوربا لنوره إلى اليوم ؛ وما أبناء مدرسة قرطبة وغيرها من مدارس المغرب والأندلس وخريجيها من الفلاسفة والعلماء بخافية على أحد .

وحسبنا من ابن رشد ، أنه معدود بين الفلاسفة المتكلمين ، ثم هو فى مقدمة الفقهاء والمحدثين والأئمة المجتهدين ، ثم هو عنوان جد أهل الثراء والجاه بين رجالات المسلمين ، ثم هو إمام من أئمة النساك والمتعبدين ، فهو من نواحيه جميعاً يمثل العالم المسلم الذى تعرف حقيقة الدين ، وانتهج سبيل السابقين الأولين ، أو هو كما يقول خصومه : « المجموعة الزاهرة النادرة » .

وفى غضون هذه المدة ظهر بين المتصوفة فريق ، جهد للوصول إلى مرتبة الفناء، وغلبت على عباراتهم صبغة الاشكال والابهام والتعقيد ، كإخوان الصفاء،وابن العربى ،وابن الفارض من المشارقة ، وابن جلول ، وابن حرازم ، وأبى مدين من المغاربة ؛ ولم يكن من السهل أن يتذوق مشربهم إلا من خالطهم وعاشرهم وتابع منهاجهم ، ولكنهم - جميعاً ومن إليهم من رجالات الصوفية- نشروا أعلام الصفاء فى جو الحب؛والحب هو مدد الحياة فى الدنيا،وطريق السعادة إلى الآخرة ، ومن هنا نظروا جميعاً إلى البشرية نظرة صافية ، بعيدة عن كدرة التفرقة وظلمة الغرض ، ومقياس هذه النظرة قول الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى[1] :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وإذا أردنا الانصاف فلنقل فى صراحة - لا لبس فيها ولا إبهام- : إن الانسانية مدينة للمتصوفة بتقديرها والعلو بها إلى أرقى مراتب الوجود،وإنه إذا صفت النظرة وزالت الكدرة أصبح الجميع أحباباً فى الله ؛ ديدنهم الرحمة،وشعارهم الحب ، وسياج ذلك كله الحب .

ومن العدل أن نعرج على ذكر المماليك الأولين الذين خلد لهم التاريخ الاسلامى آيات البطولة ، لأنهم صدوا عنه تيار الصليبيين والتتر ، فأنقذوه من محن كادت تودى به جميعاً ، وقد آزروا الحركة الصوفية واتخذوا منها مجناً يقى الاسلام خطر المهاجمة ؛ ففى التصوف قوة الدفاع علماً وعملا ونظاماً ، وقد بدأوا هذه النهضة بعد أن دمر السلطان المعظم جيوش البرابرة فى عين (جالوت) بين نابلس وبيسان عام ٦٥٧ للهجرة ؛ فعنى المسلمون بالتمدن الاسلامى والثقافة العربية فى جميع الأنحاء ، وواصلت مصر جهودها الجبارة فى استعادة مجدها العالمى بعد زوال الدولة الفاطمية التى لا ينكر المنصف أياديها على مصر ونهضتها من كل ناحية،واشتركت الدولة - كما قدمنا- فى مؤازة هذه الحركة الصوفية الناهضة ، فازدهرت وترعرعت ، وكان هذا العصر المبارك مبدأ تنظيم الصوفية إلى جماعات، بعضها فى الخانقاهات أو التكايا ، والبعض الآخر فى المدارس المنتشرة ، ولا يزال بعض هذه النظم باقياً إلى الآن ،

(١) لقد أحسن الاستاذ التفتازانى فى تسمية الشيخ الاكبر بابن العربى لا ابن عربى مجاراة لما حققه العلامة أحمد زكى باشا فى الجزء الثانى من « المعرفة » للسنة الاولى ص ١٦٨ . المحرر

يرجع بعضه إلى نظم الفاطميين فى حكمهم وعلاقة خلفائهم بقبائلهم وعشائرهم ، ويرجع البعض الآخر إلى ابتكار شيوخ الصوفية إبان حكم المماليك الأكراد ، مثل ذلك : كيفية تقدم المريد للجماعة واندماجه بينهم ، ثم حسبانه منهم ، ثم تدرجه فى مسالك الطريق بقهر النفس ، ثم إلزامه بأن ينتج، وأن يعيش من كسب يده حتى لا يكون عالة على أحد ، ثم وصوله إلى درجة النقابة فالخلافة ، ثم تحدثه على أتباعه ومريديه واتصاله بهم ، ثم اتصال الشيخ بالجميع ، حتى يسهل عليه بث مايريده من تعاليم وتلقين ما يراه من اوامر ؛ وأحيط ذلك كله بسياج طاعة الشيخ طاعة مطلقة، ولكن بالطبع لن تكون هذه الطاعة فى معصية تنكرها الشريعة السمحة.

أما القطب ، وأما الأوتاد ، وأما الأبدال : فأسماء ومراتب اصطلح عليها الصوفية منذ العصر الفاطمى ؛ وما بعد ذلك من المراتب فنظامه نظام الجند، واصطلاحه يطابق اصطلاح العسكرية تماماً ؛ ولكن الجميع ـ من أولهم إلى آخرهم على اختلاف رتبهم ومراتبهم ـ يدينون بأن الاسلام هو مصدر السلطة ، وأن كل ما خالف أصوله وأحكامه فهو باطل ؛ وهنا لا يجب أن يغفل مجهود الأستاذ الشعرانى ـ رضى الله عنه ـ فكتبه مراجع ذلك جميعاً .

ولنعد إلى الامام الغزالى ، لأنه أجل شخصية بين علماء الصوفية ، ينبغى أن يعرفها الناس جميعاً، فنقول: إن كتبه هى الدرع الواقى للعقيدة، وإن كل حكومة يهمها أن تحتفظ بروح الدين وفضائله فى شعبها ، وجب عليها وجوباً كلياً لا قصور فيه ، ولا هوادة، أن تعمل على إذاعتها وتيسير تناولها لكافة طبقات الشعب بالتدريس فى دور العلم، وبالارشاد والوعظ فى دور العبادة.

وقديماً عرفت أوربا فضل الامام الغزالى ، فترجمت بعض كتبه إلى اللاتينية فى القرون الوسطى ، وكان أكثر الناس انتفاعاً بها اليهود ، لأنهم صدوا بقوتها تيار المنكرين عليهم من الفلاسفة والملاحدة، بترجمة كتابيه المقاصد والتهافت، مستعيرين ألفاظه وعباراته فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وبالطبع لم يحترم اليهود الامام الغزالى ، إلا لأنهم وجدوا فى كتبه سهام الدفاع ، يردون بها هجوم الزنادقة والملحدين على ديانتهم .

أما الاحياء ، فليس فى الوقت متسع للالمام باليسير من محتوياته ، وبالاختصار أردد ما يقوله (المستر ماكدونالد) المستشرق المعروف : « إن هذا الكتاب يصح أن يستغنى به عن ألوف الكتب ، بل يجب أن يكون المصدر الموثوق به فى : الدين والتربية والأخلاق والتصوف » .

وهذا المستشرق الفاضل ، هو اصدق من كتب فى تاريخ حياة الامام الغزالى ، وفلسفته بين علماء أوربا ، ويرجع إليه الفضل فى الاشادة بذكر الامام الغزالى بين دارسى التصوف الاسلامى اليوم فى جامعات أوربا ؟

محمد الغنيمى التفتازنى

مصر فى نظر عالم ألمانى

آراء جليلة من حديث

للأستاذ هرمان جرابو

أستاذ الحضارة المصرية القديمة ولغاتها بجامعة برلين

نعتقد أنه من خير « المعرفة » كل الخير ، أن تقدم إلى قرائها الأعزاء ، هذه الآراء الجليلة ، التى تبعث شعاعاً من الضوء على تاريخنا القديم والحديث ، الذى نفخر به ونعتز .

والعالم الجليل الأستاذ (هرمان جرابو) ، يعد فى طليعة علماء الألمان ، بل علماء العالم ، فى دراسة الحضارة المصرية القديمة ولغاتها ، ولهذا يشغل كرسى الحضارة المصرية القديمة ولغاتها بجامعة برلين ؛ وهو من التلاميذ المعدودين فى العالم ، الذين تلقوا دراساتهم على الأستاذ (أدولف إرمان) العالم الألمانى العالمى الشهير ، والملقب فى الوقت الحاضر « بأبى مدرسة الحضارة المصرية القديمة ولغاتها » .

ويسرنا فى سبيل التدليل على مكانة الأستاذ (جرابو) العلمية ، أن نذكر أنه هو المختص بالبحوث العلمية فى مجمع (بروسيا) العلمى ، وأن نذكر - إلى ذلك - أنه قضى خمسة وعشرين عاماً من عمره فى عمل قاموس كبير للغة المصرية القديمة ، يعد الأول من نوعه فى العالم ، وقد ساهم فيه مع الأستاذ (أدولف إرمان) الذى قضى فى ذلك العمل الجليل خمساً وثلاثين سنة .

وقد وفقا - ولله الحمد - إلى إخراج هذا القاموس الكبير فى خمسة مجلدات ضخمة ، بلغ مجموع صفحاتها ٢٨٠٠ صفحة من الحجم الكبير ؛ وقد تشرف الأستاذ جرابو بتقديم نسخة منه فى الشهر المنصرم إلى جلالة الملك فؤاد الأول ، وقد لقى من جلالته كل رعاية وتقدير .

وقد أتيح لمحرر هذه المجلة أن يتحدث إلى الأستاذ (جرابو) فى جمعية الشبان المسلمين ، بواسطة صديقنا الفاضل الدكتور على مظهر ، الذى تفضل فقدمنا إليه ، وتولى ترجمة هذا الحديث الذى نقدمه إلى القراء فيما يلى :

زيارة مصر وأثرها فى نفسه

كان أول ما توجهنا به إلى الأستاذ أن سألناه عن الأثر الذى أحدثته فى نفسه زيارته مصر ؛ فقال :

«إن إنساناً يكرس حياته لدراسة اللغات المصرية القديمة، لطبيعى فيه - من غير شك - أن تتوجه نفسه إلى قراءة ما يتصل بحضارتها من جميع الوجوه ، ولذلك كنت أقرأ وأبحث فى شغف واهتمام زائدين ، وقد كنت أسمع كثيراً عن مصر ومبلغ رقيها ، وعن آثارها ومبلغ عظمتها ؛ فكان ذلك كله يبعث فى نفسى الرغبة تلو الرغبة لزيارتها ورؤيتها بعينى رأسى ؛ أما الآن ، وقد أتيحت لى هذه الأمنية، فرأيت بعينى ما لم أره من قبل ؛ فإنى أصارحك القول ان ما رأيته أحسن وأعظم وأجل بكثير مما سمعته ؛ لأنى ألمس بنفسى صوراً حية ، لم يكن جل ما سمعته أو قرأته بكاف لينقل لى صورة صحيحة عنه» .

رسالة الجامعات

وهنا انتهزنا الفرصة، فسألنا الأستاذ - باعتباره أستاذاً فى جامعة كبيرة - عن ماهية رسالة الجامعات والغرض من الدراسة فيها ، فقال :

« إن الغرض الأساسى من إنشاء الجامعات على اختلاف ألوانها ، بل إن الرسالة التى تقوم بها الجامعات على تعدد جنسياتها تنحصر فى إرشاد الطلاب إلى سبيل البحث الحر ، والتفكير الصحيح ؛ أعنى أنها تبث فيهم روح التحقيق العلمى لما يعرض لهم فى مختلف المسائل العلمية من شئون ؛ وبعبارة أخرى : إرشادهم إلى طريقة استعمال المفتاح » .

« وليس الغرض من الجامعات حشو أذهان الطلاب بالمعلومات، أو الحقائق الثابتة على أنها معلومات أو حقائق لا مفر من تصديقها ؛ وإنما مهمتها فتق أذهانهم وإنارة السبيل أمامهم؛ ذلك أن العلم بحر مترامى الأطراف لا ساحل له ، ومثل الطالب منه مثل ربان السفينة الذى يجب أن يتعلم كيف يكون رباناً ماهراً ، حتى يقود سفينته فى مأمن من الزعازع والأنواء» .

« والخلاصة هى أن الجامعات ليست مدارس تعلم نصوصاً بذاتها ، وإنما هى معاهد حرة مهمتها البحث فى أصل العلم وكنهه ».

استقلال الجامعات

ثم سألناه عن مبلغ استقلال الجامعات فى ألمانيا ، فقال :

«بالرغم من أن الحكومة هى التى تدفع مرتبات الأساتذة، فإن الجامعة مستقلة تمام الاستقلال؛ والأساتذة لهم تمام الحرية المطلقة فى جميع دراساتهم وأعمالهم، سواء أكانت علمية أم أخلاقية أو اجتماعية ، حتى المسألة الدينية ، فانهم غير مقيدين فيها برأى من الآراء » .

مبلغ عناية جامعات ألمانيا بالحضارة المصرية القديمة

ثم سألنا الأستاذ عن مبلغ عناية الجامعات فى ألمانيا بحضارة مصر القديمة ولغاتها، فقال:

« إن عناية جامعاتنا بهذه الحضارة عناية كافية ، وحسبك لتعلم مقدارها أن تعرف أنه فى أكثر من سبع جامعات ألمانية توجد كراسى لدراستها،مثل جامعات : برلين ، ولايبتزج ، وبون .... الخ . وفى جامعة برلين وحدها يوجد الآن عشرة طلاب يتخصصون فى دراستها».

وانتهزنا فرصة هذا لنسأله عما إذا كانت هذه العناية قد كثرت أم قلت عما كانت عليه ، بعد الحرب العالمية فأجاب : بأنها لم تتغير مطلقاً .

هل يرجع قدماء المصريين الى أصل عربى ؟

وسألنا الأستاذ ـ أيضاً ـ عن فكرة قرأناها لبعض الكتاب،يدور محورها حول إرجاع نسب قدماء المصريين إلى أصل عربى ، لوجود بعض العلاقات بين اللغة الهيروغليفية وبين اللغة العربية ، فقال :

« ليس هذا بالسؤال السهل أو الهين ، أو الذى يجاب عنه فى كلمات معدودات ، أو فى مثل هذا الوقت القصير ، وكل ما أستطيع أن أقوله لك الآن هو أن رأيى فى قدماء المصريين أنهم من أصول أفريقية امتزجت ببعض العناصر الأسيوية ، فأثرت فى لغتهم بعض التأثير الظاهر فى المفردات وغيرها » .

« على أنه وإن كانت ثمة علاقة بين اللغتين : الهيروغليفية والعربية ، فانها لا تكفى للقول بأن قدماء المصريين من أصل عربى » .

« ثم نلاحظ أن النصوص الهيروغليفية المكتوبة قديمة ، بل أقدم بكثير من النصوص العربية المكتوبة ، التى لم توجد إلا فى أوائل الاسلام » .

تحقيق الكلمات المصرية القديمة

ثم سألناه كيف تسنى لها تحقيق معانى الكلمات المختلفة وهى قد تأتى فى مواطن مختلفة بمعان مختلفة ، فقال :

« لكى أشرح ذلك أضرب لك مثلا :

« فلنفرض أنا عثرنا على كلمة مجهولة المعنى فى موضع ما كما هى الحال فى الجملة الآتية :

«دخل الملك ... (كلمة مجهولة)...إلى المعبد.وفى موضع آخر جاء فيها...فتح الكاهن... (كلمة مجهولة) . وفى موضع ثالث كان مصراع ... (كلمة مجهولة) مصنوعاً من خشب الأرز.

وفى موضع رابع ... حُف دائر ... (كلمة مجهولة) بحجر الجير ؛ وفى موضع خامس ... كان (كلمة مجهولة) ... بين بهو القرابين بدندرة ، وبهو كل الآلهة المقدسة ، طوله خمسة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع ؛ وعلى هذا يكون معنى (الكلمة المجهولة) فى هذه المواضع الخمسة إما باباً أو بوابة . ولتحقيق هذا الغرض كتبت كل الكتابات الموجودة على الحجارة، وعلى ورق البردى ـ الموجود فى كل المتاحف على وجه الأرض وفى مصر ـ ، أو صورت بآلة مصورة أو بأية طريقة أخرى وجمع كل ذلك. وقد كتبت تلك النصوص التى فحصت على جذاذات من ورق بحجم معين بحبر الطبع على الحجر ، وقسمت أقساماً : كل قسم منها مكون من ثلاثين كلمة ، وفى جانب كل ورقة كتبت صورة ترجمة مؤقتة ، وطبعت كل جذاذة ثلاثين مرة . وبهذه الوسيلة أصبح لدينا من كل جذاذة ثلاثون صورة متشابهة تماماً ، وأمكننا إذن أن نستعمل كل جذاذة من هذه الجذاذات لكل كلمة من الثلاثين كلمة المكتوبة على الجذاذة الواحدة، وبهذه الطريقة أيضاً أمكننا أن يكون لدينا كل أماكن الدلالات والاشارات لكل كلمة واحدة ، وبهذا أصبح لدينا لكل كلمة مكانها وعلاقتها بكل نص » .

أى الحضارتين أنفع لمصر : الشرقية أم الغربية ؟

وسألناه عن أى الحضارتين أنفع لنا معشر المصريين ، باعتباره عالماً بتاريخها القديم والحديث ، فقال :

« للمصريين الحق كل الحق فى أن يتجهوا نحو المثل الأعلى بالطريق التى يرونها أصلح لأنفسهم ؛ فهم أعرف بحاجاتهم وبما يصلح لهم أكثر من غيرهم » .

« وقد عرفت كثيراً من الطلبة المصريين فى ألمانيا ، فتبينت فيهم قدرة على الاضطلاع بأعباء البحث والعلم قدرة فائقة ، كما عرفت فيهم الجد والنشاط » .

« وإنه لمن خير الشباب فى مصر أن يترك حراً يختار طريقه فى حياته المستقبلة، فان للشاب كما للرجل فكراً يختلف لا باختلاف السن ولكن باختلاف التفكير ؛ فقد يصيب الشاب وقد يخطىء الرجل؛ وأنا شخصياً لم تلق إلى نصيحة ما وقت أن كنت فى سن الشباب ، بل تركت للزمن والتجارب ، لأن المستقبل للشباب دون الكهول ، والزمن كفيل بارشادهم إلى ما يحسن بهم عمله » .

ولما وصل بنا الحديث إلى هذه النقطة ، آذن صوت الناقوس ببدء محاضرة الأستاذ ، التى ألقاها بلغته الألمانية ، وترجمها صديقنا الدكتور مظهر إلى العربية بعنوان « قاموس اللغة المصرية القديمة » فاكتفينا بهذا القدر .....

مملكة الحيرة فى أيامها الأخيرة*

بقلم الاستاذ يوسف بك غنيمة
وزير مالية العراق الأسبق

٤ : ازادبة

٦١٧ — ٦٢٨م

عقب إياس على ولاية الحيرة رجل فارسى سماه حمزة الأصفهانى [١] زاديه بن ماهبيان ابن مهر بنداد الهمذانى، وجعل مدة ولايته ١٧ سنة، وقال ابن الأثير : اسمه أزادبة بن مابيان الهمذانى [٢]، وسماه بعض الكتبة روزبى بن مرزوق [٣]، ولم نقف على أعماله والأحداث التى تمت فى أيامه . والظاهر أن كسرى أبرويز جنح - بعد قتل النعمان أبى قابوس وانكسار جيشه فى واقعة ذى قار - إلى سياسة فارسية بحتة فى « الحيرة »، وذلك بتعيين عمال من الفرس عليها، وهكذا قضى على سلطان المناذرة .

وفى أيام هذا المرزبان خلع كسرى أبرويز وقتله مهر هرمز بن مردانشاه فادوسبان نيمروذ، على ما رواه الطبرى [٤]، وجلس على عرش الأكاسرة شيرويه بن أبرويز، وجاء فى بعض الروايات عن سبب خلع كسرى أبرويز وقتله ما يأتى :

اضطهد هذا الملك النصارى وقتل فى إبان الاضطهاد أنسطاس الشهيد ويزدين صرافه، (أى صراف الملك)، وكان نصرانياً واستولى على أمواله، فاتفق ابنا يزدين وهما : شمطا ومهر هرمز (ويسمى هذا الأخير قرطاق أيضاً) مع فريق من أشراف الدولة ورفعوا لواء العصيان على كسرى أبرويز ونادوا بخلعه وتنصيب ابنه شيرويه، واستأذن ابنا يزدين شيرويه فى قتل أبيه فأذن لهما وقتله مهر هرمز [٥]، ثم تماديا فى عملهما وقتلا أولاد كسرى كلهم

---

* راجع « المعرفة » عدد ديسمبر ١٩٣٢ .

(١) كتاب تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ٧٤ (٢) الكامل ١ : ٢٠٠ (٣) شير : كلدو وأثور ٢ : ٢٤٣ (٤) الطبرى ٢ : ١٥٩ — ١٦٦ (٥) ضبط بعضهم اسمه نيهورمزد، ويظهر من رواية الطبرى ٢ : ١٦٦ أن مهر هرمز هو ابن مردانشاه فادوسبان نيمروذ، ويؤيد هذا القول ما جاء فى تاريخ كلدو وأثور لأدى شير ٢ : ١٤٢ أن نيهورمزد اتفق وشمطا لأن كسرى أبرويز كان قد قتل أباه أيضاً، أما (لابور) فى كتابه الفرنسى « تاريخ النصرانية فى فارس » ص ٢٣٥، فانه يوحد قرطا أو قرطاق ونيهورمزد .

يعاونهما فى أمرها عظماء الدولة ، ويقال إنهما أمعنا فى غلوائهما وحاولا الاستيلاء على الملك وإقامة سلالة مالكة من أسرتهما ، وأتت الأحوال موالية لهذه الخطط ، إذ كان جيش الروم فى تلك الأرجاء ، وكان الامبراطور هرقل يسر أن يرى على عرش الأكاسرة ملكاً نصرانياً يخضع له ويطلب حمايته (١) .

حذر شيرويه الموقف فقبض على شمطا ، إلا أن شمطا تمكن من الفرار والتجأ إلى الحيرة فلم يجده هذا الالتجاء نفعاً ، لأن الحيرة العربية كانت قد فقدت شبه استقلالها ، فلم تكن بعد ملجأ لأعداء ملك الملوك ، فقبض شيرويه على خصمه وقطع يديه وسجنه (٢) .

وذكر الدينورى(٣) رواية غير هذه الرواية فى سبب خلع كسرى أبرويز لا محل لذكرها هنا، وفى كتاب أرسله إليه ابنه شيرويه بين له فيه سوء إدارته وأعماله التى أدت إلى خلعه ، ومما قال فيه لأبيه أباه « ومنها قتلك النعمان بن المنذر وصرفك ملك أرضه عن ولده وأهل بيته إلى غيرهم ، يعنى إياس بن قبيصة الطائى ، فلم تحفظ فيهم ما كان يحفظه آباؤك من حضانته بهرام جور جدك ومعونته بعد أن خرج الملك عنه حتى رده عليه ، فكل هذه ذنوب ارتكبتها وآثام اقترفتها ، لم يكن الله ليرضى منك ، فآخذك بها » (٤) .

٥ : المنذر الخامس ابن النعمان أبي قابوس
وهو المنذر المغرور
٦٢٨ — ٦٣٢

ذكر بعض المؤرخين ملك المنذر المغرور ابن النعمان أبى قابوس على الحيرة بعد أن اقتطع الملك عن بيته، وتولاه غير واحد من الدخلاء من عرب وفرس، ولكننا نجهل الوسائل التى مهدت له السبل لاعادة سلطان آبائه وأجداده ، وإن قلنا شيئاً فما ذلك إلا من طريق الحدس والاستنتاج، فنظن أن دولة الأكاسرة ضعفت فى هذه المطاوى بعد قتل كسرى أبرويز (٦٢٨م) واستظهار الروم على الفرس فى عهد القيصر هرقل ، وجاءت الفتن الداخلية والثورات القومية ضغثاً على إبالة ، ففتت فى عضد الفرس ، وهدمت أركان سيطرتهم ، حتى قام على عرش الأكاسرة فى غضون أربع سنوات عدد من ملوك وملكات منهم: شيرويه بن أبرويز، وشيرزاد ابن شيرويه ، وشهريان ، وجوان شير ، وبوران (٥) ، ولم يستقم الأمر لأحد منهم ، بل

(١) لابور: النصرانية فى بلاد فارس ص ٢٣٦ (٢) الطبرى ٢: ١٥٩ — ١٦٦، ولابور: ٢٣٢— ٢٣٦، وادى شير ٢: ٢٤١ — ٢٤٣ Un Nuovo Testo Sulla Storia Degli Ulteini S'assanidi Edit, Guidi 1891 (٣) الأخبار الطوال: ١٠٦ — ١١١ (٤) كذلك ص ١٠٧ (٥) الأخبار الطوال : ١٠٦ — ١١٠ .

خلعوا أو قتلوا،فهذا الاضطراب فى دولة الأكاسرة ربما هو الذى سهل السبل للمنذر المغرور أن يستعيد ملك الحيرة،ولكن لم يطل الأمد عليه حتى جاءت جحافل الفاتحين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد فى خلافة أبى بكر الصديق فى سنة (١٢ هـ ٦٣٢ م) وفتحوا الحيرة . اما المنذر فذهب إلى البحرين وأسلم، وكان يقال له قبل إسلامه الغرور، وسمى نفسه بعد إسلامه المغرور (١) ؛ وفى رواية (٢) أن ربيعة ملكوه عليهم فى البحرين لما ارتدوا وقتل فى واقعة جواثا (٣) ، وذكر الطبرى أن الحطم بن ضبيعة أخا بنى قيس بن ثعلبة ارتد فى البحرين ، وأرسل إلى غير واحد واسمه الغرور ابن سويد أخى النعمان بن المنذر ، فبعثه إلى جواثا ، وقال : اثبت فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة (٤) .

٦ : فتح الحيرة

اشتهرت الحيرة بين العرب بجمالها الفتان ، وزخرفها الجذاب ، وموقعها النزه ، وقصورها العامرة ، وسارت الركبان بذكرها لوجودها فى آخر ريف العراق قريبة من البادية على طريق القوافل ومسير القبائل ، وللصلات القومية بين سكانها وسكان جزيرة العرب ، ولهذا نرى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - ذكرها غير مرة فى حديثه على ما رواه المؤرخون ، ومن ذلك ابتهاجه بنصرة العرب على العجم فى واقعة ذى قار ، كما مر بنا ، وفى كلامه مع عدى ابن حاتم ، قال عدى : دخلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال لى : يا عدى بن حاتم ! « اسلم تسلم » ثلاثاً - فقلت : إنى على دين ، قال : إنى أعلم بدينك منك ، فقلت : أنت أعلم بدينى منى ، قال نعم،ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك ، قلت بلى ، قال فان هذا لا يحل لك فى دينك ، وقال حاتم : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها ، فقال : أما إنى فأعلم ما الذى يمنعك من الاسلام،تقول إنما أتباعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب ؛ أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها ، قال : فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز (قال) قلت : كسرى بن هرمز؟قال : نعم كسرى بن هرمز،وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد ، قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة وتطوف بالبيت من جوار ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قالها (٥) .

---

(١) ابن الأثير ٢ : ١٥٤ (٢) الطبرى ٣ : ٢٥٥ (٣) كذلك ٢ : ١٥٧ (٤) الطبرى ٤ : ١٥
(٥) مسند عدى بن حاتم من كتاب سند الامام أحمد بن حنبل،ومجلة المشرق ١٩٠٥ : ص ٥٠٧

وذكرت الحيرة أمام النبي – صلى الله عليه وسلم – غير هذه المرة . حكى ابن الكلبي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما افتتح مكة قدمت عليه وفود العرب ، فكان فيمن قدم عليه قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم بن عمه ، فلما صارا عند النبي تسابا وتهاترا ، فقال قيس بن الأهتم : والله يا رسول الله ما هم منا وإنهم لمن أهل الحيرة ، فقال عمرو بن الأهتم : بل هو والله يا رسول الله من الروم ، وليس منا ؛ ثم أنشد شعراً ، فأجابه عمرو بن الأهتم بشعر تعرض به وبالحيريين ومن ذلك قوله :

ما في بني الأهتم من طائـل يرجى ولا خير له يصلحون
قل لبني الحيرى مخصوصـة تظهر منهـم بعض ما يكتمون
لولا دفاعي كنتمو أعبـداً مسكنها الحيرة فالسيلحون
جاءت بكم عفـرة من أرضها حيرية ليست كما تزعمون
في ظاهـر الكف وفي بطنهـا وسم من الداء الذي تكتمون[١]

وذكر أيضاً عدى بن حاتم قائلا : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكر ما رفع له من البلدان ، فذكر الحيرة فيما رفع له ، وكأن شرف قصورها أضراس الكلاب عرفت أن قد أريها وأنها ستفتح[٢] .

وقال شويل محدثاً خالد بن الوليد : إني سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يذكر فتح الحيرة ، فسألته كرامة بنت عبد المسيح ، فقال : هي لك إذا فتحت الحيرة عنوة وشهد له بذلك[٣] .

هذا ما جاء عن النبي محمد بن عبد الله في ذكر الحيرة وفي الطموح إلى فتحها ، ولكن لم يتم من أمر ذلك شيء إلا بعد أن تولى الخلافة أبو بكر الصديق . وكان أول من غزا أرض العراق من المسلمين : المثنى بن حارثة الشيباني ، والآخر سويد بن قطبة[٤] العجلي ، فأقبلا حتى نزلا فيمن جمعا بتخوم أرض العجم ، فكانا يغيران على الدهاقين فيأخذان ما قدرا عليه ، فإذا طلبا أمعنا في البر فلا يتبعهما أحد ، وكان المثنى يغير من ناحية الحيرة ، وسويد من ناحية الأبلة ، وذلك في خلافة أبي بكر ، فكتب المثنى بن حارثة إلى أبي بكر – رضي الله عنه – يعلمه ضراوته بفارس ويعرفه وهنهم ويسأله أن يمده بجيش ، فلما انتهى كتابه إلى أبي بكر – رضي الله عنه – كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد ، وقد كان فرغ من أهل الردة – أن يسير إلى الحيرة فيحارب فارس ويضم إليه المثنى ومن معه ، وكره المثنى ورود خالد عليه ، وكان

(١) الأغاني ١٢ : ١٥٠ (٢) الطبري ٤ : ١٥ (٣) كذلك (٤) وجاء في معجم البلدان في المادة « نعمان » أن أول من قدم أرض العراق لقتال أهل فارس حرملة بن مريطة وسلمى بن القين فنزلا أطد ونعمان والجعرانة ، وكانا من المهاجرين ومن صالحي الصحابة .

ظن أن أبا بكر سيوليه الأمر ، فسار خالد فى سنة (١٢ هـ ٦٣٢ م) إلى العراق حتى نزل بباقيا (١) وباروسما (٢) وأُلّيس (٣) ، وكان الذى صالحه عليها بصبهرى بن صلوبا ، وكتب خالد بن الوليد لهم كتاباً فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن بصبهرى ومنزله بشاطىء الفرات ، إنك آمن بأمان الله على حقن دمك فى إعطاء الجزية عن نفسك وجيرتك وأهل قريتك - بانقيا وسميا - على ألف درهم جزية ، وقد قبلنا منك ورضى من معى من المسلمين بذلك ، فلك ذمة الله ، وذمة النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - وذمة المسلمين على ذلك ... شهد هشام بن الوليد ، وجرير بن عبد الله بن أبى عوف ، وسعيد ابن عمرو وكتب سنة ١٣ والسلام » . ويروى ذلك أنه كان سنة ١٢ (٤) .

ثم أقبل خالد بن الوليد حتى دنا من الحيرة فخرجت إليه خيول أزاذبة صاحب خيل كسرى التى كانت فى مسالح ما بينه وبين العرب فلقوهم بمجتمع الأنهار ، فتوجه إليهم المثنى بن حارثة فهزمهم الله ، ولما رأى ذلك أهل الحيرة خرجوا يستقبلونه ، فهم عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة وهانىء بن قبيصة ، فقال لهم خالد : إنى أدعوكم إلى الاسلام ، فان قبلتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فقد جئناكم بقوم يحبون الموت ، كما تحبون أنتم شرب الخمر ، فقالوا : لا حاجة لنا فى حربك ، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم ، فكانت أول جزية حملت إلى المدينة من العراق ، وصالح خالد أهل الحيرة على أن يكونوا له عيوناً ففعلوا (٥) .

الظاهر أن هذا الصلح لم يدم طويلا ، لأن الحكومة المركزية الفارسية علمت بالأمر وجيشت الجيوش لمحاربة الفاتحين ، فانسحب خالد بن الوليد ، ولهذا نراه يحارب فى شهر صفر من السنة عينها فى الولجة وأُلّيس وامغشيا ، وبعد أن انتصر فى هذه المواقع سار إلى الحيرة

---

(١) ناحية من نواحى الكوفة وذكرها فى الفتوح (٢) قال ياقوت : باروسما ناحيتان من سواد بغداد ، ويقال لهما باروسما الأعلى وباروسما الأسفل من كورة الأستان الأوسط (٣) أُلّيس قرية من قرى الأنبار (٤) راجع معجم البلدان المادة « بانقيا » ، وجاءت صورة هذه الرسالة فى الطبرى ٤ : ٣ بالنص الآتى : « بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى ومنزله بشاطىء الفرات ، إنك امن بأمان الله إذ حقن دمه إعطاء الجزية ، وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان بقريتك - بانقيا وباروسما - ألف درهم فقبلتها منك وشهد هشام بن الوليد » .

(٥) الطبرى ٤ ص ٣ — ٤ .

وحمل الرحال والأثقال فى السفن ، فخرج مرزبان الحيرة ،وهو الأزاذبة ، فعسكر عند الغريين، و أرسل ابنه فقطع الماء عن السفن ، فبقيت على الأرض،فسار خالد فى خيل نحو ابن الأزاذبة فلقيه على فرات بادقلى ، فضربه وقتله وقتل أصحابه ، وسار نحو الحيرة فهرب منه الأزاذبة ، وكان قد بلغه موت أردشير [١] وقتل ابنه فهرب بغير قتال ، ونزل المسلمون عند الغريين وتحصن أهل الحيرة فحصرهم فى قصورهم ، وكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى ، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى المقتول ، وكان ضرار بن مقرن المزنى - عاشر عشرة إخوة له - محاصراً قصر بنى مازن ، وفيه ابن أ كال ،وكان المثنى محاصراً قصر ابن بقيلة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح فدعوهم جميعاً وأجلوهم يوماً فأبى أهل الحيرة ولجوا فناوشهم المسلمون ، فعهد خالد إلى أمرائه أن يبدءوا بالدعاء ، فان قبلوا قبلوا منهم ،وإن أبوا أن يؤجلوهم يوماً ، وكان ضرار بن الأزور على قتال القصر الأبيض،فأصبحوا وهم مشرفون ، فدعاهم إلى إحدى ثلاث: الاسلام، أو الجزاء ، أو المنابذة ، فاختاروا المنابذة وتنادوا عليكم الخزازيف ، فقال ضرار : تنحوا لا ينالكم الرمى حتى ننظر فى الذى هتفوا به ، فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال متعلقى المخالى يرمون المسلمين بالخزازيف -وهى المداحى من الخزف - فقال ضرار : ارشقوهم فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل فأعروا رءوس الحيطان،ثم بثوا غارتهم فيمن يليهم ، وصبح أمير كل قوم بمثل ذلك فافتتحوا الدور والديارات وأ كثروا القتل ، فنادى القسيسون والرهبان : يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم ، فنادى أهل القصور : يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث فادعوا بنا وكفوا عنا حتى تبلغونا خالداً ، فخرج إياس بن قبيصة وأخوه إلى ضرار ابن الأزور ، وخرج عدى بن عدى وزيد بن عدى إلى ضرار بن الخطاب ، وخرج عمرو بن عبد المسيح وابن أ كال هذا إلى ضرار بن مقرن ، وهذا إلى المثنى بن حارثة فأرسلوهم إلى خالد ، فخلا خالد بأهل كل قصر منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عدى وقال : ويحكم ما أنتم عرب ، فما تنعمون من العرب أو العجم ، فما تنقمون من الا نصاف والعدل ، فقال له عدى : بل عرب عاربة وأخرى متعربة ، فصالحوهم على مائة وتسعين ألفاً وتتابعوا على ذلك وأهدوا له هدايا [٢] .

[للبحث بقية] يوسف غنيمة

---

(١) ابن الأثير ٢ : ١٦٣ .

(٢) الطبرى ٤ : ١٢ .

صفحات فى الادب الالمانى

هـــــــــردر

بقلم الدكتور على مظهر

هو (يوهان جوتفريد هردر)، ولد فى اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٤٤م ببروسيا الشرقية، وكان أبوه معلماً فقيراً فى مدرسة، وكان يكد ويكدح كدحاً متواصلا للحصول على ما يسد حاجته الشديدة. أما الابن فقد تنقل من منزل واعظ إلى منزل من خلفه، ثم سافر مع طبيب إحدى الفيالق إلى (كونجزبرج)، وقد تعلم على يديه الجراحة، وتم له أخيراً أن أعطاه ذلك الطبيب ما يلزمه لدراسة الطب فى بيترزبورج ـ حاضرة الروسيا السابقة ـ، وكان الولد حيياً خجولا كبير الاحساس منزوياً عن الناس؛ ولما بدأ دراسته وحضر أول عملية أجروها أمامه سقط مغشياً عليه، فترك دراسة الطب، وعدل عنها إلى دراسة اللاهوت، وكان يعطى دروساً أثناء دراسته فيما تجمع له من ذلك، وما كان يمده به عضده الكبير، كل ذلك جعله يتم دراسته وهو فى غنى عن كل مساعدة من أبويه؛ وممن حضر دروسهم واستمع إلى محاضراتهم فى مدينة (كونجزبرج) الفيلسوف المعروف (إمانويل كانت) فأثر، فى تكوينه العقلى أثراً دائماً، ثم (يوهان جورج هامان) الذى اشتهر بتفوقه فى فهم الأمور الدينية على كل معاصريه، وعرف بأسلوبه الغامض ذى الألغاز؛ وجعل هردر يقرأ (شكسبير) و (أوسيان) ويفهم ما كتباه، كما جعله يميل للشعر الشعبى.

قضى الفترة بين سنة ١٧٦٤و١٧٦٩فى مدينة (ريجا) يدرس فى مدرسة البيعة (الكتدرائية) هناك، ثم صار واعظاً منذ سنة ١٧٦٧، ولكنه اعتزل ذلك المنصب ليتصل بمعاهد التربية والتهذيب الشهيرة فى الخارج، فسافر بحراً من (ريجا) إلى (نانت) ومنها إلى (باريس)؛ وكانت هذه الرحلة سبباً فى تبدل نظام حياته عما قبل، فقد عهد إليه ـ وهو فى (باريس) ـ بمرافقة الأمير (فون هولشتين) إلى (إيطاليا)، وكانت السوداء قد غلبت على نفسه، فقام بما عهد إليه وسافر عن طريق (هامبورج)، وهناك تقابل مع (لسنج)، ثم سافر إلى (كيل) ليقدم إلى الأمير، وبدأ سياحته معه سنة ١٧٧٠، وتنقل فيها بين (هامبورج) و (هانوفر) و (جوتنجن) و (دار مشتادت)، وفى منزل المستشار الحربى (مرك) تعرف بزوجه فيما

بعد المدعوة (كارولينا فلا كسلاند) ، ثم إنه سافر إلى (شتراسبورج) حيث أقام فيها نصف عام استقال فيه من عمله الذى أصبح لا يطيق القيام به وليداوى عينيه ، ولكنه لم يوفق للشفاء ، وعرف (جيته) الشاب وصادقه ، وكان يدرس الحقوق إذ ذاك بجامعة (شتراسبورج) ، وفى سنة ١٧٧١ دعا (الجراف كونت فيلهلم) هردر ليكون واعظ البلاط فى (بوكبورج) ، وتوسط له (جيته) ليكون رئيساً عاماً لادارة فى (فيمار) سنة ١٧٧٦ ، وبذا كان ثالث الشعراء المشهورين الذين ذهبوا إلى تلك المدينة ، وهناك كان يكثر الخلطة والتردد على (فيلاند) ويكثر من ملازمته، وفى سنة ١٧٨٨ كان فى صحبة الأميرة (الهرتزوجين إماليا) فى رحلتها إلى (إيطاليا)، وصار يتدرج فى وظائف ومراتب عليا حتى أنعم عليه امير (بافاريا) الأكبر برتبة من مراتب الشرف والنبل ، وتوفى بعد أن لازمه المرض زمناً طويلا فى سنة ١٨٠٣ ، وكان أول عضو من مجمع شعراء (فيمار) الذى اختاره الموت وعجل به .

لم يقتصر (هردر) فى كتابته على مادة واحدة ، بل تعداها إلى أكثر منها، فتراه يكتب مواضيع دينية ، ولاهوتية ، ولغوية ، وفلسفية ، وتاريخية ، وشعرية ، وخاصة بالجمال والانسجام ؛ وكان يشتغل بها كلها بجد واجتهاد .

وقد بدأ حياته الأدبية بالنقد الذى كان يدفعه (لسنج) إليه ، ولما كان فى (ريجا) نشر مؤلفين ، كان يرمى بنشرهما إلى إذاعة آراء جديدة بعد أن يكون قد محا من الأدب ما فيه ليبدأ تطوراً فنياً؛ فنشر (قطع فى الأدب الألمانى) سنة ١٧٦٧ جعلها كتكملة (لخطابات لسنج الأدبية) ، ثم نشر (الغابات النقدية) سنة ١٧٦٩ ، وكانت إحدى تلك (الغابات) خاصة بـ (لوكون) لسنج ، وكانت الاثنتان التاليتان خاصة بما كتبه (كلوتز) ، وتراه فى (القطع) يطالب الكتاب بأن يجعلوا أسلوبهم واضحاً مفهوماً للشعب والطبقة الوسطى ، وأن لا يكون تعملا وتصنعاً ، وأن لا يكون تكلفاً ، بل يأتى الكاتب بالحديث المفيد ، وأن يكون الشاعر شاعراً بفطرته ، وقال فى ذلك ما معناه : لماذا نقلد الأجانب دائماً ، كما لو كنا إغريقاً أو من الرومان ؟ لندع أدباءنا يصورون ما يرونه من قوام وأشكال من غير أن يعمدوا إلى جزء غريب عنا من الجو يأتوننا به ليصبغوا أقوالهم بصبغة شعرية.

وهو يفرق بين نظم الصنعة وبين الشعر الصادر عن طبيعة شاعر، ويقول : إن اللغة فى زمن حداثتها تكون فى السن الشعرى لها . لأنك تجدها قادرة على أن تؤدى ما يراد منها ، غنية ملأى بالأنغام حافلة بالصور ؛ فإذا ما انتقلت إلى سن الرجولة أصبح الشعر شعر الصنعة والتكلف نائياً عن الطبيعة ؛ وعنده أن (هومير) هو أحسن من قرض الشعر وشاد بذكر الطبيعة ، ولذا فهو يفضله على (فرجيل) لما كان فى شعر هذا من الصنعة ، وبموازنة

نظم الصنعة والتكلف بالشعر الصادر عن الطبيعة يمكن أن تصل لفهم كل شعر فهماً صحيحاً صادقاً، كما يمكن معرفة كل تاريخ للشعر.

وتراه فى (غاباته النقدية) يتكلم ويحدث ، كما فعل فى (قطعه) ، ويتكلم عن (هومير) وحسن فهمه لأشعاره وآثاره ، كما تراه يتكلم عن قصص الأبطال الحماسية ـ الملاحم على رأى البستانى ـ ، ويتكلم عن طرقه الصحيحة ومناهجه الصادقة ، واستنكر تلك الطريقة التى تقضى بالحكم على شعراء القدماء حسب أذواق وعوائد العصر الحديث ، وخص بنضاله ومناقشته الشراح الفرنسيين الحديثين الذين لم يتمكنوا من فهم روح العصر القديم ، وقد تكلم فى تلك (الغابات) على (لوكون) لسنج ، وتوصل إلى نتائج أخرى ، ويظهر أنه كان غير موفق فى نقده هذا ؛ وقد أعجب (هردر) بما فى الأغانى الشعبية (لأوسيان) ، كما أعجب (بهومير) من قبل ، وكذلك أعجب (بشكسبير) ، لأنه وجد أن أشعار هؤلاء صادرة عن فطرة طبيعية ؛ وقد اشترك مع (جيته) فى نشر (أوراق فى الفن الألمانى) سنة ١٧٧٣ ، وهى تشير إلى ذلك المعنى عينه والغرض نفسه ، ثم نشر (هردر) رسالتين الأولى خاصة بـ (أوسيان) وبأغانى الشعوب القديمة ، والثانية خاصة بـ (شكسبير) ، وفى هذه الأوراق يفضل (هردر) أشعار الشعب وشعر الفطرة على نظم التكلف والصنعة ، ويبين فيها ما بأغانى الشعبيين من غناء موسيقى وأثر غير مباشر ، وأوصاف شخصية ، ووضوح وبيان ؛ بينما ترى فى نظم الصنعة الكلامية أنه عمل سائر على قواعد وأصول ، ولكنه لا يصدر عن فطرة طبيعية ، فترى الانسان ينظم ويصف أشياء لم يفكر فيها ، ويتصنع العشق وليس به من غرام ، ويقلد قوى الروح التى ليست له .

هذا ما كان عن الشعر ، أما عن النثر ، فانه يرى فى (الانجيل) نثراً جيداً صحيحاً ، لا سيما فى لغة العهد القديم ، ولـ (هردر) أبحاث فى شعر العبرانيين ، فتراه يشير إلى ذلك فى مؤلفه (أقدم الصكوك والوثائق فى بنى البشر) ، وفى مؤلف ثان أسماه (روح شعر العبرانيين) .

ومن خير ما كتب (هردر) فى فلسفة التاريخ ، رسالته المعنونة (آراء فى فلسفة تاريخ الانسانية) ، وفى هذه الرسالة الشعرية الكثيرة الخيال يبين (هردر) التطور الحادث من علاقة الطبيعة بحياة الانسان ويكون مبدأ لفلسفة التاريخ ، ويضم إلى تلك الرسالة (خطاباته لرقى الانسانية) وواضح من عنوانها أنه يعمل إلى تربية وتهذيب الانسانية ، ويرى من الآراء أن الانسانية تميل للنشوء والارتقاء ، وهى قابلة للتطور الدائم ، وأن الغرض الأسمى لطبيعة الناس هو الانسانية ، وترى فى قوله هذا موضعاً للنظر .

ومن مؤلفاته فى النقد (التقاليد الشعرية) ، فانه بعد أن أوضح فضل شعر الفطرة على نظم الصنعة بواسطة النقد وحثه على حب أغانى الشعب ، تراه يخرج للناس مجموعة طيبة من

تلك الأغانى الشعبية لأمم شتى وعصور متباعدة ، كثيراً ما أعيد طبعها بعنوان (أصوات الشعوب فى الأغانى) وهو العنوان الذى تخيره لها ناشرها سنة ١٨٠٧ (الهر يوهان فون مولر بتوبنجن) . أما الاسم الذى كان قد تخيره لها (هردر) نفسه ، فهو (أغانى الشعب) ، وهو أول من أوجد هذا الاسم ، وفى هذه المجموعة تقرأ أغانى من بلاد اليونان ، وإيطاليا ، وفرنسا ، وانجلترا ، وأسبانيا ، وجرينلند ، ولابلاند ، وأيسلند ، وبيرو ، ومدغشقر ، بعضها مترجم عن تلك الشعوب والأمم ، وبعضها مقلد لما نظمته تلك الشعوب من أغان ؛ ومن ذلك ترى قدرة (هردر) العجيبة على أن يقول شعراً فى معناه ومبناه ، وما اشتمل عليه من آراء وأخيلة غريبة عنه مثل ما لتلك البلاد الكثيرة ، وتراه يتعمق فى فهم تلك الأغانى الأجنبية عنه بروحه اللطيفة .

ولما كانت السنة الأخيرة من عمره أخرج للناس آخر مؤلفاته ، نعنى به (السيد) ، وكان عبارة عن مجموعة من القصص الخيالية الاسبانية عن حياة وأعمال بطل من أبطال أسبانيا الوطنيين المسمى (رود ريجو دياز اذفونش كونت بيفار) المتوفى سنة ١٩٠٩ فى أيام الملك (الفونس) السادس ، وكان يعرف أيام حياته بالسيد الكمبيادور ، أو (شيخ المعسكر) ، أو السيد البطل ، كما عرفه بعض الأندلسيين بذلك ، وقد جمع تلك القصص الخيالية وجعل منها ملحمة فى أربعة أجزاء : السيد فى عهد (فرديناند) الكبير ثم فى عهد (شانخو) القوى ، ثم فى عهد اذفونش أو (الفونسو) الشجاع ، وأخيراً لما كان فى (بلنسية) وفى مماته ؛ وفى هذه الملحمة يظهر الشاعر فيها السيد مثالا لكل فضائل الفرسان ومثالا للشجاعة والتقوى ! ؟ والصراحة وحب الحرية رغم الزمن العصيب الذى ظهر فيه ، وهو الزمن الذى ما كان يعرف فيه غير الوحشية ، والقسوة ، والانتقام ، والتقتيل ، والعنف ؛ وقد نقل جل تلك القصص عن السيد من ترجمة فرنسية نثراً ولم تكن عن الأسبانية نفسها الأصيلة .

وكثيراً ما كان يهمل القافية فى قصائده التى نظمها من عنده ، وإن يكن لبابها كله حكمة وموعظة ، ولكنه كان لا ينظمها إلا بكيفية صعبة غير مفصلة ولا واضحة ، ولكن فضله الكبير تراه فى أقاصيصه ، وبذلك أعاد للأدب الألمانى ما كاد يعفو أثره .

ولم يكن (هردر) بالعبقرى الكبير الذى يأتى بشىء من عنده ويغرف من بحره ؛ فلا ترى له من المؤلفات العقلية الخالدة شيئاً ما ، ولكنه كان بفطرته شاعر تلك الطبيعة الفطرية التى كانت تجعله يشغل بكل جميل فيغرد بذكره شعراً ، وأن يجعل لذلك اللب والشكل ، وقد فتح الألباب ومهد السبيل لفهم الشعر الصحيح ، وكان يعمل ويجد فى مواضيع متعددة ، وكانت غاية الغايات لكل الأعمال فى رأيه إنما ترمى إلى تربية وتهذيب الانسانية ، وكان منقوشاً على خاتمه — كما رقم على قبره — ألفاظ ثلاثة : (النور ، الحب ، الحياة) ، وهى توضح توضيحاً شافياً مآربه فى الحياة ؟

على مظهر

أهمية المعتزلة فى التاريخ

بقلم الأستاذ على حسن عبد القادر

لم يحظ تاريخ الأديان والمذاهب عامة، وتاريخ الدين الاسلامى ومذاهبه خاصة، إلا بعدد قليل من الباحثين فى هذا البلد، مع أنه كان يجب أن يعتنى بخدمته أكثر من غيره، وخصوصاً عند علماء الدين الذين هم أمس به رحماً، وأقرب إليه وشيجة، وفوق ذلك فهو يجمع بين الفائدة فى الدين والعلم، فلا غرو أن يكون من أشرف العلوم وأوفرها لدى الباحثين لذة.

وقد أبلى فى هذا المؤرخون المتقدمون بلاء حسناً؛ وكان أول كتاب من هذا النوع هو كتاب «الآراء والديانات» الذى ألفه النوبختى، وقد استوعب فيه الكتب اليونانية التى كان قد نقلها إلى العربية[1]. وللمسعودى-صاحب مروج الذهب-كتابان مختلفان فى تاريخ الأديان، وقد ورد ذكرهما كثيراً فى كتبه[2]. وقد كتب المسبحى المتوفى (٤٢٠هـ — ١٠٢٩م) فى كتابه وصف الديانات والحضارات زهاء خمسمائة وثلاثة آلاف صفحة فى تاريخ الأديان وحدها، وقد قيل إنه بذل فى هذه الناحية وحدها أقصى جهده، وما وسعته نفسه من ذكاء وعلم. ثم جاء بعده أبو منصور البغدادى المتوفى (٤٢٢هـ — ١٠٣١م) وألف كتابه القيم فى ذلك. كما تلاه ابن حزم الأندلسى المتوفى (٤٦٥هـ — ١٠٦٤م) وكتب مؤلفه فى الملل والنحل، الذى جمع فيه صنوفاً من العلم والحكمة، على حين ألف البيرونى كتابه (تاريخ الهند) فوصف فيه أديان الهند وصفاً شافياً[3]. وكذلك الشهرستانى وصاحب كتاب البدء والتاريخ وغيرهم ممن ألفوا فى هذه الناحية تآليف جامعة، وأغنوا غناء مشكوراً.

وللغربيين فى العصر الحديث جهود حميدة فى هذا الصدد، ولهم فى الدين الاسلامى مؤلفات تشهد لهم بالعلم الجم، والتمحيص والبحث، الذى يدل على شغف وصبر فائق واطلاع واسع.

وإنه ليأخذك العجب والاعجاب لدى قراءتك أمثال ما كتبه: فون كريمر، وشتينر،

---

(١) المسعودى ج ١ ص ١٥٦، الفهرست ص ١٧٧ (٢) المسعودى ج ١ ص ٢٠٠

(٣) Meg, Die Renaissance, S 201.

وجولدزيهر ، وجرم ، وغيرهم من المستشرقين الذى عنوا بهذه الأبحاث ، ولا ينقص فضل هؤلاء العلماء بعض هنات لهم يتغاضى عنها كل ذى يقين سليم ، وفكر ثاقب .

وسأتناول هنا بعض أبحاث فى تاريخ المذاهب الاسلامية ، كنت قد أعددت بعضها لتكون نواة لعمل صالح فى هذا الموضوع ؛ وإنى أبدأ الآن بالكلام على فرقة من الفرق ذات الشأن الجليل فى الاسلام ، هى فرقة المعتزلة ، وقد أضعف أمرها وقلل من شأنها مايرميها به كثير من الناس من الزيغ والابتداع فى الدين ، مع أن الاعتزال يعتقد به كثير من أهل المذاهب الاسلامية ، حتى أهل الحديث الذين اعتاد الناس أن يحسبوهم من ألد أعداء المعتزلة .[1] وإنه لما ينبغى للمسلم تورعاً ألا يطلق لسانه بالضلالة فى أحد من المسلمين ماوجد إلى ذلك طريقاً ؛ ولعل خير مانهتدى به فى هذا الموقف هذا الحديث ، قال مسعر بن كدام : «ما أدركت من له عقل كعقل ابن مرة ، جاءه رجل فقال : عافاك الله جئتك مسترشداً ، إنى رجل دخلت فى جميع هذه الأهواء ، فما أدخل فى هوى منها إلا القرآن أدخلنى فيه ، ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجنى منه ، حتى بقيت ليس فى يدى شىء ، قال أرأيت هل اختلفوا فى أن محمداً رسول الله ، وأن ما أتى به من الله حق ؟ قال : لا ، قال : فهل اختلفوا فى القرآن أنه كتاب الله ؟ قال لا ، قال : فهل اختلفوا فى دين الله أنه الاسلام ؟ قال : لا ، قال : فهل اختلفوا فى الكعبة أنها القبلة ؛ قال لا . . . فذكر هذا وأشباهه ثم قرأ « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » قال : فهل تدرى ما المحكم ؟ قال : لا ، قال : المحكم ما اجتمعوا عليه والمتشابه ما اختلفوا فيه ، شد نيتك فى المحكم ، وإياك والخوض فى المتشابه ، فقال الرجل : الحمد لله الذى أرشدنى على يديك فوالله لقد قمت من عندك وإنى لحسن الحال » [2] .

والمعتزلة فرقة كلامية ، لاتعنى كثيراً ، بالفقه ، وعندهم أن كل مجتهد مصيب فى الفروع حسب ، واحتجوا بالذين أشكلت عليهم القبلة زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، كل قوم إلى جهة ، فلم يأمر من أخطأ بالاعادة ، بل جعله بمثابة من أصابها ، قال بعض العلماء : وهذه المقالة تعجبنى ، ألا ترى أن أصحاب النبى قد اختلفوا وجعل اختلافهم رحمة ، وقال : بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وقال سفيان بن عيينة : إن الله لا يعذب أحداً على ما اختلف فيه العلماء .

وترجع أهمية المعتزلة فى التاريخ إلى أن حركتها كانت الحركة الأولى فى سبيل التحرر من البدع والخرافات التى سيطرت على عقول العامة ، وكانت ترمى إلى التمسك بالدين الصحيح والآله الواحد العادل ، ولذا سموا أنفسهم «أهل العدل والتوحيد» ؛ يقول عنهم (جولد زيهر) :

---

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٣٩ ؛ (٢) أحسن التقاسيم ص ٣٦٥ .

« إنما لم نسمع من فم المعتزلة صوت المخالفة للدين ، ولكن سمعنا صوت الضمير المتدين الذى يناضل ضد كل مالا يليق بالله تعالى وعلاقته بعبيده »(١) ؛ وكانت تعاصر الدين الاسلامى فى هذا الوقت أديان أخرى ذات عقائد محررة على نظم فلسفية ، ولم تكن قد بحثت عقائد الاسلام إذ ذاك بحثاً منطقياً ، فقامت المعتزلة بهذا ، واستعانت بما استعان به أهل الأديان الأخرى من جدل منظم ، وفلسفة دقيقة ، وحصنت الدين بسياج من القوة أمام خصومه ، وفى ذلك يقول القائل :

ماملة فوق ظهر الأرض من ملل   إلا تهيب من تسآل معتزل
قوم إذا ناظروا صالوا بعلمهم   صول البزاة على الدراج والحجل
لله درهم فهماً ومعرفة   وفطنة بلطيف القول والجدل

فكانت المعتزلة بذلك أول من أدخل الفلسفة فى الدين الاسلامى ، وذلك بعد أن طالعوا كتب الفلسفة اليونانية ، وحاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة ، واستخدموا لذلك طريقة عرفت فيما بعد « بعلم الكلام » ، والتى هى بحق فلسفة الدين. يقول الاستاذ (شتينر): «إنه يمكننا أن نقول: إن المعتزلة كانوا هم أول من اطلع على الفلسفة اليونانية وأنشأوا بهذا العلوم النافعة ؛ وكان غرضهم من ذلك الانتفاع بالثقافة اليونانية ليضيفوها إلى الدين الاسلامى »(٢) ؛ وكان أهل السنة ينفرون من هذا العلم فى أول الأمر ، وينهون عن هذه الفلسفة ، إلى أن جاء أبو الحسن الأشعرى الذى تدرب فى مدارس المعتزلة ، وتسلح بأسلحتهم المنطقية التى أمدوه بها ، ثم فارقهم وواجههم بالخصومة ، وصرف حياته فى معارضتهم بكل نشاط وتوفيق ؛ وكان هو أول من استعمل طريقتهم فى البحث ، والمناظرة ، والاستدلال لنصرة مذهب أهل الحديث ، ومع ذلك لم يقدروا جهوده إلى وقت طويل ، وبقى عندهم معتزلياً ، ومن ذلك الحين سار أهل السنة فى هذا الطريق ، وتابعوا المعتزلة فى كلامهم ، وجاء المتأخرون وجدوا فى نصرة مذهب الأشعرى وقيادته ، على حين لم يجد المعتزلة قائداً لهم أو مجدداً فى مذهبهم ، ومن هنا كانت حركة المعتزلة أساس الفلسفة الاسلامية ، ولا بد فى دراسة هذه الفلسفة من معرفتها .

والمعتزلة كذلك هم الذين وسعوا علم أصول الفقه ، يظهر ذلك لمن تتبع تاريخ هذا العلم ؛ وكتب الأصول المتداولة مأخوذة من كتبهم، يقول صاحب « المنية والأمل » : إن أصل كتب المتأخرين كالامام الرازى وغيره، هو كتاب «المعتمد» الذى ألفه أبو الحسن البصرى المعتزلى المعاصر لابن سينا (٣) .

(١) Goldziher, Vorlesung uqer den Islam, 5. 96. (٢) Steiner, Mutazliten, S.5
(٣) أرنولد : طبقات المعتزلة للمرتضى ص ٧١

وكانت أهمية المعتزلة فى تفسير القرآن الكريم مقطوعة النظير ؛ فقد حدثنا الأشعرى أن أستاذه الجبائى المعتزلى له تفسير فى القرآن اعتمد فيه على ما ألهمه قلبه [١] ، وقد كتب على بن عيسى الرمانى المعتزلى المتوفى (٣٨٥هـ — ٩٩٥م) تفسيراً للقرآن ، وقد سئل الصاحب ابن عباد أن يفسر القرآن فقال : وهل ترك لنا على بن عيسى ما نكتبه ؟ [٢] كما كتب النقاش المعتزلى المتوفى ببغداد (٣٥١هـ — ٩٦٢م) تفسيره فى اثنتى عشرة ألف صفحة، وقد قال السيوطى : إن أبا بكر الأدفاوى كتبه فى عشرين ومائة جزءاً [٣] ، وفاق هؤلاء جميعاً عبد السلام القزوينى المعتزلى المتوفى (٤٨٣هـ — ١٠٩٠م) فقد فسر القرآن فى ثلثمائة مجلد ، وفسر الفاتحة وحدها فى سبعة مجلدات [٤]، وتتبين طريقتهم فى التفسير مما ذكره السيوطى من أن عبيد الله الأزدى المعتزلى (٣٨٧هـ — ٩٩٧م) ذكر فى تفسيره للقرآن مائة وعشرين رأياً فى معنى اسم الله (الرحمن الرحيم) ، ويكفى المعتزلة فخراً تفسير «الكشاف» للزمخشرى، وقد ذكره ابن خلدون فى موضوعين من مقدمته وأثنى عليه ورغب فى مطالعته ، هذا على حين كان العلماء يتورعون إذ ذاك عن تفسير القرآن .

وجملة القول أن هذه الفرقة هى أول فرقة عملت على أن يتسع نطاق علوم الدين بعد أن كانت تدور فى محيط ضيق ، فمهدت بذلك لازدهاء الاسلام وازدهار علومه الدينية .

وإن المذاهب الأربعة التى تسود العالم الاسلامى، قد نشأت فى أيام السيادة العلمية للمعتزلة، فأبو حنيفة (٨٠هـ — ١٥٠م) ، ومالك (٩٥ هـ — ١٧٩م)، والشافعى (١٥٠هـ — ٢٠٤م)، وابن حنبل (١٦٤هـ — ٢٤١م) ،قد أسسوا مذاهبهم أيام دولة المعتزلة ونهضتها،وهنا نذكر هذه الكلمات التى وصف بها الرحالة المقدسى المعتزلة من بين سائر المذاهب ، قال : « وقلما رأيت فقهاء أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ ينفكون من أربع: الرياسة، والحفظ ، والخشية ، والورع ؛ والمعتزلة من أربع : اللطافة ، والدراية ، والفسق ، والسخرية ؛ والشيعة من أربع : البغضة ، والفتنة ، واليسار ، والصيت ؛ وأصحاب الحديث من أربع : القدوة ، والهمة ، والاتفاق ، والغلبة . . . الخ » [٥] .

وبعد ، فهذه نواح للمعتزلة تدعو للتقدير والاعجاب بهذه الطائفة الممتازة ؛ ولكن لا يحملنا هذا الاعجاب على أن ننسى كثيراً من معايبهم ، فلا ننسى معاملتهم الخشنة لخصومهم

---

(١) Spitta, el Asari. S. 128 (٢) أرنولد : طبقات المعتزلة للمرتضى ص ٩٥ (٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٣ (٤) وقال السبكي: انه ألفه فى سبعمائة مجلد . طبقات ج ٣ ص ٢٣٠ (٥) أحسن التقاسيم ص ٤١ .

أيام قوتهم ، وقد سودت صحيفتهم محنتهم لأهل الحديث فى مسألة خلق القرآن ، كما أن هذه الفرقة قد انقسمت إلى طوائف متعددة اشتغلت بالسفسطة ، وابتعدت كثيراً عن تعاليم الاسلام ، وكانت لهم سخافات كثيرة يأباها العقل السليم ، وهم الذين خرجوا بالاسلام - دين الفطرة - عن السهولة والبساطة إلى التعقيد والتعمق ؛ يقول الأستاذ (شتينر) : « إن تاريخ الاسلام -كدين سماوى فطرى- ينتهى بمجىء المعتزلة أولا،وأهل السنة الذين تابعوهم آخراً »[١] ؛ نعم فانه منذ ذلك الحين الذى ثارت فيه هذه العجاجة الكلامية ، وفزعت فيه الأمة إلى أصحاب الفلسفة فى أمر دينها ، اختفت وراء ذلك آيات من الجمال والفطرة فى الدين ، وتوعرت سبله المتيسرة ، وبساطته الصافية . وأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشىء المأخوذ بالوحى النازل من الشىء المأخوذ بالرأى الزائل ؟

أما نشأة هذه الفرقة ونهضتها ، ثم كيف اضمحلت ، وغلب عليها مذهب السنة ، والجماعة فى العالم الاسلامى ؛ فهو ما سنعالجه فيما يأتى إن شاء الله تعالى ؟

على حسن عبد القادر

(١) Steiner, Mutaziliten, S. 92

من صور الحياة

ابراهيم باشـــــا..!!

معلم المدرسة

بقلم الاستاذ نقولا شكرى

لما أراد (ديكنز) سيد الروائيين الانجليز أن يخرج للناس آية الاعجاز فى فن القصص، اختار أن يؤلف من ذكريات صباه تلك اليتيمة التى أسماها « دافيد كوبرفيلد » ، وزاد على الاعجاز فى هذه الآية الفنية التى خلدته، أنه علم الناس كيف تكون عاقبة القسوة إذا تجاوزت فى التربية .

وكان بعث هذه الحقبة من حياته كلمة كبرى أصدرها إلى الأخلاف فى الحكم على طرائق التربية القديمة .

والواقع لو أن الانسان صالح بفطرته، لكان ـ حسب هذا الصلاح ـ يعد رأس حكمته ؛ ولكن منذ أن وجد رب الأسرة ، وكان راعياً يتوكأ على عصا طويلة ؛ كان المربى ـ وهو معلم المدرسة ـ يحمل هراوة يهدد بها تلاميذه ؛ ولما استعان القرن الثامن عشر بطرائق التربية القديمة وضع أساس حضارة جديدة ، وكانت قاعدة تلك التربية : المثل ، والقدوة .

أما الخط الذى حفرته الحضارة فى الأذهان : فهو أن الانسان قد ولد حراً ، وإذا كانت الحرية تكفل الاصلاح ، فلسنا إذاً فى حاجة إلى القصاص .

***

رسالتى إلى القراء تتلخص فى صورة حية تحفظها ذاكرتى منذ عهد الطفولة ، مذ كنت طفلا ارتع بين ربوع أنطاكية وكرومها ، وسيظل هذا الموطن حيا فى نفسى بذكريات الصبا المؤثرة .

صورة معلم المدرسة التى تلقيت فيها مبادىء المعرفة .

كان مثلا لرجال العهد القديم الذين نميزهم لأول وهلة باختلافهم عن سائر الناس فى الزى والنفس، ونعرفهم عادة سواء أ كانوا فى الشارع أو فى المجالس بلباسهم العتيق والطراز المشوش

الذى نشأوا عليه وألفوه ، لا يكاد يصالحهم النظر حتى يحسب الانسان أنه يتلمس من ادْرانهم أهداب العصر البائد .

كان «إبراهيم باشا» ـ وهذا اسمه ـ رجلا قد بلغ حدود الستين، أقرب إلى القصر منه إلى الطول ، شاب بدا على وجهه الاصفرار ، واستحوذت على ملامحه خشونة العصر السالف وصرامته،غليظ الشفتين ؛ وغلظ الشفتين صفة ينسبها الأخباريون الساكون إلى التبحر فى اللغة والبيان .

وما كان صاحبنا من البيانيين ، ولكنا عرفناه ملماً بالعربية والتركية ، وكان خطاطاً لطيف الصنعة ؛ وإجادة الخط كانت ـ لذلك العهد ـ ميزة شائقة، تكافىء عليها الحكومة وتعهد إلى أربابها بالوظائف ، من أجل ذلك صار « ابراهيم باشا » رئيس مدرسة أولية فى أنطاكية .

وأقوى ما تتصف به أنطاكية أنها محافظة شديدة التمسك بصبغتها القومية .

والمعلم «ابراهيم باشا» إلى قصر قامته ـ الذى يستدل به (بسيكولوجياً) على رباطة الجأش والهدوء ،وغلظ شفتيه اللتين تنمان عادة عن طيب القلب ـ عصبى المزاج، وقد يستغرب المزاج العصبى ، إذ ما بدا من شيخ حطم الستين من عمره ، وتهدلت أهداب عجزه وكبره ، وكان أولى بالصبر والسكينة ، ولكنه كان مع ذلك سريع الاحتياج إلى قوة صوته وامتداده حتى ليحسبه الانسان من صنف المغنين الأوربيين المعروفين بنغمة (السبرانو) لا تصدر عنه صيحة فى قاعة الدرس حتى يتردد صداها فى الطريق كأن الرجل قد تعود أن يمرن صوته على الصيحات ، كما يتفق لرجال العسكرية .

هذه صورته الطبيعية ؛ أما هيئته فقد كان « ابراهيم باشا » يرتدى بذلة عتيقة سوداء كأنها آخر أثر احتفظ به موظف من رجال العهد السالف،ولقد يدعى التأنق أحيانا فيضيف إلى مجموعة ذلك الثوب العتيق صديرياً ملوناً من نوع (الفانتيزى) فيستحوذ لون الصديرى العجيب على سائر أجزاء البذلة حتى يضاهى صديرى الأب (غوتييه) المشهور، الذى كان آية استغراب أهل عصره من (الرومانتيك) .

ولم يكن « ابراهيم باشا » مع ذلك صاحب مذهب فى التجديد ، أو خلق شاذ مستغرب حتى يتهم بتعمد الشذوذ فى هيئته ، إنما كان معلم المدرسة يعتقد أن ذلك الصديرى الملون الذى يطفح به صدره يزيد فى مهابته ويضيف إلى مقامه ـ فى نظر التلاميذ وأولياء أمورهم ـ شيئاً كثيراً من صبغة الرجال الرسميين .

وإلى تلك البذلة العتيقة وذلك الصديرى الفانتيزى كان « ابراهيم باشا » يعنى بنوع قديم من رباط الرقبة لا يدقق مطلقاً فى تهذيب وضعه ولا إصلاحه ، كان يجعله دائماً مائلا

إلى اليسار أو إلى اليمين حسبما يتفق ، وكان هذا الهندام المشوش لوناً خاصاً يعرف به معلم المدرسة فى المدينة ، رهو وإن لم يكن من الرجال الرسميين إلا أنه اكتسب هذه الصفة عند أهل المدينة بالنظر إلى احترام رجال العلم فى ذلك العهد الذى سادت فيه الفوضى والجهالة .

قلنا إن « إبراهيم باشا » كان خطاطا بارعا ، والاعتقاد السائد فى الشرق أن الخط من مفاتيح الرزق وأن « من علمنى حرفا كنت له عبداً » ، كذلك كان معلم المدرسة محترماً مبجلا فى كل مكان .

وكان المعلم « إبراهيم باشا » مرتلا فى الكنيسة ؛ وإن قداسة هذه الوظيفة لتكفى للاعلان عن صوته من جهة ، ومن جهة أخرى تدل على أن اتصال التعليم بالكنيسة لا يكون أحيانا بلا فائدة !

ونحن إذا شئنا أن نصور « إبراهيم باشا » فى قاعة الدراسة ، فانا نحتاج إلى مثل بلاغة (ديكنز) لكى نقرب إلى الأذهان حالة هذا المربى الذى كان لا يشرف على جمهور تلاميذه إلا قابضاً على عصا طويلة يبلغ بها آخر الصبية،ويستمع فى وقت واحد لمن هو أمامه،ويراقب حفظ من هو عن يمينه ، ويلكم من كان على يساره ، فلا تغيب عنه حركة تصدر عن صبى ، ولا يدع هذه الحركة دون قصاص ، وكان كمعلم المدرسة الذى وصفه (أوجين سو) الروائى الفرنسى فى قصة « أسرار باريس » ، بصرف النظر عن الفارق العظيم الذى يرفع « إبراهيم باشا » إلى طبقة المعلمين الذين ينشرون المعرفة مقدار ما يهبط إلى الحضيض بطبقة المعلمين الذين يبثون طرائق الاحتيال والإجرام، فقد كان معلم المدرسة الذى اختلق صورته الروائى الفرنسى الوحشى الطبع مثل(أوجين سو) يبث الرذيلة،ويعلم طائفة من المتشردين كيف يكون الاحتيال والسرقة ؛ على أن « إبراهيم باشا » وإن لم يبلغ فى مستوى الانحطاط هذا الحد الذى اختلقه الروائى الفرنسى،فقد كان ينتعل حذاءً من جلد آدمى مجفف،غير أنه كان بطبيعته ميالا إلى الجشع ، يفرض على تلاميذه ما لا يجوز فرضه من أساليب الربح ولطف الاحتيال على الرزق .

كان لا يقنع بما يؤديه إليه آباء التلاميذ من الهدايا ،وما يحبونه به من الهبات ابتغاء أن يعنى بتربية أولادهم . كان إذا جاء الشتاء فرض على كل صبى ألا يأتى إلى المدرسة دون أن يكون متأبطاً لحزمة كبيرة من الوقود ، فلا يزال الصبية كل صباح يكدسون هذه الحزم أمام باب المدرسة،حتى إذا لوحظ أن أحدهم خاليا منها صاح به معلم المدرسة الشيخ بلا رحمة وأرجعه إلى داره حتى لا يعود إلا متأبطاً حزمة الوقود ! وكلما اجتمعت هذه الأكداس أمر أن تحمل إلى داره ويبقى مطمئناً راضياً، كأن الدفء إذا حل داره اشترك فيه أولئك الصبية الصغار .

وكان المعلم « ابراهيم باشا » لا يعتمد فى معرفة الوقت على الساعات ، إنما كان يهتدى بظل الشمس ، ومن أجل ذلك كان عتيقاً فى طباعه ، وفى لباسه ، وفى ذهنه .

وقديماً جعل التاريخ معلمى الصبيان موضوع سخرية ؛ ولقد تميز معلم المدرسة بنقص خاص فى طبعه أو هندامه لا يكون فى أحد سواه ، وقد ظل هذا النقص كأنه عنوان تأبى الطبيعة إلا أن تهزأ به منهم وتسخر بهم !

كان « إبراهيم باشا » فى بعض الأيام يظل بلا غداء إلى الظهيرة ، فاذا ما انتشر الصبية فى فسحة المدرسة أثناء الفراغ ، واجتمعوا لتناول الطعام وقف ببذلته السوداء وصديريه الملون ، حاملا قطعة كبيرة من الخبز بلا أدم، ويظل يراقب بنظره ما يحمله الصبية من صنوف الطعام ، فلا يحجم عن أن يطلب من كل صبى قطعة من الجبن أو بعضاً من الفاكهة ، ويرى أن غداءه على حساب تلاميذه فرض كالحق المكتسب ، وكان كالعملاق الذى ذكرت الأساطير أنه كان يستخرج بيده السمكة حية من البحر ويشويها فى الشمس ثم يلتهمها .

قلنا : إنه كان لطيف الحيلة فى الحصول على الربح ، ونروى على سبيل المثال قصة اتفق حدوثها لمصلحة معلم المدرسة الشيخ؛ فقد حاول بعض الصبية أن يطعن رفيقه بمدية صغيرة ، فهال « إبراهيم باشا » هذا الحادث ، وأمر الصبية ألا يستعملوا المدى مطلقاً ، ولكنه شاء أن يجعل الحادث نفسه وسيلة لاستغلال الطلبة - كشأنه فى سائر المسائل - ففرض على كل صبى أن يدفع مبلغاً معيناً يمكن أن يتحصل من مجموعه على ثمن مدية تودع فى المدرسة لكى يستعملها الصبية ، وحتى لا تتاح لأحد منهم أية محاولة للأذى ، وما زال يجمع فى ثمن هذه المدية أسابيع طويلة ، دون أن يرى الطلبة - مع ذلك - أثراً لها ، وتارة يدعى أنها سرقت، وطوراً يؤكد أن فى نيته شراءها متى اجتمع لديه ثمنها ، ولقد حصل على ذلك الثمن مرة وأخرى ؛ وهو باق على استمساكه فى استعمال الحيلة لابتزاز نقود التلاميذ .

وليت طبيعة معلم المدرسة الشيخ قد انتهت عند هذا الحد ، فانه كان لا يترك فرصة دون أن يفرض على بعض الصبية - لأسباب واهية - عقوبات من نوع تسويد الخطوط على ورق ثقيل ، كان كلما تراكم لديه من ٤٠٠ أو ٦٠٠ قرطاس حمله إلى السوق لكى يبيعه إلى التجار ؛ وربما أخلى الصبى من عقوبة ثقيلة ، (كالفلق) مثلا ، وهو لا يربح من ورائها شيئا لكى يفرض عليه كتابة مسودات ، فكان الطلبة يؤدون هذه الواجبات مرغمين .

وكانت مدرسة « إبراهيم باشا » مع ذلك مشهورة بحسن السمعة ورقى التعليم ، وفى الحقيقة أن هيئة الرجل كانت تحمل ناظريه فى الظاهر على الاحترام .

ومن نوادره أن التلميذ كلما استطاع أن يكمل كتابا تعين عليه أن يؤدى إلى معلم المدرسة

هدية فاخرة مع المرتب ، وكان ذلك فرضاً محتماً ، نضرب لذلك مثلا كتاب (الأفتيخوس) الذى كان من أجل التآليف الدينية لدى معلم المدرسة ، فقد كنا لا نبلغ ختامه حتى نطالب بأداء مكافأة عظيمة كان ينبغى أن تؤدى إلينا لكى تحضنا على الحفظ ، إنما «إبراهيم باشا» يرى المكافأة من حقه لا من حق التلميذ ، ولا يستثنى ـ من القصاص بالفلق وبالعصا أو أداء المسودات ـ سوى التلاميذ الذين يحبرونه بالهدايا وأنواع الحلوى و (البقشيش) ، هذا إلى أن تعليمه لم يكن يتجاوز حفظ مختارات من ديوان ابن الفارض ومجانى الأدب ومجمع البحرين !!

لا ننكر أن «إبراهيم باشا» كان معلماً منزها عن لؤم المعلم الذى وصفه (شارلز ديكنز) فى روايته (دافيد كوبر فيلد) ، وبعيداً كل البعد ـ أيضا ـ عن خبث المعلمين فى العصر الحديث ، غير أن هذه الصفات التى لا نزال نذكرها له جعلت منه صورة صادقة لذلك الصنف من المعلمين الذين ذكرهم الجاحظ ، وكانوا موضوع سخرية عصرهم ، وستظل صورة «إبراهيم باشا» بالبذلة السوداء العتيقة والصديرى الملون ، وربطة الرقبة المنحرفة الطويلة ، رمزاً لعهد كانت فيه فريضة احترام المعلم إزاء الجهل السائد ، أشبه بغلالة كثيفة تختفى من ورائها أقبح العيوب ، ولكن من كان يستطيع أن يرفع بيده تلك الغلالة لكى يكتشف نقائص «إبراهيم باشا» ؟

أما أن ينكر الشرقى تعليمه الراسخ بعبوديته لمن علمه ، فهذا لعمرى كفران لم يكن فى طاقة الصبية ، فكيف يمكن أن يكون فى طاقة الكبار ؟

من أجل ذلك بقى «إبراهيم باشا» معلم مدرسة ، ومرتلا فى الكنيسة ، وخطاطاً ، وصاحب سيادة واسعة ، كبعض المعلمين القدماء الذين كان يدين لهم تلاميذهم بالحياة .

نقولا شكرى

أيها المشـــــترك !!

إن «المعرفة» تفخر كل الفخر ، بأنها مجلة المثقفين والعظماء ، وبأن مشتركيها من خاصة العلماء والأدباء فى جميع أنحاء الشرق العربى .

لذلك يهمها أن تحافظ على سمعتهم الأدبية من اتهامهم بعدم تقدير المشاق الصحفية ، وما نبذل فى سبيل «المعرفة» من مال وجهد .

فهل أديت واجبك نحوها ؟ وهل سددت اشتراكك ؟ تذكر قليلا ، وتفضل مشكوراً بتسديد ما عليك إن لم تكن سددته .

٤ ــ اليابان ونظمها التعليمية*

بقلم الدكتور سيدراس مسعود نواب مسعود جنك بهادر
وزير معارف حيدر آباد سابقاً ونائب رئيس جامعة عليكرة حالا

تعريب الاستاذ احسان سامى حقى

أستاذ الادب العربى بجامعة عليكرة بالهند

[خاصة لمجلة المعرفة]

ذكرنا فى العدد الفائت القانون الأساسى لليابان ، ويلاحظ أنه يمتاز عن غيره أو يختص ببعض الأمور ، التى لا توجد فى غيره من قوانين الحكومات الدستورية الأخرى ، وذلك لأسباب كثيرة تتضح من الاعلان الذى كان قد أذاعه ولى العهد (إيتو) ـ واضع هذا الدستور ـ حيث يقول ما أنقله باختصار :

« أمرنى ولى النعمة بوضع مسودة للدستور اليابانى ، فتلقيت أمره ورحلت فى نفس الشهر من اليابان قاصداً أوربا لدرس قوانينها، ومكثت هناك متنقلا من مملكة إلى أخرى نحو سنة ونصف سنة لم أبرح فيها عاكفاً على المطالعة والمحادثة والبحث والفحص بكل إمعان فيما يتعلق بذلك، حتى وفقت لهذا الدستور الذى أضعه الآن بين يدى الشعب اليابانى النشيط ، ولكن لم أكن ـ فى أخذى القانون عن الأوربيين ـ ناقلا مقلداً ، بل إننى اخترت منه ما يتفق وبلادى وطبائع أهلها وعوائدهم وغير ذلك، مثل: عقيدة اليابان فى السلطان، التى كانت لديهم جزءاً لا يتجزأ من المذهب ، ولذلك كان لا بد لنا من مراعاة ذلك ، وعدم تقييد الاختيارات السلطانية بقيود تحد من قوته وسلطانه فى المستقبل ، بحيث يصبح السلطان عبارة عن صنم لا حراك به ، ومع ذلك لم نتغافل عن حفظ حرية الرعية ومالها وحياتها ... الخ » .

كل ما سعى له (إيتو) فى هذا الدستور، هو أن جعل السلطان ـ لا الشعب ـ المرجع الأساسى والحاكم الأعلى فى المملكة ، حيث إنه لم يسمح للمجلس بدرس المصروفات السلطانية إلا إذا كانت هناك ضرورة لزيادتها ، كما أنه جعل الرأى فى عقد الصلح وأمر الحرب للسلطان وحده ، إلى غير ذلك من الأمور التى لا تتفق والدستور .

هذا مختصر جداً من مطول ترجمته من كتاب الدكتور سيدراس مسعود فيما يتعلق بالأمور العامة اليابانية ، وها أنذا أذكر شيئاً عن التعليم فى اليابان .

---

* راجع «المعرفة» : السنة الثانية أعداد سبتمبر و نوفمبر وديسمبر ١٩٣٢ .

التعليم فى اليابان

كان اليابانيون يقسمون ـ فى عهد الحكومة الطائفية ـ أربعة أقسام ودرجات : (١) طبقة الأمراء ، ومنها السمورائيون أيضاً ، (٢) الزراع ، (٣) أصحاب الحرف ، (٤) التجار ؛ وقد كان العلم فى تلك الأيام محصوراً فى طبقة السمورائيين، لأنهم كانوا لا يرون ميزة للعلم إلا أن يكونوا حكاماً ، وحيث إنه كان لا يحق لفرد من أفراد الطبقات الثلاث الأخرى تولية الحكم ، لذلك لم تكن لهم مدارس ؛ ثم بعد مدة طويلة أخذ الأمراء أيضاً يعلمون أولادهم بأن أسسوا لهم مدارس خصوصية ، وبقيت الحال كذلك زمناً طويلا ، حتى استيقظ اليابانيون أخيراً ، وعرفوا النور من الظلام ، وتساوت طبقاتهم ، وصار العلم مشاعاً لكل فرد من الأفراد ، وانكب اليابانيون بعد ذلك على الاجتهاد كما ذكرت آنفاً .

أما نظام المعارف فى اليابان فهو :

للمعارف وزير ونائب ـ كما هى الحال فى غير المعارف ـ من الشعب ، وهذا النائب لا يؤثر فيه عزل الوزير أو استعفاؤه أو سقوط الوزارة ، بل هو كباقى الموظفين ، والوزير هو المسئول عن كل ما يتعلق بأمر المعارف ، ويلحق الوزارة ـ مباشرة ـ ست دوائر هى :

(١) دائرة التعليم العالى ، (٢) دائرة التعليم العام ، (٣) دائرة تعليم الصناعة ، (٤) دائرة الكتب المدرسية ، (٥) دائرة الأمور المذهبية ، (٦) لجنة المعارف العليا . وعدا هذه الدوائر فان هناك أيضاً عشرين موظفاً يرتبطون بالوزارة مباشرة ، وتحت كل دائرة من هذه الدوائر الست عدة شعب ، هى كما يلى :

دائرة التعليم العالى ، ولها ثلاث شعب :

١ ــ الشعبة التى تنظر فى أمور الجامعات الرسمية ، وتمنح الشهادات ، وتدير نظام الكليات ، وتعين وتعزل الأساتذة ، وتبعث الأساتذة وغيرهم إلى الخارج للتعلم والتحقيقات العلمية ، وتبنى المراصد وغيرها مما يتعلق بالأمور الفلكية .

٢ ــ الشعبة التى تنظر فى أمور الجامعات الأهلية ـ عدا دور الصناعة ـ وإليها يعود تنظيم أمر المعارض الصناعية .

٣ ــ الشعبة التى تمتحن الأطباء وأطباء الأسنان والصيدليين، وإليها يعود أمر التحقيقات العلمية ، ومسح الأراضى ، والزلازل وغير ذلك .

وتحت دائرة التعليم العام أربع شعب :

١ ــ الشعبة التى تنظر فى أمور المدارس الابتدائية ، وكل ما يتعلق بها من أمور معلميها وغير ذلك .

٢ ــ الشعبة المكلفة بأمور المدارس الوسطى للذكور والاناث جميعها .

٣ ــ الشعبة المنوط بها أمر النظر فى الأموال التى تدفع من الخزانة السلطانيــة للتعليم الابتدائى ، ويتعلق بها أيضاً كل الأمور التى لا تعود إلى دائرة من الدوائر .

٤ ــ الشعبة المكلفة بالنظر فى أمور المعاشرة المتعلقة بالتعليم،وكذلك إلقاء المحاضرات أمام عامة الشعب ، وتأسيس دور الكتب ، وتعليم الخرس والعميان والصم .

وتحت دائرة تعليم الصناعة أربع شعب ايضا :

١ ــ افتتاح المدارس والكليات لتعليم الصناعة وإدارتها .

٢ ــ افتتاح المدارس الزراعية والكليات وتعليم أصول الرى وإدارته .

٣ ــ افتتاح المدارس والكليات التجارية والبحرية وإدارة أمورها .

٤ ــ افتتاح المدارس المتسلسلة (ولم أفهم ما هى هذه المدارس) .

وتحت دائرة الكتب المدرسية شعبتان :

١ ــ من واجباتها تأليف الكتب المدرسية ، وتعليم اللغة اليابانية .

٢ ــ نشر ونقد الكتب المدرسية .

وتحت دائرة الأمور المذهبية شعبتان أيضاً :

١ ــ دائرة حفظ أوقاف البِيَع والمعابد وغيرها من الأبنية المذهبية ، ومراقبة علماء الأديان والجمعيات الدينية .

وتحت دائرة لجنة المعارف العليا خمس شعب :

١ ــ من واجباتها توزيع صور السلطان على المدارس المختلفة ، وتعيين الموظفين ، وتحديد رواتبهم ، وخاتم الوزير يكون فى هذه الدائرة .

٢ ــ من واجباتها استلام التحارير والاجابة عليها ، ووضع جداول الاحصائيات .

٣ ــ من واجباتها كل ما يتعلق بالأمور المالية ، والميزانية ، ودفع الرواتب ، ووضع الميزانية ، وإدارة كل العقارات التى هى ملك لدائرة المعارف.

٤ ــ شعبة التعميرات والترميمات .

٥ ــ من واجباتها اتخاذ الوسائل المناسبة فيما يتعلق بحفظ الصحة فى المدارس ، وتعيين الأطباء لها ، وتنظيم الألعاب الرياضية .

وأما العشرون موظفاً الذين ذكرتهم آنفاً ، فهم يقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ ــ المكلفون بتفتيش الكليات العليا ، والكليات الصناعية ، ودار المعلمين العليا ، وكليات الطب .

٢ ــ المكلفون بتفتيش مدارس : الصناعة ، والزراعة ، والتجارة ، والمدارس البحرية، ومدارس الرى .

٣ — المكلفون بتفتيش المدارس العامة — ذكوراً وإناثاً — ، والمدارس العليا ، ومدارس المعلمين وغير ذلك .

ومن واجبات هؤلاء المفتشين — عند تفتيشهم المدارس — أن يبحثوا حالة البلدان العلمية التى ذهبوا إليها ، وأن يلاحظوا طرق التعليم ، وهل هى مناسبة أم لا ؟ وأن ينظروا إلى ميزانية المدارس مع ملاحظة أموال المعلمين ، وهل هم قائمون بواجباتهم ام لا ؟ كما أن من واجباتهم أن يكتبوا فى مذكراتهم كل ما يرونه لازماً لترقية التعليم ونشر العلم ، ثم يعرضوه شفاهاً وكتابة على الوزير عند عودتهم ، وكل ما يستحسنه الوزير فى هذا الشأن يوعز به إلى حاكم تلك الولاية .

وهناك أيضاً مجلس استشارى للمعارف تعرض عليه كل الآراء التى تتطلب فحصاً وإمعاناً ، فيبدى فيها رأيه ؛ ومع أنه ليس على الوزير أن يلبى كل ما يقرره المجلس ، فانه لا يعاكسهم أيضاً .

تقسم المدارس فى اليابان إلى ثلاثة أقسام . الأول مدارس الحكومة المرتبطة بوزارة المعارف ، والثانى مدارس الحكومة التى يديرها مركز حكومة الولاية أو المتصرفية أو القضاء . . . الخ ، وهى تقوم بمصاريفها ؛ وأكثر هذه المدارس ابتدائية أو متوسطة ، والثالث المدارس الخصوصية ، وهى إما أن تكون لشخص بعينه أو أنها تحت إدارة لجنة ؛ على أن جميع هذه المدارس يخضع لوزارة المعارف إما مباشرة ، أو بطريق غير مباشرة ، لأنه لا يمكن إقامة مدرسة قط إلا بإذن من وزارة المعارف ، ويكون ذلك بعد ان تعلم الوزارة غرض المدرسة الذى ترمى إليه ، والعلوم أو الفنون التى يرغب فى تدريسها ، ومعرفة دخلها ومصاريفها ، والمكان الذى تقام فيه بناية المدرسة ، وغير ذلك مفصلا ؛ ولا بد من تقديم شهادة من معمل كيميائى تثبت أن ماء تلك الأرض التى يرغب فى إقامة بناية للمدرسة فيها صالح للاستعمال ، وذلك لأن الحكومة تعنى جد العناية بحفظ الصحة ، ومن ذلك أيضاً أنه يخصص لجلوس كل تلميذ فى المدارس الثانوية ١٢٠ قدماً مربعاً ليكون الهواء نقياً دائماً .

علاوة على ما ذكرته عن المفتشين المرتبطين بالوزارة رأساً ، فان لكل ولاية خمسة مفتشين يختصون بها ، وهؤلاء مسئولون كل المسئولية ، كل واحد منهم عن قسم خاص فى ولايته أو متصرفيته أو قضائه أو غير ذلك ؛ وفوق هذا الاعتناء بأمر التعليم ، فان المديرين لا يدرسون شيئاً ، بل كل ما لهم من الأعمال هو إدارة المدرسة او الكلية التى هى تحت إدارتهم ، مع السعى لترقيتها داثماً ؛ وكل الأساتذة يكون عزلهم وتعيينهم بيد المدير بعد موافقة الوزارة ، وذلك لكى يكون المدير مؤاخذاً على كل تقصير يحدث فى مدرسته ، إذ

لا يتركون له عذراً يعتذر به ، ولذلك فقد بلغ انتشار العلم فى اليابان درجة واسعة جداً ، حتى إنه فى قرية لا يزيد سكانها على ٤٢ نسمة أقامت الحكومة مدرسة ابتدائية .

ومما يجدر ذكره أن اليابان قد فاقت كثيراً من الدول بأمر واحد : هو أن كل مدارسها أو أكثرها يكون ملكاً لدائرة المعارف .

وأمام كل مدرسة بستان تستفيد المدرسة من محصولاته التى يصرف إيرادها دائماً فى صيانة وإصلاح وترميم المدرسة ؛ أما الاعتناء بأمر المعلمين ورواتبهم فقد بلغ الحد الأقصى ، ولذلك ترى المعلمين هناك لا شاغل لهم يشغلهم عن دراستهم ، ولا أمر يفتكرون فيه حتى ولا فى دورهم ومجالسهم ومنتدياتهم إلا أمر مدارسهم والسعى لترقيتها ؛ وأما ما تبذله الحكومة على المعارف فهو أيضاً جدير بالتقدير والالتفات إليه ، ومن ذلك أنقل هنا حالة ولاية واحدة يستدل بها على باقى الولايات ، لأنها كلها تحت قانون واحد ، وهذه الولاية هى (كانا كاوا) التى تبلغ مساحتها نحو ٩٧٠ ميلا مربعا ، وعدد سكانها نحو ١ر٣٢٣ر٣٧٢ نسمة ، وتبلغ وارداتها السنوية نحو ٩ر٧٥٥ر٥٠٠ يناً [1] ، يصرف منها ١ر٧٦٥ر٨٩٧ يناً - أى نحو الثمن - على المعارف وحدها ، والباقى على الدوائر جميعها ، بما فيها من كبير وصغير ، وإصلاحات وتعميرات وغير ذلك .

ويوجد فى هذه الولاية ٦٦٦ مدرسة ، منها ٢٨ روضة للأطفال ، و ٣٠٢ مدارس ابتدائية ، و ٤ مدارس للعميان ، و ٤٧ مدرسة متفرقة يعلم فيها الطبخ والحياكة والتدبير المنزلى ، ومدرسة واحدة للمعلمين ، ومدرسة واحدة للمعلمات ، و ٨ مدارس عالية ، و ٨ مدارس صناعية ، و ٣ مدارس غير معترف بها من قبل الحكومة ، وهى مدرسة تبشيرية ، ومدرسة تجارية ، ومدرسة أهلية ، ومدرستان عاليتان للاناث ، ومدرستان أهليتان ابتدائيتان ، ومدرسة عالية صناعية .

وترسل وزارة المعارف فى كل سنة - مرة واحدة - مفتشيها إلى الولايات المختلفة للأمور الآتية :

١ — النظر فى حالة التعليم وكيفية ترقيته ، وعلى كل مفتش أن يرسل تقريره إلى الوزير رأساً .

٢ — توزيع وتصحيح الأحكام السلطانية التى يجب اتباعها فى الولايات .

٣ — الايعاز إلى حكام الولايات بما تقتضيه الحال لترقية المعارف .

(١) الين عبارة عن عشرة قروش مصرية .

[البقية على الصفحة رقم ١١٠٠]

قوة الحيوية فى الشعب المصرى

بقلم الاستاذ أحمد محمد فهمى
مدرس بمدرسة الزراعة العليا

مصر بلاد قديمة العهد ، عريقة فى المجد ، متناهية فى القدم ، تحوم حول اسمها خيالات الماضى البعيد ، ويذكر معها إذا ماذكرت أساطير غاية فى العجب ، يدور محورها حول عرائس النيل ، وهيا كل أمون ، وقصر لابيرانتا ، وأبى الهول ، الهازىء بالعالم ، الساكت السكوت الأبدى ، الرابض أمام أهرام خوفو ، والآلهة المعبودة ، والملوك المتوجة ، والكهنة الكبار ، والمعابد المشيدة :

فلكل لبنة حجرة فيها حديث يذكر

وهى لشهرتها القديمة كانت ولا تزال مطمع الفاتحين ، والغزاة من جميع الأمم ، والشعوب ؛ غزاها الرعاة ، والنوب ، والفرس ، واليونان ، والرومان ، والعرب ، والترك ، والفرنسيس ، والانجليز ، وغيرهم ، وملكوها فدانت لحكمهم ، ورضخت لظلمهم ، وصبرت على طغيانهم ، ولكنها لم تفن فيهم ، ولم تفقد يوما حيويتها رغم رغبة الفاتحين الملحة ، وعملهم المتواصل لهذه الغاية ، فحافظت مصر بقوة حيويتها على كيانها رغم هذه المظالم الصارخة ، والاحن المتتالية ، والمصائب التى كانت تصب عليها من كل هؤلاء الفاتحين الطامعين فيها المتكالبين على امتلاكها .

تأمل الموميات المصرية جيداً ، وقارن بينها وبين ملامح الفلاح المصرى تجد سحنة واحدة ، وشبهاً قريباً ؛ حقاً لقد بقى هذا الفلاح القديم بقاء الأهرام ، محراثه هو محراثه ، وفأسه هى فأسه لم تتغير ، ولم تتبدل ؛ بقيت على الأيام وداعته ، وكرمه ، ولينه ، وسذاجته ، ودهاؤه ، وملقه ، وتلك والله هى الحيوية العظيمة التى صمدت لمعاول الهدم كل هذا الزمن المتناهى فى القدم .

وقف الشعب المصرى فى جميع أدوار التاريخ وقفة المتفرج أمام خشبة المسرح ، يرى الدول تدول ، والمماليك تزول ، والعروش تتقوض ، وهو ثابت كالطود ، أصله ثابت وفرعه فى السماء ، مثلت أمامه كل مآسى الحياة ، ومهازلها وهو ثابت لم يتغير .

قوية جداً تلك الحيوية التى أمكنها البقاء آلاف السنين فى شعب مغلوب على أمره ، محكوم بغيره ، مسلوب الحرية ، غارق فى بحار الجهل ، متسكع فى دياجير الظلام .

هذه الحيوية كامنة فى جسم الشعب المصرى كمون النار فى الصوان ، فهل من زناد تنقدح به هذه النار الخابية ، فتشتعل هذه الحيوية العتيدة المخبوءة بين جوانح هذا الشعب النبيل ؟

حقاً إن إذكاء تلك النار المختبئة تحت رماد الجهل وظلمات الظلم ، لهو أشرف الأعمال التى يجب علينا الالتفات إليها ، وعدم التفريط فيها ؛ بل يجب إشعالها بشدة حتى تصهر بحرارتها كل الشوائب التى علقت بهذا الشعب المسكين فى آلاف الحقب التى مرت به ، وحتى تحرق بلهبها كل الأوهام التى تسلطت عليه ، والخزعبلات التى لحقت به فى حياته الطويلة التى لا يعرف لها التاريخ بدءاً .

هلموا أيها الشباب الناهض ، ويا أيها الرجال المثقفون ، إلى مد أيديكم لهذا الشعب المملوء حياة ، أرشدوه إلى الصراط السوى ، والطريق المستقيم ، نقوا الأشواك من طريقه ، ومهدوا له السبيل لتدارك مافات ، ساعدوه على السير وراءكم فى طريق المدنية ، ادفعوه فى مقدمة مواكب الشعوب السائرة إلى الأمام ، اعملوا جهدكم على إزالة الوصمة المخجلة من جبين هذا الشعب المجيد ، وصمة عدم عرفانه بنفسه ، وإجلاله لقدره

فمن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

أليس من المخجل حقاً أن تدخل متحف الآثار المصرية ـ سيد متاحف الدنيا وفخرها ـ فلا تجد النظارة فيه غير الأجانب القاطنين بين أظهرنا ، وغير السائحين الذين دعاهم سحر مصر القديمة ، فلبوا من كل صوب يهرعون ، هؤلاء الذين يعتقدون أن من شرب من ماء النيل لابد أن يعود إليه يوما من الأيام .

أليس مما يخجلنا أن نذهب إلى أهرام الجيزة ، فلا نرى غير من ذكرنا من الأجانب يتأملون صنع أجدادنا خاشعين مسلوبى العقول أمام هذه الجلالة وتلك العظمة ، فإذا أنت تفتقدت أشبال هؤلاء العظام ، فلا تجد منهم أحداً ، أحلف صادقاً غير حانث أن تسعة أعشار سكان مدينة القاهرة ، وسكان جيزة الفسطاط ، لم ير أحد منهم أهرام الجيزة عن كثب ، ولا وقف أمام أبى الهول الأفطس ، المصغى لصوت الطبيعة ، الناظر لمطلع الشمس . علموهم بكل طرائق العلم وضروب المعرفة ، أن لهم ماضياً حافلا بالعظائم مملوءاً بالجلال والجمال والفن .

بذلك تتنبه فيهم تلك الحيوية الكامنة التى ذكرناها فى أول هذا المقال ، فإذا هى تنبهت فيهم ، فإنهم لابد عاملون على إعادة هذا المجد القديم ، الذى نسمع كل يوم فى أوربا من يشيد بذكره من العلماء والباحثين ؛ فيوما نسمع أن مدققاً إنجليزيا من علماء الآثار أثبت أن مصر قد احتلت بلاد الانجليز فى الزمن القديم ، وتركت فيها آثاراً تدل عليها ، لأنه اكتشف هناك أثراً من آثار الفن المصرى القديم .

ونسمع يوما أن عالماً أمريكياً أثبت أن المصريين قد اكتشفوا الدنيا الجديدة (أمريكا) قبل أن تراها عينا (كولومبس) بآلاف السنين، وآخر يقول: إن المصريين كانوا يعرفون الكهرباء، ويستعملونها فى الصناعات المعدنية بأحذق مما هى مستعملة اليوم.

قولوا لهم ذلك، وانشروه فى جميع الطبقات، قولوه لهم، وقولوا لهم غيره مما تعرفون، حثوهم على مشاهدة آثار أجدادهم، تقو الحيوية الكامنة فيهم.

قولوا ذلك لأبنائكم وبناتكم، ولقنوه نساءكم، انشروه فى مجلاتكم وفى جرائدكم، واعقدوا له الفصول فى كتبكم، أعلنوا عنه بجميع وسائل الاعلان، فنحن أحوج للاعلان عن مصر فى مصر نفسها، وليس فى أوربا وأمريكا، فتعرف الأمة الغارقة فى بحار الأمية الجاهلة بماضيها وحاضرها، أن لها مفاخر ليست لغيرها من أمم الأرض، فتعتز بنفسها، وتشيع فيها فكرة الكبرياء الوطنى، والأنانية القومية — التى تكلمنا علنها فى عدد نوفمبر من «المعرفة» — فتتنبه فيها فضيلة الفخر والحماسة، وتقوى حيويتها الكامنة التى لم تفارقها والتى لازمتها رغم ما رأت من الأهوال، وما كابدت من المصائب من فجر التاريخ حتى الآن.

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ؟

أحمد محمد فهمى

اليابان ونظمها التعليمية

[بقية المنشور على الصفحة رقم ١٠٩٧]

٤ — مع كل ما خولته الحكومة للمفتشين من الحقوق فقد احتفظت بحق عزل المعلمين أو توليتهم، إذ لا يمكن ذلك إلا بإذن الوزير وعلمه.

ويلاحظ أن اليابانيين لم يلتفتوا إلى العلم فقط، بل أعطوا الفنون جميعها ما تستحقه من القدر، وفتحوا لها المدارس الكبيرة وأعدوها بكل ما تحتاج إليه من الضروريات، لا بل من الكماليات؛ وهكذا فان كل يابانى يرى أن نجاح بلاده يتوقف على ثلاثة أشياء: الأول نشر العلم وتعميمه، والثانى تعزيز القوى البحرية والبرية، والثالث تنمية التجارة والزراعة.

فاليابانيون إذاً لم يأخذوا بأمر واحد من الأمور الحيوية، بل علموا سر الحياة وضرورياتها، فأخذوا بناصيتها؛ وذللوا باجتهادهم كل صعب فى سبيل العز والشرف والحياة السعيدة، وهكذا يكون شأن من يليق بالحياة وتليق الحياة به . ؟

[عليكرة الهند] إحسان سامى حقى

٢ - ذكريات من ايطاليا*

بقلم الأستاذ زكى محمد حسن
عضو بعثة الآثار الاسلامية بالسربون بباريس

سيراكيوز - نابلى - بركان فيزوف - بومبى - روما

ولدينا فى مصر مثل هذه الحفريات الأثرية : أهمها ما بدأها المرحوم «على بهجت بك» لكشف عن الفسطاط (العاصمة العربية الأولى للديار المصرية) ؛ ولا تزال دار الآثار العربية تواصل أعمال الحفر باشراف مديرها الحالى المسيو (فييت) ؛ ومنها أيضاً ما تقوم به جماعة (The Egyptian Exploration Fund) لكشف تل العمارنة عاصمة مصر فى عهد الملك (اخناتون).

وأطلال (بومبى) - رغم ما تبعثه فى النفوس من رهبة وما تثيره من ذكريات التاريخ ، واحترام لجلال الموت وعظمة الحياة التى طغى عليها البركان فوضع لنغماتها حداً - أقول رغم كل ذلك فانها تشهد بالمهارة والدقة والمثابرة لمن قام من العلماء بهذه الحفريات ؛ فان السائح يسير فى شوارع كاملة بين صفوف من المنازل ، كثير منها باقيــة أكثر معالمه ، حتى النقوش على جدران المنازل باق أكثرها يشهد بعظمة الرومان وعلو مدنيتهم ، فتــارة يرى السائح سوق المدينة وحماماتها ، وأخرى أقواس النصر المختلفة ، وأحياناً منازل لم تعبث بهــا يد الزمن فكأنها تصلح للسكنى ؛ وكأن القوم يريدون أن تبقى - مما حدث - ذكرى حية ، فتراهم فى حجرة صغيرة أحاطوا جانبيها بالزجاج وقد تركوا بقايا أسرة دهمها البركان فجمعها فى الموت ، وكأن عظامهــا ترغم السائح أن يرفع الرأس ليرى (فيزوف) ويعجب : هل خمدت ثائرته ، أم لا زال يضمر للإنسانية ما يضمر ؟

انتهت زيارتى من (بومبى) ، وقفلت راجعاً فى القطار ، ولكنى تركته فى محطة عنــد منتصف المسافة إلى (نابولى) ، ومن هذه المحطة يبدأ الترام الذى يصعد على سفوح المرتفعات حتى يصل إلى قمة البركان ، وقد بدا لى ثمن التــذكرة باهظاً للذهاب والإياب وقدره نحو سبعين قرشاً ؛ ولكنى وجدت - بعد ذلك - أن المسافة طويلة والرحلة غاية فى الإبداع ، إذ بدأ الترام يصعد بنا سفوح المرتفعات فى منتصف الساعة الثالثة ،وظل يدور بنا حولها مرتفعاً شيئاً فشيئاً ، وعلى جانبينا مسافات ممتدة من الكروم تغطى الجزء الأدنى من سفوح هــذه

---

* بقية ما نشر فى عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ من « المعرفة » .

المرتفعات ، وفى منتصف المسافة تركنا هـذا الترام إلى غيره من نوع آخر (Funicolare) ظل يصعد بنا صعوداً أفقياً مباشراً ، حتى وصلنا نهاية الرحلة فى منتصف الساعة الرابعة؛ وكان المنظر جميلا رائعاً ؛ فتحت أقدامنا (نابولى) وضواحيها تطل على بحر يغيب فى الأفق ؛ ويعلوها طبقات اللافا والرماد ، وقد بقيت عارية فى الجزء المباشر للبركان ، وغطتها الكروم فى الجزء الذى يقرب من المساكن والمزارع ؛ وإذا أولينا المدينة والبحر ظهورنا ، ظهرت أمامنا فوهة البركان الحالية ؛ إذ أننا نعلو فوهته القديمة ؛ وهى أكثر ارتفاعاً من الفوهة الحالية التى تخرج منها سحب من الدخان تتوج البركان وتزيده عظمة على عظمة ؛ والقوم لا يقفون عند هذا الحد ، بل هناك أدلاء مخصوصون يستطيعون أن يصطحبوا من يريد من السواح فيهبطوا به من الناحية الأخرى إلى موضع أقرب إلى الفوهة الحالية ، كل ذلك لقاء نحو خمسة وعشرين قرشاً ، فدفعنى حب الاستطلاع إلى الإقدام على ذلك، ولكنى لم أستطع أن أواصل السير إلى النهاية ، لأن رائحة المقذوفات البركانيـة كادت تخنقنى تماماً ، فطلبت الرجوع ، بينما واصل السير مع دليل آخر شاب ألمانى ، غير أنه لم يستطع إلا أن يرجع بعد خطوات أخرى .

وكنا فى رحلتنا هذه ثمانية : شابين ألمانيين ، وانجليزى ، وسيدتين انجليزيتين ، وهولندى ، وأنا ؛ وكان الجو رطباً بارداً ، ولا غرابة فى ذلك ، إذ كنا على بعد ١٢٠٠ متر من سطح البحر .

وهكذا انتهت زيارتى لـ (نابولى) وتركتها إلى (روما) ؛ فكان القطار ينهب بنا الأرض بين جبال عالية ، وسهول تكسوها الخضرة والكروم، ونُفق كثيرة يجتازها بين حين وآخر ليعبر هذه الجبال ؛ وذكرنى منظر الريف الايطالى بقرانا فى مصر وما عليه فلاحونا من بؤس وشقاء ، ، ولم يسعنى حين ذلك إلا أن أذكر ما عليه القرى فى انجلترا وفرنسا وسويسرا من جمال يحبب إلى المرء ترك المدن وضوضائها .

وأخيراً وصلنا (روما Caput Mundi) أو (عاصمة الدنيا) ـ كما كان يسميها الرومان ـ وهى وإن تكن فقدت مركزها هذا من وجوه عدة ، إلا أنها لا تزال ـ بحق ـ سيدة عواصم العالم بآثارها القديمة ، بل إنها تجمع عاهلين : عاهل التليان ، وعاهل المسيحية ، غير أننا إذا استثنينا غناها بكنوزها الأثرية ، فان (روما) لا تساوى عواصم الدول الكبرى جمالا وتنسيقاً ، ولذا منذ أن دخلتها جيوش الملك ـ بعد تمام الوحدة الايطالية ـ سنة ١٨٧٠ كان هم أولى الأمر فيها القيام بالاصلاحات اللازمة لإبلاغها تلك المرتبة ، ولكن قامت دون ذلك صعوبات ، أهمها : قلة المال ، وازدحام المدينة بالآثار القديمة والأطلال البالية

ازدحاماً يتعارض مع المدنية الحديثة وتنظيم العواصم الكبرى ، وخاصة إذا لم يجرؤ القوم على تضحية بعض هذه الأطلال فى سبيل تنظيم المدينة وتنسيقها .

وقد لجأ رجال (روما) إلى البارون (هوسمان Haussman) – الذى كان محافظاً لمقاطعة (السين) بفرنسا ، واشتهر بأعماله العظيمة فى سبيل تنظيم (باريس) وتجميلها – فى أواخر القرن الماضى ، فأفتى بأن يتركوا (روما) القديمة ، وأن يبنوا جانبها مدينة جديدة ، فلم يلق أذناً صاغية ، ولكن القرائن تدل على أنهم يعودون الآن إلى رأيه شيئاً فشيئاً .

أما (موسولينى) فقد اهتم بذلك ، وكون – منذ سنتين – لجنة فحصت المسألة ملياً ، ورأت القيام باصلاحات عدة ، مع المحافظة – قدر المستطاع – على الآثار القديمة ، ووافق الرئيس على ذلك ، وبدأت الاصلاحات حول (الكابيتول) ، حيث هدموا بعض الطرق والكنائس والبيوت القديمة ، فنادى كثير من الناس – وأكثرهم من الأجانب – بالويل والثبور ، مدعين أن ذلك سوف يقضى على (روما) ولونها المحلى وخواصها الفنية ؛ فرد عليهم من منصة مجلس الشيوخ مدير سابق للفنون الجميلة ، وندد بأولئك الذين يريدون أن يتخذوا الفن والجمال حجة لإبقاء الأبنية الحقيرة ، والجدران القذرة ، والأحواش الضيقة ، وغير ذلك ؛ وتداخل (موسولينى) نفسه فى المناقشة ، فقال : « إن الآثار العظيمة مكفول احترامها ، وإنما المهم أن يفرق بينها وبين الخرائب والأطلال مما يدعى البعض أنه لازم ليبقى لـ(روما) لونها المحلى ... » ، وقال فى ختام خطبته : « كل هذه الأطلال والخرائب القذرة سندفع بها إلى صاحب الجلالة المعْوَل ، فيقوض أركانها باسم جمال العاصمة وشئونها الصحية » .

ولا ريب أن هذه الخطة المثلى ستوسع المجال لظهور الآثار الباقية ، وستزيل عن (روما) تلك المسحة الشرقية التى يشعر بها السائح فى كثير من أحيائها .

وأكبر ما أعجبنى من آثار (روما) ميدان القديس بطرس ، فهو عظيم بيضاوى الشكل ، تقوم فى وسطه مسلة مصرية كبيرة ، وتطل عليه كنيسة القديس بطرس ببهوها الفخم ، وإلى يمينه قصر (الفاتيكان) مقر الباباوات ، وداخل هذه الكنيسة غاية فى الابداع ، وسقفها مدهش فى دقة الصنع والنقش ، بناها الامبراطور قسطنطين ، وهى الآن أفخم معابد العالم .

وفى الفاتيكان متحف يحوى أعظم التحف الأثرية ، وأكثر ما أبدعه رجال الفن منذ العصور القديمة ، وبينها هدايا إلى الباباوات من مشارق الأرض ومغاربها ، وقد لفت نظرى منها إناء كبير من المرمر ، كتب تحته بالايطالية : (Dono de Mehemet Ali viceré dell'Egitto a Pis IX) ، ومعناها : هدية من محمد على والى مصر إلى بيوس التاسع ؛ ذلك عدا نحو ثلاثين من شواهد القبور الاسلامية عليها نقوش بالكوفية ، وبه قسم للآثار المصرية القديمة ، غنى بكنوزه عظيم فى تنسيقه .

و (روما) تفوق العالم كله بكنائسها الجميلة ، وفى وسطها تقوم أطلال الأبنية الرومانية القديمة، (كالكولسيوم) و(الفورو رومانو) مركز الحياة الرومانية ومكان الاجتماعات والثوران والحفلات ؛ ومن مميزاتها أيضاً : أقواس النصر العديدة التى كانت تقام لأبطال الرومان بعد انتصاراتهم الباهرة ، و (الكابيتول) الذى كان يجتمع فيه مجلس (روما) البلدى ، وقد بنى فى القرن الرابع عشر ، وسلالمه من عمل (ميشيلانجلو) ؛ وهناك أيضاً حدائق (بورغيزى) ومتحفها الجميل ، وبحيرتها العظيمة ، وفى ميدان العامة (Piazza dei Popolo) مسلة مصرية من الجرانيت ارتفاعها أربعة وعشرون متراً ، نقلها (أوغسطوس) إلى (روما) بعد معركة (أزيو) .

وهناك ايضاً (البانتيون) ، وقصر (الكورينال) الذى بنى فى القرن السادس عشر ليكون مقراً للباباوات ، ثم ميدان العمود ــ نسبة إلى العمود الذى أقيم فيه ذكرى لـ (ماركوس أوربليوس) بعد انتصاره على الجرمان ــ ، وقصر القديس (أنجلو) الذى بناه الامبراطور (أدريان) ليكون مدفناً له ولخلفائه .

وفى ميدان (فينيسيا) قصر الرئاسة ، حيث يطل (موسولينى) من شرفة غرفته على جيوش (الفاشيست) ، وفيه أيضاً هيكل النصر وقبر الجندى المجهول .

هذا و (روما) تختلف كثيراً عن عواصم أوربا الأخرى ، ولعل أهم ما يلفت النظر خلوها من ترام فى باطن الأرض كما هى الحال فى : لندن ، وباريس ، وبرلين مثلا ؛ ومن ثم لاحظت ازدحام (الترام) و (الأوتوبيس) دائماً ، فضلا عن ازدحام الشوارع الرئيسية .

ومن الظواهر التى شاهدتها فى إيطاليا كلها : قلة النساء فى الطرقات ؛ ففى (روما) نفسها نسبة النساء إلى مجموع المارة أقل بكثير منه فى (لندن) و (باريس) ، ولعل ذلك راجع إلى أن المرأة الايطالية لا تزال أكثر تحفظاً من زميلاتها : الانجليزية ، أو الفرنسية، أو الألمانية؛ ومن ثم كانت أكثرهن لزوماً لبيتها ، وأقلهن اختلاطاً بالحياة العامة .

مرت الأيام سراعاً ، ولم يكن كل ما أراه ليخفف من حنينى إلى باريس ، فسرنى أن حان وقت الرحيل إليها ، وذكرت قول شوقى من قصيدة له فيها :

زعموك دار خلاعة ومجانة ودعارة ! يا إفك ما زعموك
إن كنت للشهوات ريا ، فالعلا شهواتهن مرويات فيك
والعلم فى شرق البلاد وغربها ما حج طالبه سوى ناديك
العصر أنت جماله وجلاله والركن من بنيانه المسموك

[باريس]

زكى محمد حسن
عضو بعثة وزارة المعارف

٢ ـ نظرية الكوانتم THE QUANTUM THEORY

بقلم الاستاذ محمد محمد السيد
مدرس العلوم بمدرسة طنطا الثانوية الأميرية

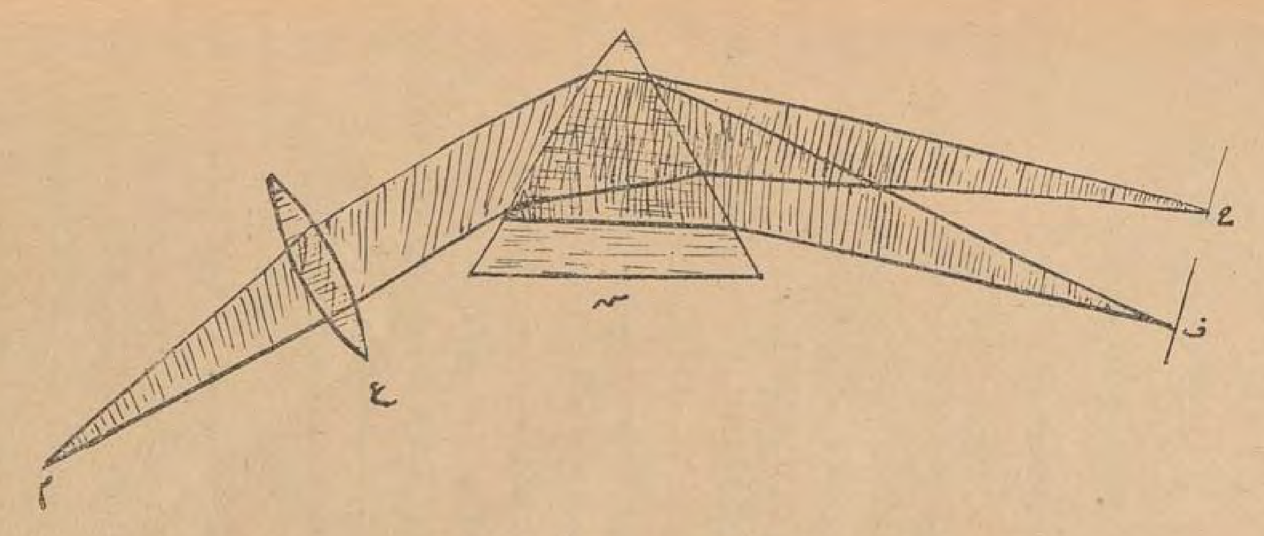
نموذج (بوهر) للذرة ـ الميكانيكا الموجية ـ نموذج (شرودنجر) للذرة ـ مبدأ اللاتحديد

يحكون فى قصص الأطفال الخرافية أن قاطع طريق اعترض أحد السحرة فسلبه كل الكنز الذى كان قد استخرجه من مخبأ تحت الأرض ، ولم يبق مع الساحر إلا قارورة إثمد مما يتكحلون به ، فطلب منه اللص أن يكحل له إحدى عينيه ففعل ، وإذا بنصف العالم ينكشف أمامه واضحاً من أثر هذا الكحل الغريب ، ولكنه لم يقنع وأراد رؤية النصف الثانى ، فطلب من الساحر أن يكحل له العين الثانية ففعل ؛ وإذا باللص يصبح أعمى ، ويفقد كل شىء ، بعد أن كان قد حصل على كل شىء .

هذا هو الطمع فى المال الذى يتسبب فى فقد المال ، والعلم يعانى ما يقرب من ذلك ـ مع الفارق طبعاً ـ فالعلماء ما زال حب الاستطلاع يحفزهم لتحليل المادة : ماهى ؟ ومم تتكون ؟ وفى وقت ما ظنوا أنهم عثروا على سرها عندما علمتهم التجارب والمشاهدات ، أن بها الكترونات وبروتونات . . . الخ ، ولكن حدث ما أقنعهم أن هذه ليست الحقيقة الكاملة فزادوا التنقيب والبحث ، وإذا بالصورة الواضحة التى كانت فى خيالهم للمادة وتركيبها تضطرب ، ويسودها غموض وإبهام ،ويكاد بحثهم ينتهى إلى أن هذه المادة ، لا يمكن لنموذج مادى أن يمثل تركيبها ، والمعادلات الرياضية هى التى تقربها إلى فهمنا ، إن كان هناك امل فى أن نفهمها .

عرضنا فى العدد السابق لنظرية الكوانتم ، وأبنا كيف ألقت ظلا من الشك على النظرية التموجية للضوء، فأسندت له فوق خواص الأمواج التى نعرفها عنه ، خواص الجسيمات المادية كما كان يقول (نيوتن) قديماً ، فالضوء هو شىء يمكن تشبيهه بالتموجات فى كونه ينتشر فى مدى أوسع فأوسع ، وبذا يمكننا تفسير ظاهرة التداخل والانكسار والحيود ، وله أيضا خواص الجسيمات او الدقائق ، وهذا يفسر لنا الظاهرة الكهربائية الضوئية ، فكأن الضوء يجمع بين صفات التموجات والجسيمات المادية ، فهل الأجسام المادية هى الأخرى تجمع إلى خواصها خواص التموجات ؟ ؟ .

يجيب العالم بنعم ، ويعزز قوله بالتجارب ، فالالكترونات ـ وهى أصغر مانعرف من



شكل تمثيلى لتوضيح تحلل الضوء

م ثقب يمر منه الضوء إلى عدسة تجمعه ع ، ويمر فى حزمة من الأشعة المتوازية إلى منشور من حيث يتحلل إلى الألوان المكونة له على ستارة تستقبله ح ف، حيث ح موضع الضوء الأحمر وف موضع البنفسجى، وتتوزع الأضواء الأخرى بينهما حسب معامل انكسار كل منها.

الأجسام- تنعكس وتنكسر وتحدث هدب تداخل كالأمواج تماماً ؛ وبالأقيسة الدقيقة امكن استنتاج أن الأمواج التى تصحب الالكترونات يجب أن يكون طول كل منها أصغر مليون مرة من طول موجة الضوء المرئى .

فى أوائل القرن الحالى كان النموذج الذى يتصوره العلماء للذرة هو صورة مصغرة للمجموعة الشمسية (نواة يدور حولها ألكترون أو أكثر) ، ولكن النموذج كان يحتاج لتعديل جوهرى ،فلو أن الألكترون يدور حقاً حول النواة كما تتخيل،لكان من الضرورى (حسب القوانين الكهرطيسية) أن يشع طاقة باستمرار ، ويقترب تدريجياً من النواة حتى يجذبها ، ويندمج بها ويتلاشيان فى ومضة من الاشعاع ، وليس هذا مايحدث فى ذرات العناصر المألوفة .

وفوق ذلك ، فقد كانت هناك الخطوط الطيفية ، لكل عنصر قائمة تحتاج لتفسير ؛ صحيح كانت هناك معادلات رياضية تقدم بها كثير من العلماء تعطينا أطوال الموجات لخطوط مجاميع معينة ، ولكن هذه المعادلات نفسها كانت تحتاج لتدليل يسندها ، وروابط تجمع بينها .

فى سنة ١٩١٣ تقدم (بوهر) العالم الطبيعى الدانمركى بنظريته فى تركيب الذرة على أساس نظرية الكوانتم ، قرر فيها أن الالكترون لايدور حول نواته إلا فى مسارات محدودة معينة ، هى المسارات المسموح له بالدوران فيها،وهو دائما موجود فى إحدى هذه المسارات ولا يوجد فى غيرها .

ويتم إشعاع الطاقة بقفز ألكترون من مسار لآخر أوطأ منه فى الطاقة وأقرب للنواة، والطاقة التى تشع هى كوانتم كامل ، أو مضاعفات صحيحة من الكوانتم ، وتختلف كميتها حسب المسارين المتنقل الالكترون بينهما ، وبذا لانجد فى الطاقة المشعة من الذرة كسراً من الكوانتم .

وامتصاص الذرة للطاقة يتم بطريقة مشابهة ، فالالكترون إذا تلقى قدراً كافياً من الطاقة تنقل من مسار كوكبى إلى آخر اعلى منه وأبعد عن النواة ، أى بعكس الاشعاع ، ولا تمتص الذرة من الطاقة إلا الكمية الكافية لتنقل الالكترون قفزاً بين مسارين من الموجة المسارات المسموح بها .

نجحت نظرية (بوهر) فى تفسير مجاميع خطوط طيف عنصر الايدروجين ، وأعطت طول لكل خط منها بدقة .

ولكن رغم النجاح الذى أصابته فى تفسير معضلات الطيف ، كان العلماء قلقين من جهة هذا المنحى الجديد ، ففى النظرية ما يخالف المألوف من النظريات الكلاسيكية ، فهنا مفروض

أن الالكترون فى مساره حول نواته لا يشع طاقة بينما تستعمل القوانين الكلاسيكية نفسها فى حساب تردد الموجة فى الطاقة المشعة أثناء قفز الالكترون من مسار إلى آخر.

هـذا الخلط بين القوانين الكلاسيكية، وبين نظرية الكوانتم وفروض بوهر، هو الذى دعا السير ويليم براج لأن يقول متهكما «لكأنه يلوح أننا نؤمن بالنظريات الكلاسيكية أيام الاثنين والأربعاء والجمع، وبنظرية الكوانتم أيام الثلاثاء، والخميس، والسبت»، فنحن حقاً نستعمل كلا منهما متى راق لنا، ولتفسير ما نلاحظه رغم ما بينهما من تناقض.

ولكن ذلك لم يمنع أن يتجه نشاط كثير من البحاث إلى تلك الناحية، وقد نجحوا فى تفسير كثير من غوامض الطيف على أساس فروض بوهر. وفى سنة ١٩١٨ تقدم بوهر نفسه بمحاولة للتوفيق بين نظرية الكوانتم والقوانين الكلاسيكية، وأبان أن القوانين المذكورة هى النهاية التى تتقارب إليها قوانين الكوانتم كلما كانت المسارات الكوكبية أعلى وأعلى.

ولقد كانت محاولة التوفيق بين القوانين الكلاسيكية والكوانتم أساس فرع من الميكانيكا جديد عرف باسم الميكانيكا الكوانتمية، وفى سنة ١٩٢٥ تقدم هيزنبورج بنظرية جديدة ميكانيكية الكوانتم. يستند فيها على ما نشهده ونلاحظه فقط أى على الطاقة التى تشعها

شكل تمثيلى لنموذج (بوهر) لذرة الايدرجين، مرسومة فيه الست مسارات الأولى الممكنة يدور الألكترون فى واحدة منها حول النواة، وينتقل من مسار لآخر كما ينتقل الطير بين الأغصان، ويكون انتقال الألكترون أو قفزه عند إشعاع أو امتصاص طاقة، فاذا قفز من المسار الأول [١ أو K] إلى غيره تكونت الخطوط الطيفية لمجموعة (ليمان)، فاذا قفز من المسار الثانى [٢ أو L] إلى غيره من المسارات الأعلى تكونت مجموعة (بالمر)، وإذا قفز من المسار الثالث [٣ أو M] تكونت مجموعة (پاشن) فى الطيف، وموضح بالشكل ثلاث خطوط فقط من كل مجموعة.

الذرة أو تمتصها ، فليس لنا حق فى فرض مسارات بوهر الكوكبية ، فهى خارجة عن مدى أبصارنا وملاحظاتنا .

كل ما نعرفه عن الذرة يصل لنا فى حال تهيجها عند امتصاص أو إشعاع الطاقة ، ونظرية هيزنبورج الرياضية مؤسسة على الكميات المشاهدة المقاسة فقط ، وقد تطورت النظرية على أيدى بحاث آخرين ، وأمكن الوصول إلى تفسير التأثيرات المشاهدة على طيف الايدرجين فى المجالات الكهربائية والمغناطيسية .

حدث كل هذا النجاح بدون تعديل كبير فى أفكارنا القديمة عن الذرة ، ولكن محاولة جديدة بدأها (دى بروجلى الفرنسى) فتحت مجالا أوسع أمام علم الطبيعة ، وأقيمت أسس ميكانيكا جديدة تعرف بالميكانيكا الموجية ، وتقدمت كثيراً على يد (شرودنجر السويسرى) وغيره ، وهى تفسر الظواهر الجديدة التى كشفت عن الخواص التموجية للاجسام المادية .

صورة الذرة كما يتخيلها (شرودنجر) على أساس هذه الخواص ، صورة مبهمة غامضة ، فعلينا لتصور الذرة المادية أن نتصور أمواجا تتذبذب فى وسط تحت الإثير (يجب أن يخالف الاثير الذى نحتاج له لتفسير انتقال الضوء) ، وتردد هذه الأمواج - أى عدد ذبذباتها فى الثانية - أكثر من مليون مرة من تردد الضوء المرئى ، فهى أسرع من أن تكشفها الاثنا .

والتموجات الفردية خارجة عن نطاق ملاحظتنا ، وما نلاحظه فعلا هو تأثيرها متجمعة ، فالأمواج بتجمعها تتعاون فى خلق مساحة مضطربة هى التى نسميها باسم دقيقة مادية ، أو بصفة أخص (ألكترون) .

فى هذه النظرية ليس هناك ما يمنع من وجود أمواج ذات ترددات مختلفة فى وقت واحد فى (تحت الأثير) ، فاذا وجد مجموعتان من هذه الأمواج ، اختلاف التردد بينهما كبير ، كانت (الضربات) الحادثة سريعة لانحس لها وجوداً ، ولكننا نشعر (بالضربات) الحادثة إذا كان الاختلاف فى الترددين صغيراً ، إذ تصير بطيئة بطئاً كافياً للتأثير فى أجهزتنا ، وتتمثل لنا فى صورة ضوء .

وليست (الضربات) نفسها هى الضوء الذى نشهده ، بل هى فى وسط (تحت الأثير) تقابل أمواج الضوء فى مشاهداتنا الحسية ، فهى المصدر المهتز الذى يرسل بطريقة مبهمة الأمواج الضوئية فى أثيرنا المعتاد .

صورة الجسم المادى إذاً كما يبرزها لنا (شرودنجر) مبهمة ، وقد ازدادت إبهاما فى السنوات الخمس الأخيرة بالمبدأ الذى أضافه (هيزنبورج) سنة ١٩٢٧ ، والذى يطلق عليه (أدنجتون) اسم (مبدأ اللاتحديد) ، فمنه نرى أن لعلمنا بالأجسام الدقيقة حدوداً لا يمكن

تخطيها ، فاذا أردنا تحديد موضع وسرعة جسيم صغير فى لحظة ما ، يمكننا أن نحدد أحدهما بدقة معقولة ، وكلما ازدادت دقتنا فى تحديده قلت الدقة فى تحديد الثانى .

لنفرض أن فى إمكاننا -بمكرسكوب قوى- أن نحدد موضع ألكترون بدقة كبيرة (وهو غير متيسر عملياً) ، فلكى نراه لابد من إضاءته ؛ ولكن الضوء عند صدمه له يغير من حركته بمقدار لايمكن نظرياً التنبؤ به ، فكأننا لن نتمكن من رؤية الالكترون وحساب سرعته فى نفس الوقت بدقة .

فاذا تخيرنا ضوءاً أطول موجة ، حتى تكون الطاقة التى تصدم الالكترون قليلة ، وليكون أثره فى تغيير سرعة الالكترون ضئيلا ، كان ذلك أدعى لإبهام الصورة التى يعكسها الضوء ، فلا يبين الالكترون بوضوح ، ويصير موضعه أقل تحديداً .

وقد احتل مبدأ اللاتحديد -فى أدبيات علم الطبيعة فى السنوات الخمس الأخيرة- مكاناً امتاز به عن كثير من الاكتشافات ، وليس ذلك بغريب ، فلقد كان إيمان العلماء بقدرة الطريقة العلمية فى كشف كل مجهول إيماناً غير محدود ، ولكن العلم نفسه أبان أن مدى قدرته على تمزيق حجب المجهول محدودة ؛ أو هى على الأقل محدودة فى مجال الطبيعة الذرية ، فاذا كان فى إمكان العلم أن يفخر بقدرته على تحديد المسافة بين الأرض والشمس لدرجة كبيرة من الدقة ، فليست الحال كذلك داخل الذرة ، ثم هو إن قرب من الاصابة مرة ، فلا بد أن يدفع ثمن ذلك فى خطأ جديد مرة ثانية .

ويعطى بعض العلماء لمبدأ اللاتحديد والأفكار الأخيرة فى الميكانيكا الموجية ، أهمية كبيرة ، فيترجمه السير (جيمس جينز) الفلكى الانجليزى الشهير بأنه يعبر « عن كره الطبيعة للدقة والتحديد أكثر من كرهها لأى شىء آخر » ، ويعطى له (أدنجتون) أهمية النظرية النسبية ، ولهذا رأينا الجدل يقوم بين العلماء حول « الحتمية » وهل بقى ما يدعو إلى أن نعتبر العالم المادى يسير تبع قوانين ميكانيكية دقيقة « محتمة » لاينحرف عنها قيد أنملة ، تتحكم فى الألكترونات والبروتونات كما تتحكم فى الكواكب والشموس ؟

نحاول أن نستعرض بسرعة تطور النظريات الطبيعية فى تركيب الذرة ، فنرى الصورة القديمة تمثلها لنا مكونة من ذرات كروية الشكل ، ثم تتحور الصورة فتصير الذرات مركبة هى الاخرى من دقائق أصغر فهى ألكترونات ونوى كروية الشكل يفصل بينها فراغ شاسع ؛ ثم يقيد (بوهر) الالكترونات حول نويها بمسارات محدودة معينة لاتتحرك فى غيرها ، وأخيراً يلقى الغموض ظله على هذه الصورة المحدودة ، فما صار يحق لنا أن نتكلم عن الالكترونات أو البروتونات ككرات ، وكذلك الحدود صارت عديمة المعنى إذا أسندت لهذه المسارات الأولية الدقيقة .

وأخيراً صارت الجسيمات المادية لها خواص التموجات كالضوء ، وصارت التموجات الضوئية لها خواص الجسيمات، والفضل فى كل ذلك التعقيد راجع للعالم الطبيعى ! فقد ظل يبحث وينقب ويجرد هذا الشيء الذى اصطلحنا على تسميته «مادة» من صفة الاستمرار والتواصل، فأخرجه لنا مهلهلا كالشبكة لا يزيد ما فيه من المادة الحقيقية على قطرة دقيقة فى حوض واسع من الفراغ ، وكذلك هذا الجزء التافه الضئيل لم يرح العالم إلى إبقائه ، فما زال وراءه يتتبعه بسبكترسكوبه ومعادلاته حتى كشف له عن صفات التموجات ، ولا ندرى أأبقى فيه بعد ذلك مايستحق أن يسمى مادة أم لا ؟ .

ورغم ذلك فالعلم مازال هو هو فى روحه وتطلعه للحقيقة ، وإذا كانت أبحاثه فى طوره الحالى تحاول إنارة أركان شديدة الظلمة يكتنفها إبهام وغموض ، فاننا على ضوئه نزداد قدرة على تفسير ما نشهد من ظواهر الطبيعة ، وليس ذنب العلم أن المادة تتسلل من بين أصابعنا على سنا ضوئه ، وتختفى رويداً رويداً فى عالم لا يمكننا تتبعها فيه ، إذ ربما كنا نقترب شيئاً فشيئاً من ذلك الحاجز الذى يستحيل على إدراكنا المحدود أن يتخطاه ، أو يكشف ماوراءه .

محمد محمد السيد

عشائر البـــــدو الرحل *

للدكتور خالد بك الخطيب [عمان]

وطنية البدوى !

من التأثيرات السيئة التى تركها إهمال ولاة الأمور لتربية البدوى ـ وهو المعروف بتفانيه فى الذود عن حياض وطنه فى المـاضى ـ أن ذهنيته اليوم أصبحت خلواً من التفكير فى أمر وطنه ، وإذا وجد بين الألوف المؤلفة من البدو من يخطر على باله مثل هـذا الأمر ، فهو أندر من النادر ، وإذا حدثت أحدهم مرة عن قضية وطنية يحسبك تـكلمه بلغة غير لغته ، وتجد أن اهتمامه يكون أشـد بكثير لأن يسمع منك حديثاً عن غزوات الموالى والحديديين مثلا ، وخصوصاً إذا كان ينتسب لاحدى هاتين القبيلتين المتخاصمتين ؛ وأما كفاح أمة عربية مع أمة أجنبية وفى سبيل استقلال بلاد برمتها ؛ فهذا أمر يظنون بل يعتقدون أنه لا يعنيهم كثيراً ولا قليلا .

الغزو عند العرب !

وعلى ذكر كلمة « غزو » أقول : إنه آفة الآفات ، وأعظم الداهيات ، وهادم البيوتات ، ومذهب اللذات ، وقاطع الصـلات ، وهو من أعظم البلايا التى نزلت بالأمة العربية منذ نشأتها إلى يومنا هذا ، بل هو من أشد أسباب تقهقرها خطورة ، فـكم من سلب تافه لا قيمة له ، سبب سفك الدماء البريئة بين قبيلتين عربيتين زمناً طويلا ؛ ولا أعجب من شىء عجبى من أن البدوى يعتقد أن الفوز أمر مشروع يحق له التفاخر به ، مع أنه لو رجع إلى الصواب لتأكد بأن الغزو ما خرج عن كونه لصوصية ، ولـكنها لصوصية علنية ؛ ويسرنى هنا أن أعلن شكر الأمة العربية لسمو الأمير « عبد الله المعظم » على جهود سموه التى بذلها ويبذلها فى سبيل مكافحة هذا الداء القتال ، ولا يفوتنى أن أشكر ـ أيضاً ـ كل ملك ، أو أمير ، أو زعيم عربى بذل أو يبذل فى هذا السبيل أى جهد محمود .

ومما يزيد فى ويلات الغزو على الأمة العربية شراً أن المستعمرين الذين يعرفون جيداً من أين تؤكل الـكتف ، يستثمرون إضعاف العشائر بواسطته ، ويتخذونه سلاحاً لضرب العربى بالعربى ، والنتيجة هى القبض على خناق الجميع ؛ فهل نحن متعظون ! ! أقسم أن قضية الموالى والحديديين التى سفـكت فى سبيلها كل هذه الدماء البريئة كان سهلا على العرب التفاهم عليها

* هذا هو القسم الثانى من المحاضرة من ألقاها الدكتور خالد بك الخطيب فى مدرسة التجهيز بمدينة عمان (شرق الاردن) فى العام الماضى . وقد نشرنا القسم الاول منها فى عدد يناير سنة ١٩٣١ من السنة الاولى ص ١١٠٠ .

وقمعها دون أن تأخذ هذا الطور الخطر ، لولا أن يداً أثيمة أجنبية لعبت دورها فى توسيع الخرق فيها ؛ ولو أردنا أن نعدد جميع الحوادث التى تؤيد هذا القول لضاق بنا الوقت ، وما كفى ذلك عدة محاضرات ! ! !

علم البدوى ودينه !

يكفى لتقدير مرتبة البدو العلمية أن نعلم أن الاحصاء النهائى لعدد المتعلمين عندهم ، هو أن لكل قبيلة « خطيباً » ، ومعنى الخطيب فى عرفهم هو الذى منّ الله عليه بنعمة القراءة والكتابة ، أو القراءة على الأقل .

ويكتفى البدوى أن يعلم عن دينه أنه مسلم مثلا ، وأن الله واحد ، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبيه؛ ويندر أن توفق إلى إيجاد بدوى يخبرك عن عدد الركعات بالضبط لأى وقت من أوقات الصلاة ؛ ومن القصة التالية تقدرون درجة معرفتهم لآى الذكر الحكيم :

ذهبت فى سنة ١٩٢٦ ومعالى الدكتور شهبندر، من الأزرق إلى محل قريب منه،لرؤية بعض رجال من عرب الشرارات الذين كانوا نازلين ما بين قرى « الملح والأزرق » بقيادة شيخهم « بشير الشرارى » ، فمكثنا عندهم قليلا ، وتحدثنا إلى بعضهم للمؤانسة ، فسأل الدكتور شهبندر أحدهم : هل تعرف القراءة والكتابة ؟ قال : لا ، فقال له : هل تعرف شيئاً من القرآن ؟ قال : لا ، ولكن فلان ـ ثم أشار إلى أحد الجالسين يعرف القرآن جيداً ، فسأله الدكتور شهبندر : ما ذا تعرف من القرآن ؟ قال : أعرف سورة الناس ، فطلبنا إليه أن يسمعنا منها شيئاً ، فقال ـ وهو أعرفهم بالقرآن ـ : أعوذ برب الناس الخناس وعن الوسواس وعن الذى قرأ بقلوب الناس ! !

وما كاد يصل إلى هنا ، حتى كادت تميد بنا الأرض من فرط الضحك،ثم قلنا له : بالله ألا تعرف غير هذه السورة ؟ فقال : أعرف « الصمدية » فرجوناه أن يقرأها ، فقال لا فض فوه !! : الله أحد لا من يولد ولا يلد ولا هو بكفو أحد ! !

قلت : ومن علمك هذا القرآن ؟ قال : الخطيب ، قلت : أنعم وأكرم !!!

حياة البدوى المنزلية !

إن حياة البدوى المنزلية لا تعرف معنى للنظافة، بالرغم من أن الله من عليه بالدين الاسلامى الحنيف وهو أشد الأديان حضاً على النظافة ؛ إذ جعلها من الايمان ؛ ومع أن الأوانى المنزلية التى اعتاد البدوى استعمالها فى بيته ـ لقلة عددها ـ لا تتطلب فى تنظيفها العناء الذى يصرفه الحضرى فى بيته لتنظيف أوانيه العديدة ، فإنك تجد أوانى البدوى فى غاية القذارة . وأما لباسه فليس

فى مقدور أحد ـ ولا حضرات رؤساء العشائر الحاضرين بيننا الآن ـ أن ينكر على قولى إن البدوى كثيراً ما يحول عليه الحول وأكثر من الحول دون أن يغير ثوبه ، فتصوروا حال الثوب الذى يستعمله صاحبه سنة فأكثر ، دون أن يغيره ، أو على الأقل يفكر فى غسله.

ومن الظلم أن يتوهم أحد أن إهمال البدوى نظافة بيته ولباسه ناشىء عن خسة فى طبعه، كما هى الحال فى بعض الشعوب ، فان من الخطأ الفادح إلصاق خسة الطبع بنفسية البدوى؛ والحوادث التى تروى عن إفراطه فى الكرم الغريزى كثيرة لا يكاد يحصرها العد ، حتى إنك لا تكاد تصدق البعض منها ، وتظن أنها أسطورة من الأساطير ، أو خرافة كونتها الأوهام لكثرة المبالغة فيها ، مع أنها حقيقة واقعة ؛ وكثيراً ما شاهدت بعينى رأسى بدوياً يرتدى هو وأهله أقذر الألبسة وأبلاها ، ويقرى ضيوفه بما لو أراد أن يبتاع بقيمته ألبسة للبس أخر اللباس وأثمنه لأمكنه؛فيتضح لك من هذا أن إهماله لنظافة لباسه ومسكنه ليس منشأه خسة فى طبعه ، ولكنه جهله معرفة طرق النظافة وعدم تعويده على ممارستها . ومما أذكره هنا بمزيد الأسف والشفقة : أن هذه القذارة فى حياتهم تسبب وفاة الكثير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم فى كل سنة بداء (السل)،فان الاحصائيات التقريبية تدل على أن خمسين فى المائةمنهم مصابون بالسل . إما الدرنى اللمفاوى ، أو الرئوى أو العظمى؛ وهذا بالرغم من أنهم يعيشون فى الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس المحرقة ، وفى ذلك الجو الذى لا يعيش فيه باسيل السل بالسهولة .

***

هذه صورة مصغرة عن حالة البدوى ، وعن أخلاقه ، وعلمه،ودينه،ووطنيته ، وبالاجمال عن جميع نواحى حياته،وأنتم ترون أنها صورة يتألم لمرآها كل عربى يغار على عروبته،وهى حرية باهتمام الأمة اهتماماً يتناسب مع كرامة محتدها وغابر مجدها ، نعم ! يجب أن نلتفت لتحسين شئون هذا البدوى الذى بفضله وأدبه قام للعرب أدب تفاخر به جميع الآداب .

وفى شعره :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

قرأنا آية الإباء والاعتصام بالصبر لاستعادة الملك الضائع،وهذه أسمى آيات الوطنية الصحيحة.

وفى قوله :

تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

قرأنا أنشودة الوفاء . ومن صبره وعدله وحنكته ودهائه ما سمعنا عن صبر أبي بكر الصديق وعدل عمر بن الخطاب وحنكة ابن العاص ودهاء ابن أبي سفيان .

ومن شجاعته وبريق سيفه عرفنا وقائع ابن الوليد وابن الجراح .

ومن مغامراته فى الخطوب فى سبيل المجد الخالد قرأنا صفحة فتوحات ابن زياد .

وفى قاعات (اكسفورد) ردد التاريخ فضله العظيم ، وعدد مآثره الجلى فى سبيل الانسانية يوم ذكر « ابن سينا » و « أبو بكر الرازى » وغيرهما من فحول علماء العرب المتقدمين .

إن هذا البدوى ، هو منا ونحن منه ، ومن الظلم بل من العار وسبة الأدب أن نتركه تتقاذفه أمواج الجهل فيتخبط فى ظلماتها على غير هدى لا يعرف أين المصير .

الدواء الناجع !

وإذا أطلت عليكم الكلام فى وصف الداء ، فانى لا أرى داعياً للاطالة فى وصف الدواء ، لأنه ينحصر فى كلمتين مختصرتين يعرفهما كل واحد وهما : العلم والتحضير .

وهنا اسمحوا لى أن أذكر لمحة صغيرة عن الجهود التى بذلت فى تعميم نشر العلم بين العشائر وتحضيرها ، وعند أى حد انتهت تلك الجهود :

فى سنة ١٣٢٩ للهجرة أصدرت وزارة الداخلية للدولة العثمانية قراراً يقضى بتعميم تشكيل مدارس ابتدائية بين العشائر ، ثم ترقية هذه المدارس السيارة تدريجياً ، ثم أنشئت فى الآستانة مدرسة عسكرية خاصة لتعليم أبناء العشائر البدوية ؛ وقد أفادت هذه المدرسة بعض الفائدة ، فقد تخرج فيها عدد غير يسير من المتعلمين ، ومن هؤلاء – كما ذكرت سابقاً – المرحوم « عبد المحسن السعدون » وكثيرون غيره ، والذى أعلمه أن جميع الذين تخرجوا فى تلك المدرسة تحضروا هم وأقاربهم ، غير أن أمد هذه المدرسة لم يطل ، فقد جاءت غطرسة الاتحاديين من الترك وقضت عليها . أما القرار بتعميم المدارس الابتدائية ، فقد أهمل إثر صدوره ، فكأنه لم يكن شيئاً مذكوراً .

وبعد الحكومة العثمانية لم تهتم بهذا الأمر أية حكومة من الحكومات التى حلت محلها فى البلاد العربية ، وإن كان هناك بعض المقترحات التى يقررون حصولها ، فانها لا تتعدى حد التقرير والتسجيل ، فكأنه من الوجهة العملية لم يحدث شىء ، هذا من جهة الحكومات ، وأما من جهة الأمة فانه لم يبذل حتى اليوم أى مسعى يذكر ، ولا فكرت أية هيئة من الهيئات العلمية العاملة بهذا الأمر ، مع أن أفضل الوسائل الفعالة هو أن تقوم بمهمة نشر العلم بين هذه العشائر جمعيات ثقافة

منظمة توجدها الأمة، وتشد أزرها الحكومات، ويساعدها على مهمتها زعماء القبائل وشيوخها.

اقتراح عملى !

ولى هنا اقتراح أود أن أختم به محاضرتى ، راجياً أن يلقى قبولا :

إن لكل أمة مستقلة جندية يقوم بأدائها شباب تلك الأمة ، وفريضة الجندية تعم كل فرد من أفرادها بلا استثناء ، فمن الممكن إذاً أن يحسب الشاب العربى المتعلم أن هذه الجندية فرض إجبارى عليه نحو أمته ، فيتطوع لأدائها فى مدة سنة كاملة بين أبناء أية عشيرة تختارها له جمعية منظمة تقوم لهذا الغرض ؛ فيعلم أبناءها ويكون جندياً مخلصاً لا للكفاح فى الخنادق ، ولكن لمحاربة الجهل ، ويكون سلاحه القرطاس والقلم لا البندقية والمدافع .

هذا اقتراح عملى أبعث به من قلب مكلوم إلى آذان شباب العرب الناهضين ، فان الشباب أولى الجميع بأن يكونوا الجبهة الأمامية للقيام بأداء هذا الواجب ، والله من وراء القصد ، وهو يهدى السبيل .

[عمان] خالد الخطيب



فى كتاب ابن الرومى

للاستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأستاذ مصطفى جواد [بغداد]

سمعنا عن هذا الكتاب كثيراً فى الصحف والمجال والمجالس من مدح وقدح وانتقاد ، مما شوقنا إلى تصفحه والمرور بما فيه ، ولقد ألفيناه كتاباً جيداً شاملا متعوباً به منصوباً لأجله، معلناً فضل صاحبه ، وهو بعد تأليف من التآليف البشرية والجهود الانسانية ، فيه المليح والقبيح ، والصحيح وغير الصحيح ؛ ومن ثم كان لنا فيه آراء وتعقيب : من استدراك فائت ؛ وإتمام ناقص ، وترجيح شيء على مرجوحه ، ونقض رأى برأى ، وإصلاح وهم لغوى ، وتصحيح غلط نحوى ؛ ولا شك أن مؤلفه الأستاذ أرحب صدراً من أن يضيق بالحقائق ، وأهدأ من أن يغتاظ من الاصلاح ، وأسرع من غيره إلى وقف القراء على ما لم يقفوا عليه من مقاصده . وأول ما نبدأ به كلمة على « ابن الرومى » مما لم يظفر به المؤلف من المصادر :

قال محمد باقر – مؤلف كتاب روضات الجنات – عنه : « الشاعر الباهر الماهر المشهور أبو الحسن على بن العباس بن جريج البغدادى المشتهر بابن الرومى كان – كما ذكره الصفدى – فى ذيل تاريخ ابن خلكان شاعر وقته ببغداد ، مذكوراً فى مقابلة ابن البحترى الأستاذ ! وكان أصلع أسمج ، شديد التطير ، منهوماً فى الأكل جعلباً ، فكان يغلق أبوابه ! ولا يخرج إلى أحد خوفاً من التطير ، فأراد بعض أصحابه أن يحضر إليهم فى يوم أنس ، فسيروا إليه غلاماً نظيفاً اسمه « إقبال » ، فقال : « إقبال مقلوب لا بقاء » ، ودخل وأغلق الباب ؛ وكان كثير الهجاء للأخفش الصغير على بن سليمان – المتقدم ذكره – فى ذيل ترجمة أول الأخافشة . . . وذلك أنه لما كان كثير الطيرة ، وكان الأخفش كثير المزاح ، فكان يباكره قبل كل أحد ، ويطرق الباب عليه فيقول : من بالباب ؟ فيقول : الأخفش حرب بن مقاتل ، وما أشبه ذلك ، فقال له : اختر على أى قافية تريد أن أهجوك ؟ فقال : على روى قصيدة دعبل الشينية ، فقال :

ألا قل لنحويك الأخفش   أنست فقصر ولا توحش
وما كنت عن نية مقصراً   وأشلاء أمك لم تنبش
أما والقريض ونقاده   ونجشك فيه مع النجش
ودعواك عرفان نقاده   بفضل النقى على الأنجش

لئن جئت ذا بشر حالك لقد جئت ذا نشأ أبرش
وما واحد جاء من أمة بأعجب من ناقد أخفش
كأن سنا الشتم فى عرضه سنا الفجر فى السحر الأغبش
أقول وقد جاءنى إنه ينوش هجاى مع النوش
إذا أغطش الدهر أحكامه سطا أضعف القوم بالأبطش
وما كل من أخشت أمه تعرض للمقذع الأخش

وهى طويلة ، فلما سار هجاؤه جمع أصحابه ، وكان له جماعة أصحاب من الرؤساء ودخلوا على « ابن الرومى » فكف عن هجائه ، وسألوه أن يمدحه ، فقال :

ذكر الأخفش القديم فقلنا : إن للأخفش الحديث لفضلا
وإذا ماحكمت والروم قومى فى كلام معرب كان عدلا

إلى آخر القصيدة ، وقال -أيضاً- بعد إيراده فقرات بليغة فى بيان تملكه لأزمة المعانى ، وتسلطه على إيراد المطلب الواحد فى أثواب من الألفاظ والمبانى : ولقد بالغ ابن سناء الملك حيث أجاب القاضى الفاضل، وقد أمره باختيار شعر «ابن الرومى» ، فقال : « وأما ما أمر به فى شعر ابن الرومى ، فما المملوك أهل لاختياره ، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره ، لأن بحاره زخارة ، وأسوده زآرة ، ومعدن تبره مردوم بالحجارة ، وعلى كل عقيلة منه ألف نقاب ، بل ألف ستارة ، يطمع،ويؤيس ، ويوحش ، ويؤنس ، وينير ، ويظلم، ويضحى ، ويغيم،شذرة،وبعرة ، ودرة ، وآجرة ، وقبلة بجانبها السبة!وحرة بجوارها قحبة ، ووردة قد حف بها الشوك ، وبراعة قد غطى عليها النوك ، لا يصل الاختيار إلى الرطبة حتى ينجرح بالسلا ، ولا يقول عاشقها : هذه الملح قد أقبلت حتى يرى الحسن قد تولى،فما المملوك من جهابذته ، وكيف وقد تفلس فيه الوزير ؟ ولا من صيارفته ونقاده ، ولو اختاره جرير لأعياه تمييز الخيش من الوشى،والوبر من الحرير » . حكى عن ابن رشيق وغيره أن لائماً لام ابن الرومى ، فقال له : «لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه؟»،قال له:« أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده قوله فى الهلال :

وانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال : زدنى ، فأنشده :

كأن آذريونها والشمس فيها كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فصاح : « واغوثاه ! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته ، لأنه

ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولـكن انظر إذا أنا وصفت شا أعرف أين يقع قولى من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولى فى الغمام ؟ :

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً ... على الجو دكناً والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر فى أصفر فوق مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض [1]

وقولى فى صانع الرقاق :

لا أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

انتهى . وتوفى ابن الرومى فى حدود « التسعين والمائتين » ، ونقل فى سبب موته ، أن الوزير أبا الحسن القاسم بن عبيد الله خاف هجوه وفلتات لسانه بالفحش ، فدس عليه ابن فراس فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسم فقام ، فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » ، فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه . . . وأتى منزله وأقام به أياماً ومات ؛ ونقل الفاضل الصفدى ـ أيضاً ـ فى كتابه الوافى عن على بن عبد الله بن وصيف المشتهر بأبى الحسين الحلاء الناشىء الأكبر [2] (وكان من متكلمى الشيعة الامامية الفضلاء ، وله شعر مدون ، وروى عن ابن المعتز والمبرد ، وروى عنه ابن فارس اللغوى وعبد الله بن أحمد ابن محمد بن روزبه الهمذانى وغيرهما) ، أنه قال : « كان ابن الرومى يجلس فى دكان أبى وهو عطار ، ويلبس الدراعة ، وثيابه وسخة ، وأنا لا أعرفه ، فانقطع مدة ، فسألت أبى عنه : ما فعل ذلك الشيخ ؟ فقال : ويلك ! ذاك ابن الرومى وقد مات ، فندمت إذ لم أكن أخذت عنه شيئاً [3] .

وقال أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد : « على بن العباس بن جريج أبو الحسن مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر ، يعرف بابن الرومى أحد الشعراء المكثرين المجودين فى الغزل والمديح والهجاء والأوصاف ، روى عنه غير واحد من أهل الأدب ، أخبرنى أبو عبد الله الحسين ابن محمد بن جعفر الخالع ، أخبرنى أبو الحسين على بن جعفر الحمدانى ، قال : « كنت

(١) قال ابن خلكان في ترجمة سيف الدولة على الحمدانى ونسب الابيات اليه ما صورته « وقيل : ان هذه الابيات لابى الصقر القبيصى والاول ذكره الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر » . وهذا من التشبيهات الملوكية التى لا يكاد يحضر مثلها للسوقة » الوفيات ١ : ٤٠٠ وهو قول لا يتوجه لوجه مقبول لان كاسات العقار والخود الرود كانت سهلة الظفر على الشعراء اما تملكا واما وليمة (٢) كذا ما فى الاصل وهو الاصغر كما علمنا من الوفيات ١ : ٣٨٩ (٣) روضات الجنات ص ٤٧٣ .

فى غلمان دار القاسم بن عبيد الله الوزير [١] ، فدخل القاسم يوماً داره راجعاً من ركوبه ، وكان فى جملة حاشيته حينئذ رجل أراه يدخل الدار كثيراً وينادم ، وكان متدرعاً متعمماً ، فالتفت القاسم إلى الرجل ، فقال له : يا أبا الحسن! امل الأبيات على كاتب يكتبها بخطه وهاتها ، فأملى على كاتب كتب عنده ثلاث أبيات وهى :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائحة ... فى حومة الماء يرمى فيه بالحجر

وقال للكاتب : « اكتب :تنداح دائحة وتندار دائرة » ، فسألت عنه لأعرفه ، فقيل لى : هذا ابن الرومى .

أخبرنا أبو يعلى أحمد بن عبد الواحد الوكيل . . . حدثنا الحسين ابن القاسم الكوكبى ، قال : أنشدنى على بن العباس الرومى لنفسه ، وكتب بها إلى بعض إخوانه ، وقد قدم من سفره فتأخر عن السلام عليه :

يا من أؤمل دون كل كريم ... وتحب نفسى دون كل حميم
أخرت تسليمى عليك كراهة ... لزحام من يلقاك للتسليم
وذكرت قسمتك التحفى بينهم ... عند اللقاء كفعل كل كريم
فنفست ذاك عليهم وأردته ... من دونهم وحدى بغير قسيم
فصبرت عنك إلى انحسار غمارهم ... والقلب نحوك دائم التحويم
صبر امرىء يعطى المودة حقها ... لا صبر مذموم الحفاظ لئيم
والسعى نحوك بعد ذاك فريضة ... عن طيب خيمك فهو أطيب خيم
ومتى استربت بخلة معوجة ... فتتبع العوجاء بالتقويم

أخبرنا هلال بن محمد بن جعفر الحفار ، حدثنا أبو القاسم اسماعيل بن على الخزاعى (وهو ابن أخى دعبل بن على) ، قال : أنشدنا على بن العباس بن جريج الرومى لنفسه :

ومهفهف تمت محاسنه ... حتى تجاوز منية النفس
ترنو الكؤوس إليه راشفة ... وتجول بين أنامل خمس
فكأنه والكأس فى يده ... قمر يقبل عارض الشمس

(لها بقية)

مصطفى جواد

---

(١) هو وزير أبى العباس أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق وزير ابنه المكتفى توفى سنة ٢٩١ هـ وقيل هو الذى سم ابن الرومى بخشكنانجة (مروج الذهب ٢ : ٤٩٤ — ٥) من الطبعة المصرية ، قال المسعودي : « وكان عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكاً للدماء .وكان الكبير والصغير على رعب منه لا يعرف أحد منهم لنفسه نعمة معه . . . وكان ممن قتل القاسم بن عبيد الله (عبد الواحد بن الموفق) وكان معتقلا عند مؤنس الخادم . فبعث اليه حتى أخذ برأسه وذلك فى أيام المكتفى » وذكره المسعودى أيضا فى ص ٤٨٦ و ٤٩٠ ـ ١ و ٥٠٦ وابن خلكان فى « ١ : ٣٨٧ » من الوفيات وياقوت الرومي فى معجم الادباء « ١ : ٤٨ و ٨٣ و ١٣٦ » والفخري ص ١٩٠ ـ ١ والسيوطي وتاريخ الخلفاء ص ٣٨٧ وابن الاثير .

مارستانات مصر *

فى العصر الاسلامى

بقلم الدكتور أحمد عيسى بك

١ – مارستان زقاق القناديل بالفسطاط

قيل[١] : إنه كان فى الدولة الأموية مارستان فى زقاق القناديل – دار أبى زبيد –، وزقاق القناديل هذا – ويقال له زقاق القنديل – من أزقة الفسطاط، قال القاضى القضاعى[٢] : إنما وسم زقاق القناديل ، وقيل : إنما قيل له زقاق القنديل ؛ لأنه كان برسم قنديل يوجد على باب عمرو ابن العاص ؛ وقال أبو عبد الله بن المتوج الزبيرى : وكان به دار عمرو بن العاص ، وفيه ولد الإمام الحافظ ابن سيد الناس صاحب كتاب « عيون الأثر ، فى فنون المغازى والشمايل والسير »، المتوفى سنة ٧٣٤ هـ .

٢ – بيمارستان المعافر

هذا المارستان[٣] كان فى خطة المعافر[٤] ، التى موضعها ما بين العامر من مدينة مصر (الفسطاط) ، وبين مصلى خولان[٥] التى بالقرافة ؛ بناه الفتح بن خاقان[٦] فى أيام الخليفة المتوكل على الله ، وقد باد أثره .

٣ – البيمارستان العتيق بمصر ويعرف بالأعلى

(بيمارستان أحمد بن طولون)

هذا المارستان[٧] يعرف بالأعلى ، أنشأه أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩ هـ — ٨٧٢م ،

---

* نشرنا فى السنة الاولى « للمعرفة » سبع مقالات من هذا البحث الجليل بعنوان « تاريخ البيمارستانات » كان آخرها ما نشر فى عدد مارس سنة ١٩٣٢ وهذا هو المقال الثامن الذى تقدمه « المعرفة » لحضرات القراء قدوة مجهود الاستاذ الباحث قدره .

(١) « الانتصار لواسطة عقد الامصار » لابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ ص ٩٩ ج ٤ .

(٢) الانتصار ص ١٣ ج ٤ . (٣) المقريزى ص ٤٠٦ ج ٢ . (٤) هم بنو المعافر بن يعفر بن مرة بن أدد . (٥) هم بنو خولان بن عمر بن مالك بن زيد بن عريب . (٦) هو الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى وحمو أحمد بن طولون ، قتل مع الخليفة المتوكل فى ليلة واحدة وفى مجلس واحد سنة ٢٤٧ هـ ٨٦١ م . (٧) « الانتصار » لابن دقماق ص ٩٩ ج ٤ .

وقيل سنة ٢٦١هـ ؛ وذكر أن مبلغ ما أنفق عليه وعلى مستغله ستون ألف دينار ، وحبس عليه سوق الرقيق وغيره ، ولم يكن قبل ذلك فى مصر مارستان ، وشرط ألا يعالج فيه جندى ، ولا مملوك ؛ وكان يشارفه بنفسه ، ويركب إليه يوماً فى كل أسبوع ؛ وقال أبو العباس أحمد القلقشندى[1] : أول من اتخذ البيمارستان بمصر أحمد بن طولون ، بناه بالفسطاط ، وهو موجود إلى الآن (أى إلى عصره ، وتوفى القلقشندى سنة ٨٢١ هـ ١٤١٨ م) ، وبلغت أجرة مقعد يكرى عند البيمارستان الطولونى بالفسطاط فى كل يوم اثنى عشر درهماً ؛ وهذا المارستان[2] كان موضعه فى أرض العسكر[3] ، وهى الكيمان والصحراء التى تقع بين جامع ابن طولون وكوم الجارح[4] ، وفيما بين قنطرة السد التى على الخليج ظاهر مدينة مصر ، وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين مصر ، وقد اندثر هذا المارستان فى جملة ما اندثر ولم يبق له أثر ؛ وقال أبو عمر الكندى فى كتاب الأمراء : وأمر أحمد بن طولون أيضاً ببناء المارستان للمرضى ، فبنى لهم فى سنة ٢٥٩هـ ٨٧٢ م ؛ وقال جامع السيرة الطولونية : وفى سنة ٢٦١هـ ٨٧٤م بنى أحمد بن طولون المارستان ، ولم يكن قبل ذلك فى مصر مارستان ، ولما فرغ منه حبس عليـه دار الديوان ، ودوره من الأساكفة والقيسارية وسوق الرقيق ، وشرط فى المارستان ألا يعالج فيه جندى ولا مملوك ، وعمل حمامين للمارستان : أحدهما للرجال ، والآخر للنسـاء ، حبسهما على المارستان وغيره ؛ وشرط : أنه إذا جىء بعليل تنزع عنه ثيابه ونفقته وتحفظ عند أمين المارسـتان ، ثم يلبس ثياباً ، ويفرش له ، ويغدى ، ويراح بالأدوية والأغذية والأطباء حتى يبرأ ، فإذا أكل فروجاً ورغيفاً أمر بالانصراف ، وأعطى له ماله وثيابه ؛ وفى سنة (٢٦٢ هـ ٨٧٥م) كان ما حبسه على المارستان والعين والمسجد فى الجبل الذى يسمى بـ(تنور فرعون) ، وكان مبلغ ما أنفق على المارستان ومستغله ستين ألف دينار ، فكان يركب بنفسه فى كل يوم جمعة ، ويتفقد خزائن

---

(١) صبح الأعشى ص ٣٣٧ ج ٣ . (٢) المقريزى ص ٤٠٥ ج ٢ . (٣) فى سـنة ١٣٣ تولى أبو عون عبد الملك بن يزيد ولاية مصر باستخلاف صالح بن على بن عبد الله بن عبـاس بن عبد المطلب الهاشمى العباسى ، وهو أول من ولى مصر من قبل خلفاء بنى العباس . فى أيام أبى عون هذا سكنت أمراء مصر العسكر ، وسببه : أنه لما قدم صالح بن على العبـاسى وأبو عون بجموعهم الى مصر فى طلب مروان الحمار ، نزلت عساكرهما الصحراء حيث جبـل يشكر ، الذى هو الآن جامع أحمد بن طولون وكان فضاء ، فلما رأى أبو عون ذلك أمر أصحابه بالبناء فيه فبنوا ، وبنى هو أيضاً دار الامارة ومسجداً عرف بجامع العسكر ، وعملت الشرطة أيضاً فى العسكر وقيـل لها الشرطة العليا . والى جانبها بنى الامير أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن ، وسمى من يومئذ ذلك الفضاء (العسكر) ، وصار منزلا لامراء مصر من بعد أبى عون ، وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة ، وفيه أيضاً بنى الامير أحمد بن طولون بيمارستانه ، وكان البيمارستان المذكور بالقرب من بركة قارون — التى صارت الآن كيماناً وبعضها بركة على يسار من مشى من حدرة بن قميحة — يريد قنطرة السد (النجوم الزاهرة ص ٣٦٢ طبع ليدن سنه ١٨٥٢ م) .

(٤) هو الكوم المتصل برحبة موقف الطحانين ، وكان هذا الخط من أعمر الخطط بالفسطاط .

المارستان وما فيها والأطباء ، وينظر إلى المرضى وسائر المعلولين والمحبوسين من المجانين ؛ فدخل مرة حتى وقف عند المجانين ، فناداه واحد منهم مغلول : أيها الأمير اسمع كلامى! ما أنا بمجنون ، وإنما عملت علىَّ حيلة ، وفى نفسى شهوة رمانة عريشية أكبر ما يكون ؛ فأمر له بها من ساعته ، ففرح بها وهزها فى يده ورازها ، ثم غافل أحمد بن طولون ورمى بها فى صدره ، فنضحت على ثيابه ، ولو تمكنت منه لأتت على صدره ، فأمرهم أن يحتفظوا به ، ثم لم يعاود بعد ذلك النظر فى البيمارستان .

وقد دخل مصر فى سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢ م ابن جبير[١] الرحالة المغربى العظيم ، وشاهد البيمارستان الذى بالقاهرة ، وقال : إنه مفخرة من مفاخر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ وأطنب فى وصفه بما سيأتى ذكره بعد فى موضعه ، قال : وفى مصر (الفسطاط) مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه ؛ وقال السخاوى[٢] : إن أحمد بن طولون بنى إلى جانب جامعه البيمارستان ، وكان بناء القطائع والجامع وقصره الذى نزل فيه فى سنة ٢٥٦ هـ ٨٦٩ م ؛ وقال ابن إياس[٣] : فلما بنى الأمير أحمد بن طولون هذا الجامع ، أنشأ به مارستاناً برسم الضعفاء ، ولم يكن قبل ذلك بمصر مارستان ، وكان فى أحد مجالس البيمارستان العتيق - أى بيمارستان أحمد بن طولون - خزانة كتب ، كان فيها ما يزيد على مائة ألف مجلد فى سائر العلوم يطول الأمر فى عدتها[٤] .

قال أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى فى كتاب « تاريخ مصر وولاتها » ص ٢١٦ ، طبع بيروت :

وقدم أحمد بن طولون إلى (الفسطاط) يوم الخميس لثمان خلون من شوال سنة ٢٥٩ هـ ، وأمر ببناء المسجد على الجبل فى صفر سنة ٢٥٩ هـ ، وأمر أيضاً ببناء المارستان للمرضى ، فبنى لهم فى سنة ٢٥٩ هـ ؛ وقال محمد بن داود :

ألا أيها الأغفال إيهاً تأملوا ... وهل يوقظ الأذهان غير التأمل ؟
ألم تعلموا أن ابن طولون نقمة ... تسير من سفل إليكم ومن عل ؟
ولولا جنايات الذنوب لما علت ... عليكم يد العلج السخيف المجهل
يعالج مرضاكم ويرمى حريمكم ... حبيش[٥] القلب أدهم أعزل

(١) الرحلة ص ٥٢ : ولد ابن جبير ببلنسية سنة ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م ؛ وتوفى بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م . (٢) تحفة الاحباب ص ٤ ج ٤ هامش نفح الطيب . (٣) بدائع الزهور ص ٣٨ ج ١ ، ولد ابن اياس سنة ٨٤٢ هـ - ١٤٤٨ ، وتوفى سنة ٩٣٠ هـ - ١٥٢٣ م . (٤) النجوم الزاهرة ص ٤٨٢ . (٥) هنا نقص .

فيا ليت مارستانه نيط بإسته وما فيه من علج ·عتل مقلل
فكم ضجة للناس من خلف ستره تضج إلى قلب عن الله مقفل

ولما آلت الدولة الطولونية إلى الزوال بخروج شيبان بن أحمد بن طولون آخر ملوكها من مصر فى ليلة الخميس لليلة خلت من ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ، دخلها محمد بن سليمان الكاتب من قبل المكتفى بالله يوم الخميس لمستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢ ؛ فأمر بإحراق القطائع، فأحرقت ونهب أصحابه الفسطاط يومئذ ؛ فركب محمد بن سليمان ، فطافها وأطلق من فى السجون، وسكن الناس ؛ ودعا من الغد على المنبر لأمير المؤمنين المكتفى بالله وحده ، وصرف رجال الدولة الطولونية ـ من قضاة وقواد ـ عن الحكم ، وأخرج ولد أحمد بن طولون ـ وهم عشرون إنساناً ـ فلم يبق فى مصر منهم أحد يذكر ؛ فخلت منهم الديار ؛ وعفت منهم الآثار ، وتعطلت منهم المنازل ، وحل بهم الذل بعد العز ، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام .

فأخذ الشعراء فى رثائهم والتحسر عليهم ، فنظموا القصائد الطوال فى ذلك ؛ ومن هؤلاء الشعراء سعيد القاضى ، قال يرثى الدولة الطولونية وما شيدته من جلائل الآثار فى قصيدة مطلعها :

جرى دمعه ما بين سحر إلى نحر ولم يجر حتى أسلمته يد الصبر

إلى أن قال يرثى البيمارستان[1] :

ولا تنس مارستانه واتساعه وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
وما فيه من قوامه وكفاته ورفقهم بالمعتفين ذوى الفقر
فللميت المقبور حسن جهازه وللحى رفق فى علاج وفى جبر

إلى أن قال :

مآثر لا تبلى وإن باد ربها ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخر

الخ ... ؟

أحمد عيسى

(١) تاريخ مصر وولاتها ص ٢٥٦ .

الروح وماهيتهـــــا

للسيد محمد الحريرى

في السنة الاولى من حياة « المعرفة » الغراء ، ثلاث مقالات عن « الروح وماهيتها » ولم نتمها لظروف . والآن وقد أتيحت لنا الفرصة . نقدم هذه الكلمة وهى الختام ؟

الحريري

ما يمكن أن يرى من الروح

بهذا الاسهاب الذى قدمناذكره [1] لا يمكن لروح مقيدة بجسمها رؤية روح مجردة ، وفقط يمكن لروح مكتسبة بجسمها الروحانى البسيط أن ترى روحاً أخرى بجسمها الروحانى أيضاً ، وذلك فى حالات الانطلاق الروحى بأية صفة كانت ، أو التنويم المغناطيسى ، أو ما شابه ذلك ؛ بل إن كثيراً من المتعبدين والمأخوذين والصوفيين يرون أشباحاً نورانية من جملة العوالم ، كالجن ، والملائكة وسائر الأرواح المكتسبة بأجسامها الروحانية ، وقد نبه على ذلك كثير من الصوفية عند تحذير مريديهم عند دخولهم الخلوة ، ذاكرين الضار منها وغير الضار فى إتمام هذه الرياضة .

ثبت لأحد النائمين مغناطيسياً ، أنه أثناء نومه قتل أحد الحاضرين صرصاراً على الارض بأن سحقه بنعله ، فصاح النائم : إنى أرى روح صرصار تصعد إلى العلو ، فسأل المنوم هذا النائم عن شكل هذه الروح ، فقال : هى على شاكلة الصرصار بالضبط ، إلا أنها من نور ؛ كما أنه حصل ـ أيضاً ـ لأحد النائمين مغناطيسياً أن رأى بجوار أحد الحاضرين كلباً وصفه بشكل من نوع مخصوص ، وهو من نور ـ أيضاً ـ ، ولما سئل الشخص الذى كان بجواره ذلك الكلب ، قال : إنه صفة كلب له ، غرق ومات من يومين .

هذا الجسم النورانى الذى رآه النائم مغناطيسياً ليس هو الروح المجرد أبداً ، بل هو الروح لابسة جسمها الروحانى ـ السابق التعريف عنه ـ وهذا الجسم هو الذى يمكن رؤيته لأصحاب التنويم المغنط ، أو أصحاب الرياضات بجميع أنواعها ، وهو عبارة عن طيف وأشباح بعض الصالحين والقديسين ، ولكن تلك الأجسام الروحانية تختلف فى الرؤيا فى الصفاء وعدمه بحسب نقاء وفطرة الرائى ، فقد يرى شخص طيفاً نورياً شمسياً مثلا ، بينما يرى آخر

---

[1] راجع السنة الاولى من « المعرفة » ج ٦ ص ٦٠٦ و ج ٧ ص ٧٠٦ و ج ٨ ص ٨٤٢ .

طيفاً قمرياً ، أو ظلالياً إلى آخر التنوعات ؛ وهذا المشهد هو المسمى عند الصوفية بعالم « الظلال » .

هذه الأجسام الروحية هى على شاكلة الجسم ذرة ذرة ، ويمكنها أن تظهر فى الرداء الذى كانت ترتديه غالباً ، وذلك بمجرد الارادة ، كما بينا ذلك فى تأثير الروح فى الأثير ، بل يبلغ من قوة تأثير الروح فى الأثير ما يمكن أن تتخذ هذه الروح الشكل الذى تريده بمجرد الارادة ، وإن سهولة تشكل الأثير لارادة الروح كتأثر سلك الكهرباء من الضغط على (البطارية) المتصل بها،فينتج صورة ما ضغط بالضبط ؛ فعالم الروح يمكنه أن يتشكل بما يمكن لعالم الجسمانية أن يتخيله فى مخيلته،فقد جاء فى الأخبار الصحيحة : أن سيدنا جبريل كثيراً ما كان يظهر على صورة سيدنا دحية الكلبى الصحابى الجليل ... كما أن عالم الجن معلوم عنه أنه يتشكل بما يشاء فى أى صورة إنسانية كانت ، أو حيوانية ، وقد ذكر الأستاذ الدباغ الذى نقل عنه الحافظ أحمد بن المبارك — رضى الله عنهما — فى كتاب « الابريز » فى باب ديوان الصالحين،كثيراً من مثل هذا عند شرح كيفية تصرف الأولياء ؛ وأنه لا يمكن الاشراف على كنه الروح ما لم يعلم الانسان جميع العوالم المادية وأهلها طبقة طبقة .

أما حقيقة كنه الروح فلا يمكن أن ترى تمام الرؤية الاحاطية إلا بنفس ذات الروح عند مفارقتها جميع أثوابها والرجوع إلى عالمها ؛ وإن غاية ما يمكن أن يعلم أن ماهية الروح جوهر نورانى غير قابل للتقدير ، أو الوزن ، أو الحصر الخاص بالمادة،منافية لجميع ما هو معلوم،عاقلة عالمة بذاتها وبربها علماً ذاتياً بكليتها ، لانطباع جميع محيطاتها من عالمها فيها اندماجاً تقابلياً بالذات ، فينطوى فيها كل ما حولها انطواء الصور بالمرآة على أقرب تشبيه ، فتعلم بمقدار قوة إمدادها من أصل منزعها من النور الأول وأسبقيتها فى الرتبة والصفاء ، إذ أن لكل روح قوة علمية ، وهذا سبب نبوغ فرد عن فرد،ولو تساويا فى التعليم والوسط ، إلا أن أحدهما له من قوة روحه ما يزيد على قوة روح الآخر،وإلا تساوت أرواح الأنبياء بسائر الأرواح،وهذا ما لم يقل به أى عاقل،وقد أخبر الامام مالك — رضى الله عنه — أن الروح هى صورة نورانية على شاكلة الجسم . ومن خصوصية الروح عند صفائها من جسمانيتها بأى عامل من العوامل التى سبق تبيانها ، أن يفاض عليها بعلوم كثيرة كامنة فيها تستمدها من عالمها الأول الكامنة فيه جملة ما تفرع منه من سائر المعلومات التى حدثت فى العوالم المتفرعة منه ، وفقط يختلف الناس فى الافصاح عن هذه المعلومات ، وعدم الافصاح عنها باختلاف إمكان تصوير المعنى فى اللفظ .

ومن خصوصية الروح — أيضاً — الافاضة بعلومها على روح أخرى مقاربة لها فى الحالة

الانطلاقية . أما فى حالة النوم الطبيعى ، وهذا مشهور ومعلوم ، وقد أخبر الفيلسوف (سقراط) أن سائر علومه أخذها من هذا الوجه ، أو من التنويم المغناطيسى الحديث ، وهى المعبر عنه بالطريقة الاستيلائية ، فان المستولى عليه يتكلم بعلوم ولغات غريبة عنه إذا حصل له الصحو ، وهذه الحالة كثيرة الشيوع والذيوع عند الصوفية المتقدمين ، فقد ذكر الامام الشعرانى فى كتاب « الطبقات الكبرى » عند ترجمة سيدى عبد الرحيم القنائى ، أنه كان ينظر نظرة روحية لأحد العوام ، فيتكلم بعلوم غريبة ، فاذا ما تحول عنه عاد كما كان لا يدرى مما قال شيئاً .

ومن خصوصية الروح المد والجزر والسريان ، وقد تكون سبحات الروح للنائمين هى سبحات - أيضاً - لبعض المستيقظين ، فطرة فيهم واستعداداً طبيعياً ، وهم المعبر عنهم عند المتصوفة بأهل الكشف والشهود ، وعند علماء الروحانية الحديثة بأصحاب الانطلاق الروحى الطبيعى بلا أى علاج .

ومن نتائج التوجيهات الروحية - من الأرواح القوية للأضعف منها - شفاؤها من جملة أمراض عصبية جسمانية ، وقد شاع ذلك - قديماً وحديثاً - عند المتصوفة والروحانيين وسارت بذكره الركبان ؛ وتعليل ذلك سريان السيال الروحى من القوى إلى الضعيف فيمده بما يقوى سياله الروحى على تقوية الأعصاب ومنها إلى سائر البدن .

ومن خصائص الروح التشكل بأى صورة شاءت ، وذلك عند كبار المرتاضين ، فقد ذكر فى « الطبقات الكبرى » للشعرانى : أن « سيدى محمد شمس الدين الحنفى » دخل عليه شخص فى خلوته بغتة فوجده سبعاً عظيماً ، وذكر عن آخرين : أنهم كانوا يتشكلون فيلا أو غيره ، وحالة التطور هذه مشهورة عند من خالط أهل الرياضات ، وقد ذكرت حكايات مثل هذه عن الأطفال التوائم ، فقد قيل : إن بعضهم يتشكل بصفة (قط) ويسرح فى الدروب والحارات ، وكذلك ذكر عن بعض متوحشى (إفريقيا) و(الهند) : أن بعضهم يتصور بصفة (ضبع) أو (ذئب) ، ويفعل ما يفعله هذا الحيوان بالذات ؛ وفى التنويم المغناطيسى صورة من هذا بالصفة لا بالفعل ، فان قال المنوم للنائم : أنت طفل ، وهو رجل اتخذ صفة الأطفال فى الأقوال والحركات ، أو لو قال له : أنت ببغاء أو كلب لا تخذ صفة هذا الحيوان فى حركاته وسكناته ، وهذه حالة أولية للتشكل ، فان قويت أمكن اتخاذ الشكل ذاته تاماً كما بيناه ، كما أنه يمكن فى مخاطبة هذه الأرواح أن يفهمها أن السكر هو حنظل والعكس بالعكس ، فاذا ذاقه النائم تأثر بخاصية العنصر الذى أفهم به وتألم ، أو تلذذ حسب مذاقها ، بل إذا أفهمت روحه أن قطعة حجر هى نار ، ولمستها لاحترقت يدها ؛ وهذا هو المسمى

فى الروحانية بالايحاء الاستغوائى.

ومن خواص الأرواح إمكان التنويم الطويل ، كما يحدث عند روحاني الهنود ، فقد يناموں ويمكثون بضعة شهور ، ثم يستيقظون ، وفى هذا من الدليل ما فيه على صحة نوم أهل الكهف .

هذا ما عن لى تبيانه فى ماهية الروح بحسب ما جاء على لسان السلف والخلف من الصوفية وعلماء الروحانية ، رابطاً بينهما بالعلوم العصرية الحديثة والمكتشفات الغربية بما هو معلوم فى المادة ، مضيفاً إليها بعض مشاهداتى التى جرت فى كيفية إظهار بعضها لولا الأسباب العلمية التى تطورت أخيراً ، وكانت سبباً فى هذا الاظهار ، إذ أنى وإن كنت من المتصوفة ، إلا أنه يمكننى التعصب لأقوال الصوفية جملة دون هذا التطبيق العلمى ، وقد أردت فى هذا البيان أن تكون الافادة أعم لمن ذاق من منهل الطريقين : التصوف والفلسفة الصحيحة؟

محمد محمد الحريرى

عن الناشىء الأكبر أيضاً

قرأت ما كتبه الاستاذ محمود الخضيرى فى ص ٧٨٠ من هذه المجلة ، من الاستدراك فى أخبار الناشىء الأكبر ، وقد خرج عما اختلفنا فيه بذكره ما ليس بضرورى من كون الناشىء ، قد ألف فى الملل والنحل ، لأنى قد قلت فى ص ٧٥٣ س ٢ من « المعرفة » عن ابن خلكان : « ولم يذكر أنه نقض كتب المنطق ... ولكن إغفال ابن خلكان هذه الخصيصة لا يستلزم زوالها منه ، غير أنه يجب ذكر المصدر الأصلى » ، فذكر لنا الأستاذ الخضيرى عن مروج الذهب ٧ : ٨٨ ـ ٩ طبعة باريس « أنه ذكر فى قصيدته اهل الآراء ، والنحل ، والمذاهب ، والملل ، وله قدم فى العلوم » ، وهذا لا يدل على أنه نقض كتب المنطق ؛ ثم إن الاستاذ الخضيرى ، لم يحسن النقل ، فالذى كنا قد قرأناه فى المروج المطبوع بالمطبعة البهية بمصر ، كما فى « ٢ : ٣٤٠ ـ ١ » منه ، عن هذا الرجل « أنه هو الذى خرج عن تقليد العرب إلى باب التعسف ، والنظر ، ونصب العلل على أوضاع الجدل » لا الخليل بن أحمد ؛ ولهذا السبب قال فيه المسعودى « كان ذلك [أى الجدل] له لازماً ، ولما أورده كاسراً » ، فانتقده نقداً دقيقا ؛ وجدال الناشىء بالحجج المنطقية ، لا يفيد أنه نقض كتب المنطق ؛ فالمنطق شىء ، واتخاذه آلة للجدل شىء آخر ، ونحن كنا ندرى بما نقله الأستاذ عن طبعة المروج المفهرسة ، ويزيده ثقة بقولنا : إن الفرنجى المفهرس له نسى ذكر الناشىء مرة ثالثة كما فى ص ٥٠ من الطبعة المصرية الأخيرة ، فان ابن داود الأصبهانى ألف « الانتصار على محمد بن جرير ، وعبد الله بن شرشير ، وعيسى بن إبراهيم الضرير »؟

[بغداد] مصطفى جواد

المزارعون العارفون بالصناعات كلها!!

من مقال للكاتب الانجليزى المشهور

ويلفرد روبرتسن

عاش المستر ويلفرد روبرتسن الكاتب الانجليزى الشهير حوالى العشرين عاماً فى اقليم اللوماجندي من روديسيا ، واشتغل هناك كزارع يعنى بالاذرة والتبغ والقطن ، كما اشتغل بالقنص وصيد الوحوش الافريقية . وفى سنة ١٩٢٩ م عاد الى انجلترا غانماً رابحا من تجارته مبلغاً كبيراً . وبدأ الاشتغال بصناعة أخرى هى الكتابة الصحفية .

وفى هذا المقال الوصفى البديع يصور لنا الكاتب حياة المزارعين فى تلك الاقاليم النائية التى لا نعرف عنها شيئاً ، وهو منقول عن مجلة من المجلات الانكليزية . ؟ المحرر

فى التقارير الرسمية للأوربيين النازلين فى روديسيا ، أن كل من يشتغل بتربية المواشى يسمونه مزارعاً ، ولو أنه - فى الحقيقة - عارف بكل شى ، وليس بالزراعة فقط !

تراه يعيش فى فضاء من الأرض ، يمتد آلافاً من الأميال ، تتخللها أميال من صفوف الأشجار ، التى تتشعب بادئة من دائرة « المقر الأبيض » الذى يقطن فيه رب الطبيعة ، ثم تنساب خلال الفضاء مكونة حدوداً طبيعية ناضرة ، تدق فى اتساقها عن كثير من الحدود الصناعية والأسوار .

فى هذا الفضاء المترامى يعيش المزارع فى هذا الاقليم ، وقد أثقلته الطبيعة بجملة من المسئوليات ، لم تثقل به أى مزارع فى أى إقليم من الأقاليم الزراعية الأخرى التى وصل إليها التمدن ؛ فحتمت عليه أن يكون : طبيب أسنان ، وحداداً ، وضراباً ، ورجل بوليس ، وقاضياً يقضى ما بين الناس وبعضها من خصومات بالتى هى أحسن ، وقصاباً يذبح رقاب الحيوانات - المستأنس منها والمستوحش - ، وطبيباً وصفياً وجراحاً !!! وبالاختصار فان الطبيعة حتمت عليه أن يكون عارفاً بشتى الحرف والصناعات والمهن .

ولو أمكن لأحد سكان المدن أن يعرف شتى هذه الحرف والمهن والصناعات ، فلا شك أنه يجتنى منها أوفر الربح وأكثره ؛ على ان كلا من أولئك المزارعين فى روديسيا العارفين بشتى هذه المهن والصناعات يجتنى أيضاً أوفر الربح وأكثره ، لكنه ربح غير مادى ، بل هو

كسب روحى أو نفسانى أكثر من أى شىء آخر ؛ ذلك لأن المزارع يجد فى تنوع المهام، واختلاف نوع العمل ، البهجة التى يجدها رجل الحضر فى اتصاله بتعدد المحافل والمجامع ،مع أن فى تنقله كل ليلة بين شتى المجالس متعبة له وعناء .

***

ويوم المزارع الروديسى النازح يبـدأ بظهور خيوط الفجر فى الأفق الشرقى ، وهواء الصباح يحمل إلى غرف البيت المختلفة من نوافذها شذى الغابة المحيطة ، ودخان نار المطبخ الملحق بالبيت من الناحية الخلفية ، وهو فى بدء دواره ؛ وهنـا يدخل صبى المطبخ يحمل شاى الصباح ـ الذى لا غنى للأوربى عنه حتى فى غير بلاده ـ ، فما أن يراه المزارع حتى يكشف عنه غطاءه الشبكى ليشرب السـائل الساخن ، ويقفز من فراشـه إلى حيث سرواله القصير وقميصه(الـكاكى) فيرتديهما ، وهنا يكون ضوء النهار قد بدأ يسطع منتشراً فى الوادى كله ؛ فيدق الصبى ناقوسه الذى لا يعدو حد محراث بال يدق عليه بقطعة من الحديد الصدىء، والحد معلق إلى حائط فى الشرفة (الفيراندا) الخلفية .وليس الصوت الداوى الراعد الذى يصدر من هذا الناقوس البدائى إلا نداء للعمال الوطنيين الذين يشـتغلون فى المزرعة ، ليسرعوا ناظمين ـ من أنفسهم ـ صفوفاً تقف منتبهة فى انتظار تعليمات اليوم ، ولـكن ليس الصف لزاماً على كل المشتغلين فى المزرعة ؛ فأولئكم الذين يفتشون على الماشية ، وأولئكم الذين لهم أعمال معروفة دائمة ، والحوذية والنقلة ، لا داعى لأن يصطفوا مع المصطفين ، بل عليهم أن يذهبوا مباشرة إلى أعمالهم . أما الشراذم التى تنتظر مقدم « السيد » ، فهى تشكيلة بديعـة تشبه بحارة السفن التجارية ؛ وفى الفناء الأمامى يقف الرئيسان الوطنيان فى بزة متناسقة أنيقة تستلزمها تقاليد الرئاسة ، ولا يعارض فيها أجرهما العالى بالنسـبة للآخرين ؛ وقد تجمهرت خلفهما صفوف العمال فى أبسط أردية الطبيعة ، أو فى جلابيب قصيرة ، إذا رأيتها حسبتها شبكات مما يصطاد بها السمك، أو فى أردية لا تزيد على جوال ثقبت فيه عدة ثقوب للذراعين والرأس ، وفتح من أسفل ...

ثم يحضر « السيد » ويوجه الرئيسين الوطنيين ، وهذان بدورهما يوجهان الصفوف .

المزارع الطبيب

وفى بعض الأحيان يتضح من « تابور » الصباح أن أحد العمال متغيب ،وتثبت التحريات أنه مريض ؛ وهنا يكون على أحد الرئيسين أن يبحث عنـه ويأتى به ليحضر أمام الطبيب ، ويخرج « السيد » ، فيخف العمال ورئيساهم سراعاً إلى أعمالهم المختلفة ومهماتهم المتعددة .

ويغيب الرئيس المـكلف باحضار الغائب المريض،ثم يعود به ملفوفاً فى ملاءة قذرة،حيث يطرحه على الأرض أمام «السيد » أو الطبيب على حد سواء ، فينظر المريض إليه هزيلا ميئوساً فاقد الرجاء والأمل .

ويبدأ المزارع باستجوابه بلغته الوطنية على النحو الآتى :
المزارع — حسناً يا صاح ! ماذا أصابك ؟
المريض — إننى مريض جداً يا سيدى .
المزارع — آه ... فهمت ، ولكن أين تشكو ؟ الرأس ، أم الصدر ، أم الظهر ؟
المريض — (عند ما يسمع لفظة الصدر) نعم يا سيدى .
فيكون على الطبيب أن يقوم بالفحص ثم وصف الدواء .

ولكنه فى بادىء الأمر يفشل وتشكل الأمور عليه ، ولو أن كثرة التجربة والمزاولة تكون قد علمته كثيراً ، بحيث يستطيع - بعد عدة دقائق - أن يكون فكرة عامة عن نوع المرض، وفى الأغلب الأعم أن سواد المرضى لا تكون إصابتهم إلا بالملاريا، نظراً لانتشار البعوض فى تلك الأقاليم ؛ ومن ثم يسرع المزارع المستطب إلى بيته ، باحثاً عن زجاجة (الكينين) ، ثم يعود بها حيث يعطى منها جزءاً للمريض مع الارشادات اللازمة ، كأن يقول له : « يجب أن تأخذ حبتين من (الموديه) - اسم الكينين باللغة الوطنية - الآن » .

وقليل من الوطنيين يعرفون كيف يتناولون الأدوية على الوجه الصحيح ، وخاصة (البرشام) ، فانك ترى المريض يحبو نحو كوبة الماء التى يكون أحد زملائه قادماً بها ، فيضع فيها حبتين من النعناع ، ثم يعطى أسنانه خمس (برشامات) من الكينين يجرشها جرشاً ، ويقول فى تقص لهجته المستضعفة إلى الرئيس الوطنى: « دواء السيد هو دواء جيد ... فقط هو شديد على الذوق » .

ولقد مكثت هناك عشرين عاماً طبيباً متطوعاً ، أعالج العمال الوطنيين الذين يشتغلون فى مزرعتى ، أو يعيشون فى القرى المجاورة، أو من يجيئون إلىّ فى معسكرات الصيد وخيامه... كنت طبيباً متطوعاً أعالج كل مرض أو حادث يمكن أن يصاب به الرجل الافريقى ؛ وفى بعض الأحيان كنت أزاول مهنتى فى سأم وملل، وفى بعض الأحيان كنت أجد فيها لذة ومتعة وفرصة أخدم بها الانسانية فى طائفة من أبنائها ، ويحضرنى الآن عديد من النماذج التى كنت أصادفها - كطبيب - فى هذه الصحارى الخضراء ، أكتفى منها بذكر الثلاثة الآتية :

جاءت إلىّ فى عيادتى بمزرعتى ذات مرة امرأة من إحدى القرى القائمة إلى جوارى ، ومعها غلام يشارف العاشرة سناً ... ويحى ! أنهل أعطيها جزءاً من دواء الرجل الأبيض تستعمله لابنها الأسود ؟ وقدمت إلى هذا الطفل ، وقد دفعته إلى الأمام ، ثم كشفت لى عن ذراعه المتقيح كله . وحيث وقف الغلام تساقطت نقط صفراء بكثرة من ذراعه على الأرض التى ألهبتها حرارة الشمس ؛ فلم يسعنى بادىء ذى بدء - وقد أحزننى حال الغلام - إلا أن أسألها: لماذا تركته حتى ساء هكذا ، ثم فكرت فى أن تعرضه علىّ ؟ وماذا سبب له هذا الجرح

المتقيح ؟ فأجابتني بما يستفاد منه : أنه في ليلة من ليالي الأسبوع الماضي انزلق من فراشه إلى حيث كانت النيران وسط الكوخ للتدفئة؛ فقلت لها حانقاً: ولماذا لم تأتي إليَّ منذ حدوثها؛ وما كان أشد دهشتي عند ما سمعتها تقول لي في مزيج من صراحة وضراعة: لنا أدويتنا الخاصة وعلاجاتنا، نستخدمها أولاً، فإذا فشلت قدمنا إلى السيد الطبيب الطيب القلب؛ ووفق طبهم الخاص وعلاجهم فإنها لم تفعل لغلامها أكثر من أن تضع كمية من الأوحال على ذراعه في مكان الجرح المتقيح.

وهذا ما كنت ألاحظه دائماً ، فإنهم ينتظرون على المريض حتى اللحظة الأخيرة ، ثم يجيئون في طلب المساعدة والانقاذ؛ وعلى الرغم من تأكيدهم أنني أصرف الدواء مجاناً مع كافة الارشادات والتعليمات اللازمة لأهل القرى المجاورة ، سواء أكانوا ممن يشتغلون بمزرعتي ، أم ممن لا تربطني بهم صلة العمل ؛ وفي إهمالهم الشائن هذا ما يجعل العلاج أصعب خمسين مرة مما إذا كانوا جاءوا إليّ مباشرة بعد الاصابة ، كما أن الدواء يكلفني كثيراً ، نظراً لأنه يكون متعدداً بالبداهة .

وهكذا كانوا يجيئون إلي ، فأفعل من أجلهم ما أستطيع، وأبذل كل ما هو في مقدري ، وأصرخ فيهم عابساً أن يكرروا الحضور في صباح اليوم التالي ، وهكذا حتى يتم لهم الشفاء .

ومثلا آخر : هو أن رجلين جاءا إلي من قرية واحدة من الجوار ، بأحدهما جرح حديث بجانب رأسه ، وقد ربطه بخرقة من قماش وطني (هارذي) ربطاً ساذجاً، ولكنه نافع على كل حال ؛ أما الآخر ففي يده جرح من قدر مكسورة ؛ جاءا إلي معاً في وقت واحد ، فوقفت في حيرة ، ترى من أعوده أولا ؟ المنطق يحتم على البدء بذي الشج في الرأس، ولكن نظام (العيادات) يقتضي أن يكون ترتيب الكشف بالتسلسل ، إلا من يطلب مقابلة خاصة مستعجلة ، والأخير قد فعل هذا، ولم يفعله المصاب الواقع في الخطر؛ ولكني في النهاية عملت بما أوحى إلي المنطق ، فضمدت لذي الشج جرحه وانصرف ؛ ثم عرج إلى جرح يده ، فإذا بالجرح - على خلاف ما يبدو - ضحل غير عميق ، وسألته عن سبب الاصابة ، فبعد كثير من الاعياء فهمت أنه كسر - عن غير قصد - قدر ماء لكبير في قبيلة مما أهاج صاحبها ، ومما جعل صاحبنا يعتذر ويخرج من جيبه ما قيمته (شلناً) من العملة الوطنية، وقدمه إلى صاحب القدر على سبيل التعويض ، فرفض الأول وطلب (شلناً) آخر فوق الأول ، فأبدى صاحبنا عجزه ، فاغتاظ صاحب القدر وضربه في ظاهر كفه بقطعة منها حادة ، فأصيب بهذا الجرح الواسع على ضحله ، والذي لم يعتده الوطنيون من قبل ، فأسرع إلي يطلب البرء والشفاء ؛ وهكذا باع الرجل ذراعه بشلن ، وهكذا المال هو المعبود الأوحد حتى بين الزنوج .

ومثلا آخر : ذلك أن رجلا جاء إلي وضرسه يؤلمه ويريد أن يخلعه ؛ ولكنه جاء إلي بعد أن سرق إحدى (الزراديات) الخاصة بالدراجات ، وأعطاها لأحد مواطنيه على أن يشد له بها ضرسه فتخرجه ؛ وحاول المواطن ذلك ولكنه لم يفلح ، وأصيبت اللثة بتقيح أتى على أثره إلي مسرعاً، لأن مرض الأسنان عند الوطنيين نادر الحدوث، والتقيح لم يعرفوه في اللثة.

أما كيف يلعب المزارع الروديسي دوره كصياد وشرطي وبناء ومهندس وحداد ، فذلك ما سنحدثك عنه في العدد القادم .

حول مقال الدكتور طه حسين

عن حافظ وشوقى

بقلم الاستاذ محمد خورشيد
أستاذ الأدب العربى

ألقيت الآن من يدى هلال ديسمبر بعدماقرأت فيه مقال الدكتورطه حسين عن الشاعرين الكبيرين حافظ وشوقى ، ذلك المقال الذى رأيت فيه من الاضطراب الأدبى ما حدا بى إلى كتابة هذه العجالة خدمة للأدب والحقيقة .

قبل كل شيء لابد لى من القول بأن الكتابة عن شوقى وحافظ معاً ، ليست من الانصاف والعلم ، والتاريخ فى شيء ، لأنهما يتباينان جداً من حيث متانة اللغة ، والعبقرية ، والإنتاج ، والنشأة ، ولا أنكر أن فى وسع المؤرخ الأدبى المقارنة بين هذين الشاعرين ، ولكنه ينتهى من مقاله دون توفية الموضوع حقه ، لأن المقارنة شيء ، ودراسة الشاعر والبحث العلمى عنه شيء آخر .

يعترف الدكتور طه حسين فى مقاله بأنه كان يؤثر حافظاً على شوقى عندما كانا يرفلان بثوب الحياة ، وريد ـ وهو يملى مقاله ـ أن ينسى إيثاره حافظاً بالمودة والحب الخالص ، ثم يعترف بأن مؤرخ الآداب بنوع خاص يصعب عليه جداً التجرد من عواطفه ، وشهواته ، وميوله ، وأهوائه فى الأدب ، والفن ، ويقول : « واعلم بعد ذلك أنى إنما ذكرت عواطفى التى كانت تعطفنى على حافظ بالحب ، والمودة ، وتصرفنى عن شوقى بعض الشيء لتتم أنت ماقد أعجز عنه أنا من الانصاف ، ولتمحو أنت ماقد أتورط فيه أنا من الغلو والاغراق » .

فى هذه العبارات اعتراف صريح بإملاء عاطفته عليه مقاله فى حافظ وشوقى ، وهل من الممكن أن يتجرد الانسان من ميوله وعواطفه ويكبتها ما بين طرفة عين والتفاتتها ؟ كان يجب على الدكتور المحترم أن يستبدل الفعلين المضارعين بعد حرفى التقليل فى جملته الأخيرة بفعلين ماضيين ليؤكد لنا عجزه عن الانصاف وتورطه فى الغلو والاغراق .

ومما حيرنى فى مقال الدكتور قوله « تجديد شوقى يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد ، حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء ، لايتستر فيه ولا يحتاط ، ينشىء القصيدة ، فلا تحتاج إلى تعب أو مشقة ، لتجد القصيدة القديمة التى يحاكيها . سم هذا معارضة ،أو محاكاة أو تقليداً ، فذلك عندى سواء ، لأنه ينتهى إلى نتيجة

واحدة وهي أن الشاعر ، قد رجع إلى القدماء يلتمس عندهم مثله الأعلى »

تلك لعمري كلمات لايقرها المنطق ؛ وهل للكاتب الأديب أن يدلني على مفكر ينكر معه أن شوقي بنى مجده وارتقى إلى سماء العبقرية والخلود في غير أعوامه الأخيرة بعد عودته من المنفى في أسبانيا ؟ ومن من القدماء ياترى قلده شوقي في نظم الأغاني الخالدة التي كان لها الفضل الأكبر في تهذيب أذواق الناطقين بالضاد في القرن العشرين ؟ ومن ذا الذي يقول: إن روايات شوقي التمثيلية الثمان التي لم يسبقه إلى مثلها شاعر عربي آخر ، والتي نظمها بعد عودته من الأندلس ، هي تقليد ظاهر للقدماء ؟ .

أما قول حضرة الدكتور : إن كل قصائده في أعوامه الأخيرة تقليد ظاهر للقدماء فهو حري أن ينسب إلى مؤلفي الأقاصيص والخرافات ، لا إلى مؤرخي الأدب العربي ؛ لأن كلمة « كل » دقيقة الاستعمال جداً في التاريخ وقلما نجدها في كتب المؤرخين المدققين ، ولا أظن الدكتور طه حسين يجهل هذه الحقيقة البسيطة ، وهو الذي كان أستاذاً للتاريخ القديم في الجامعة المصرية قبل أن يصبح أستاذاً للأدب العربي فيها .

ألف شوقي بعد عودته من منفاه ، أي في مدة إثني عشر عاماً ونيف خمسة عشر مؤلفاً ، اربعة أخماسها مؤلفات شعرية[1] كما روى أمين سره السيد أحمد عبد الوهاب ؛ فهل لحضرة الدكتور أن يدلنا على الكتاب الذي قلد به شوقي القدماء ؟ اللهم إلا كتابه أسواق الذهب الذي قلد به القدماء في سجعهم ، وبذهم من حيث سهولة اللغة ، وسمو الفكر والخيال لحبذا لو أتبع الدكتور طه حسين المجدد طرق المجددين في الأدب ، ودعم كل حقيقة ذكرها بما يؤيدها من البراهين ، والحجج الدامغة لأن المجددين لا يليق بهم إرسال الكلام على عواهنه .

ثم نرى الدكتور طه حسين ينعى في مقاله على شوقي عدم مقارعته خصومه ، وعدم نهوضه لمخاصمة ناقد من نقاده ، وأنا أرى في سكوت شوقي عن مناوئيه ، وإهماله أمرهم

---

(١) مؤلفاته المطبوعة : هي الشوقيات : جزءان ، وروايات مصرع كليوباترا ، ومجنون ليلى ؛ وقمبيز ، وعلى بك الكبير ، وعنترة ، وكلها شعرية .ورواية : أميرة الأندلس النثرية ، وكتاب أسواق الذهب النثرى . أما مؤلفاته التي سيباشر طبعها فهي كتاب عظماء الاسلام (نثر) ، والشوقيات الجزء الثالث والجزء الرابع ، وروايتا :السيدة هدى ، والبخيلة ، وكشكول جامع لقصائد لم تنشر ؛ وقصائد سهلة للأطفال ، والأغاني الخ ، وربما استوعب الكشكول وحده ثلاثة مجلدات .

أنجع وسيلة للرد على هؤلاء، لأن شوقى إذا انحدر من عليائه إلى مستوى خصومه، وقارعهم مقارعة الند للند، ينبه من شأنهم، الأمر الذى كانوا يرجونه من وراء تلك المناوأة؛ وهم لم يتعرف إليهم الناس إلا عند ما بدأوا التعرض لشوقى وهاجموه من كل جانب مسرفين فى النقد والذم؛ ورغم سكوت شوقى، نبه ذكرهم، وظل شوقى فوق عرش إمارته السامى الذى لم يهن، ولم يتزعزع، وها هو ذا شاعرنا النابه، قد قضى فتهافت الأدباء على رثائه والإشادة بذكره وفضائله لأن الشعراء النابغين تبدأ حياتهم يوم يتغمدهم الله برحمته، وكلما مرت الشهور والأعوام على وفاتهم ارتفع قدرهم، وظهرت للباحثين المنصفين نواح جديدة من عبقريتهم ونبوغهم، ولنضرب لك مثلا: المتنبى الذى لم يسلم من خصوم ألداء حياً وميتاً، ولم يعترف له بالامتياز على من سبقه، وعاصره من الشعراء إلا بعد إذ قضى معاصروه ومنافسوه، ووكل أمر الكتابة عنه إلى أناس يملى عليهم عقلهم لا عاطفتهم، أناس يكتبون للتاريخ لا للتزلف إلى زيد أو عمرو، إكتسابا لرضى، أو توصلا إلى مغنم، وربما نال شوقى فى حياته إعجابا، لم ينله سواه من شعراء الضاد الذين سبقوه، وسنرى الأبيات الحكمية التى يتداولها الناس الآن من نظم شوقى يضطرد ازدياد عددها باضطراد البحث فى شعره، والأعوام المقبلة كفيلة بتحقيق ذلك، وأظن حضرة الدكتور الأديب يقرنى على هذا الرأى.

ويختتم الدكتور طه حسين مقاله عن حافظ وشوقى بقوله: «هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات المتنبى، وأبو العلا من غير شك»، فهذه الجملة أملاها حضرة الأديب دون تحفظ، إذ ماهى الصلة والظروف التى تجمع شاعرى القرن العشرين بالمتنبى وأبى العلاء؟ وما هو المقياس الأدبى الدقيق الذى نستطيع أن نقيس به شاعرية شاعر بآخر دون أن نضل سبيل العدل والإنصاف؟ فالظروف التى عاش فيها شاعرانا غير الظروف التى عاش فيها المتنبى وأبو العلا، وعصر الآخرين غير عصر الأولين، وهم يختلفون جداً من حيث الانتاج الأدبى قدراً ونوعاً، هذا فضلا عن أن كلا من هؤلاء الشعراء الأربعة، لا يمكن أن يقارن بالآخر لكثرة التباين بينهم، وربما نغمط بعض الشعراء الذين جاءوا بعد أبى العلاء حقهم إذا فضلنا عليهم «حافظ إبراهيم»، وربما نغمط شوقى قدراً إذا فضلنا عليه أى شاعر عربى آخر، ولو اتسع لنا المجال فى هذه العجالة لكنا أبدينا رأينا الصريح فى هذين الشاعرين مؤيداً بالبراهين والأدلة، ولكننا نترك البحث عن حافظ إلى الأعداد القادمة من مجلة المعرفة الغراء، ونترك شوقى إلى المقال المفصل الذى سنكتبه عنه فى الكتاب الذى سيجمع فيه معظم ماقيل فى مير الشعراء فى جميع الأقطار العربية، والذى سنباشر طبعه قريباً.

ولا بد لى قبل اختتام المقال من إبداء رأى أظننى مصيباً فيه، وهو: أن يترك إخواننا

المصريون الآن البحث فى شعر شوقى ، والكتابة عنه إلى أقطاب الأدب العربى فى الأقطار العربية الأخرى ؛ لأن العاطفة تملى على أنصاره وخصومه من المصريين ، بحيث يساء إلى تاريخ الأدب العربى الذى يجب أن يكون منزهاً عن المحاباة والانتقام ، وأعترف أنى أسأت بقولى هذا إلى عدد من الأدباء المصريين المنصفين الكرام ، ولكنهم فى نظرى أقلية ، والقليل لايقاس عليه ، والأدباء غير المصريين ، الذين تربطهم والفقيد أواصر الصداقة ، ولم يتأكل الحسد أفئدتهم ، هم - فى اعتقادى - أنزه فى إصدار أحكامهم على شوقى من سواهم ، وها هو ذا الدكتور طه حسين الذى يعتبر زعيما من زعماء الأدب يعترف بأن العاطفة أملت عليه ما كتب ، أما الفئة التى أتوسم فيها إنصاف الشاعر الراحل من كل نواحى أدبه ، فهى فئة الأدباء الذين ضربوا بسهم وافر فى «الشعر والنثر» معاً ، لأن الشاعر أدرى بفن القريض : حسناته وسيئاته من الناثر .

هذا ما عن لى كتابته من الملاحظات البريئة على مقال حضرة الدكتور طه حسين وجل من لا يخطىء .

محمد خورشيد

استـــــدراك

سيدى الأستاذ المفضال

أشكركم على ما تقومون للعلم والأدب والثقافة الاسلامية والصحافة المصرية من خدمات جليلة ، وبعد فانى ألفت نظر حضرتكم إلى ما وقع فى كلمتنا التى تفضلتم بنشرها فى عدد ديسمبر من «المعرفة» من الاختلاط بين آيتين من القرآن الكريم ، ويدفعنا ويدفعكم الحرص على كتاب الله تعالى إلى وجوب تصحيحها ، فقد جاءت الآيتان بالصحيفة رقم ١٠٠٧ على هذه الصورة :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

والصواب ما يلى :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ؛ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

فنرجو من حضرتكم أن تتكرموا باستدراك هذا الخطأ ، الذى نعتذر عن حصوله بأننا كنا نكتبه على عجل .

سيد أحمد فهمى

الثقافة بين الشرق والغرب

للأستاذ أمين فهمي أحمد

ألقى جناب (سير ا . دينسون روس Sir E. Denison Ross) مدير الدراسات الشرقية بجامعة لندن محاضرة فى « الثقافة بين الشرق والغرب » باللغة الانجليزية فى قاعة (يورث التذكارية) بالجامعة الامريكية مساء يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، وألقى حضرة الاستاذ الدكتور «منصور فهمى» أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية فى نفس القاعة عند الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٣٢ محاضرة فى « التراث الفكرى للثقافة الشرقية » باللغة العربية، وقد رأيت أن الخصهما تلخيصاً شعرياً موجزاً فى الأبيات التالية :

***

بين أهل العلم خلف ونقاش ونضـــــال
فى ثقافات نراها ، هل هى السحر الحلال ؟
قد سرى للشرق قدما أم إلى الشرق المآل
والهدى فى الغرب أصل لابتكار ما يزال
كل يوم فى صعود بعده ليس محـــــال
أن نرى الغيب شهوداً أم على الرأى الضلال ؟

***

« دنيسون » قام وجلى رأيه ، ما حل حلا !!
قال ياحيرة نفسى أى هذين المعلى ؟
حينما يبدأ شرق ذلك الغرب تدلى
حينما يبدأ غرب ذلك الشرق تجلى
ليس بين العلم شرق لا ولا غرب تولى
إنمـــــا هم قسموه قسمة التاريخ أصلا

***

قال « منصور » تعالوا نبحث الرأى المبينا
فليقولوا الشرق مصر أو يقولوا الصين حينا
أو يقولوا الهند شرق ليس هذا ما عنينا

حسبكم حيرة « رس » حين أبدى ما روينا
إنما الشرق قديماً كان مهداً ومعينـا
للديانات جميعـاً والهدى منه يقينـا

***

وانظروا الان « لغاندى » فى محجات بيانه
قبلما الحرب وبعد الـ حرب فى فيض جنانه
قال : إن الغرب مهما نصروه ، فى هوانه !!
ضل بالشيطان لمـا قد نسى روح أمانه
ثم من « تاغور » قول مثله فى ترجمـانه
قال « جبران خليل » عزفنا غير (بيانه)

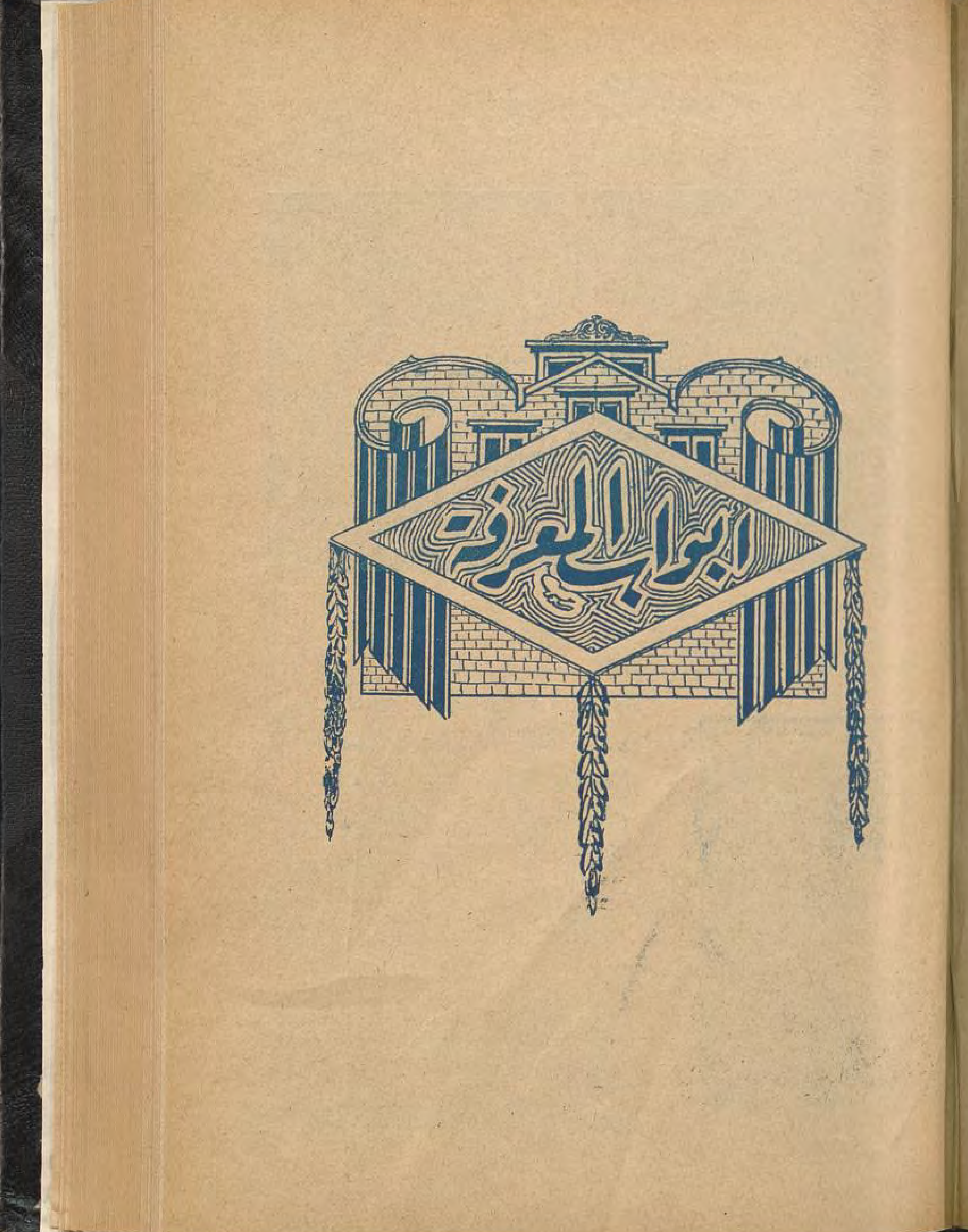
***

هكذا « منصور » أدلى ببيان قد سمعنـا
قال : للمشرق نقد فيه للأديان معنى
وهو كالروح لغرب لايلقاهـا المعنى
ذلك القسم جليا كان فى الناس وكنا
فرقة الالهـام قرت فى مجاليها ، وجلنا
فرقة أخرى تبدت فى كفاح لم يعسنا

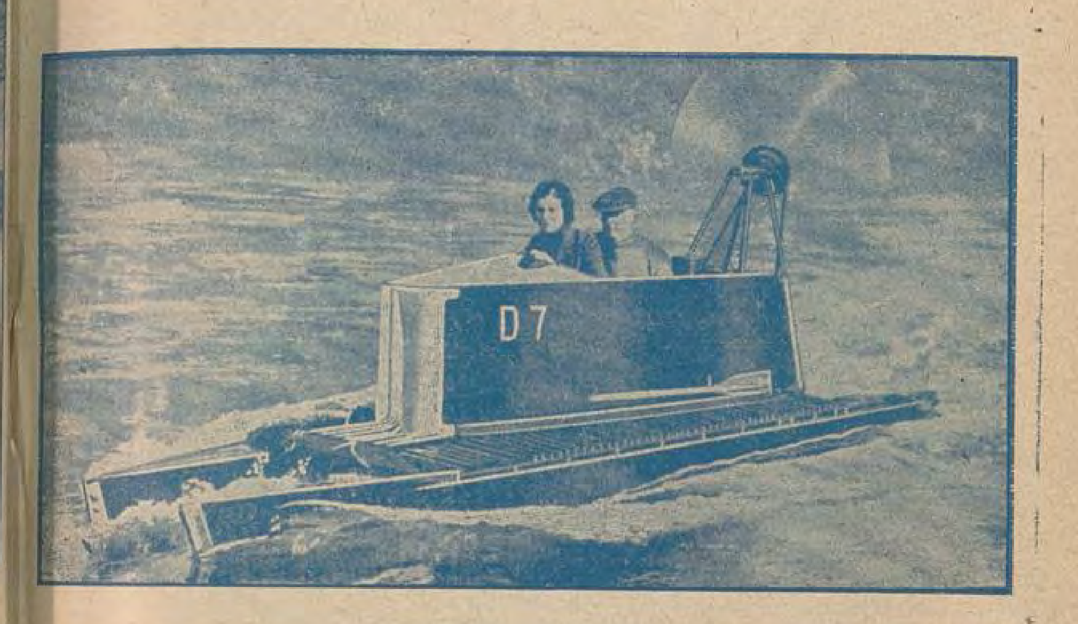
***

قسموها نزعتـين واهتدوا للفرقدين
نزعة الباطن تغنى عن دناهم دون مين
نزعة الأسباب تغرى بافتتان الأصغرين
بالمبانى والمعـانى فى حدود المقلتين
بينما الباطن يوحى دون تحديد وأين
من فيوض وتجل مابه قرة عين

أمين فهمى أحمد


ابواب المعرفة

العلوم والفنون



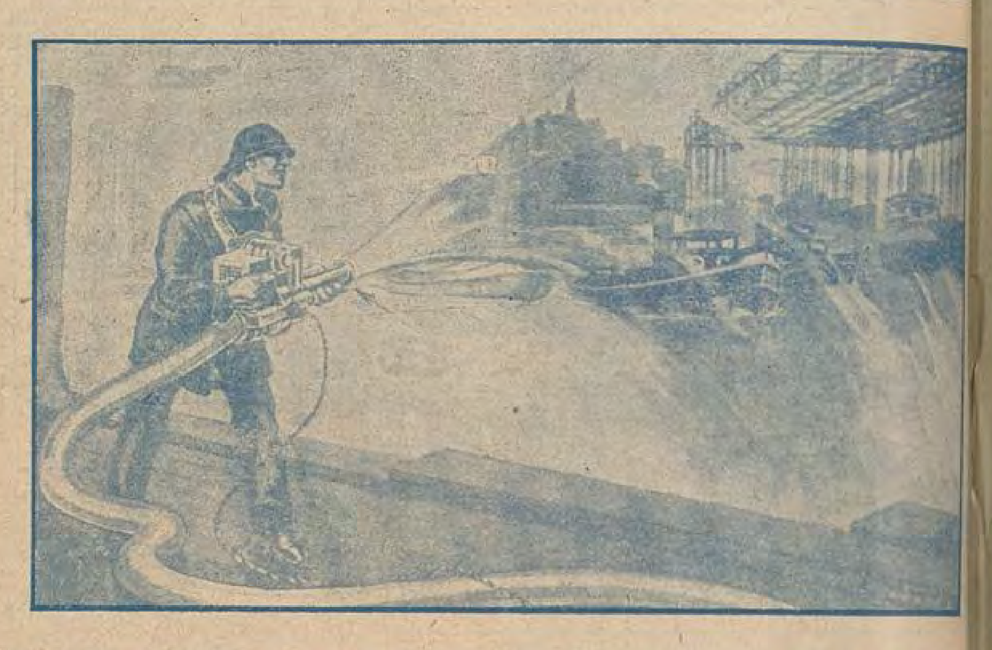
قارب بخاري للمياه الضحلة

على الرغم من تلك المساحات الواسعة من الأرض التى اكتشفت حديثاً فما يزال هناك الكثير من الأرض لم يعرفه الانسان بعد ، ذلك نظراً لأنه محوط بمياه ضحلة يتعذر على القوارب البخارية العادية المرور بها ، وهذا ما حدا ببعض المهندسين إلى اختراع القارب البخارى الذى ترى صورته فوق هذا الكلام ، وهو يسير بمحرك طيارة وبماكينة قوة ٧ أحصنة ، وميزته أنه يستطيع أن يسير فى الماء الضحل بسرعة هائلة ، ولو كان عمق تيار الماء ثلاث بوصات فقط !!



قلع للسباحة

تمثل هذه الصورة قلعاً حديثاً يثبته راغب السباحة إلى وسطه ثم يسبح ما شاء على شرط وجود الهواء .

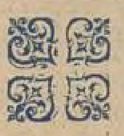


جادت قريحة أحد المصورين بهذه الصورة التي لا يستبعد العلم تحقيقها ، وهي تمثل جهازاً خاصاً ... ق بأضواء صناعية على الموانيء فينيرها ، مذهباً عنها ما يكون اعتورها من ضباب .

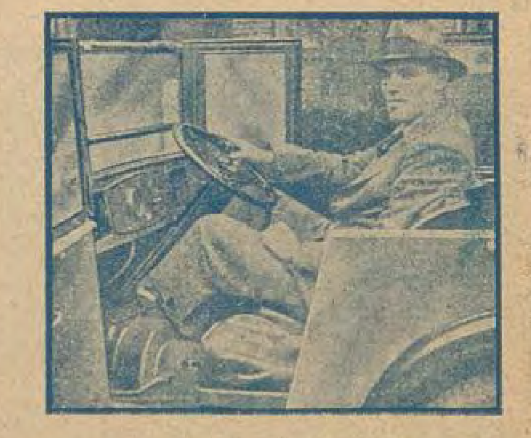


مكتبة متنقلة في المستشفيات

يمكن للمرضى في مستشفى جامعة (جورج ... شنجتون) في مدينة واشنجتون ، أن ... خذوا ما يريدون من الكتب من مثل هذه ... لمكتبة المتنقلة التي تراها في هذه الصورة ... وما من شك في أن الكتاب خير جليس ... للمريض ، كما قالوا قديماً .



سيارة دون تروس تعشيق



السيارة التى ترى صورتها فى أعلى الصفحة ، تمشى بغير (تروس تعشيق) ،والسرعة تنظم فقط (بفرملة) الرجل ، وطبعاً فان قيادة هذه السيارة تـكون آمن من قيادة ذات التروس، نظراً لأن اليدين تخصصان فقط لادارة (الديركسيون) .

مظلة من الورق



تمثـل الصورة نوعاً طريفـا من المظلات، مصنوعاً من بعض أوراق النباتات التى تنمو فى أحد الأقاليم الاستوائية ـ وقد غمر الأسواق السكسونية لبساطته ورخص ثمنه .



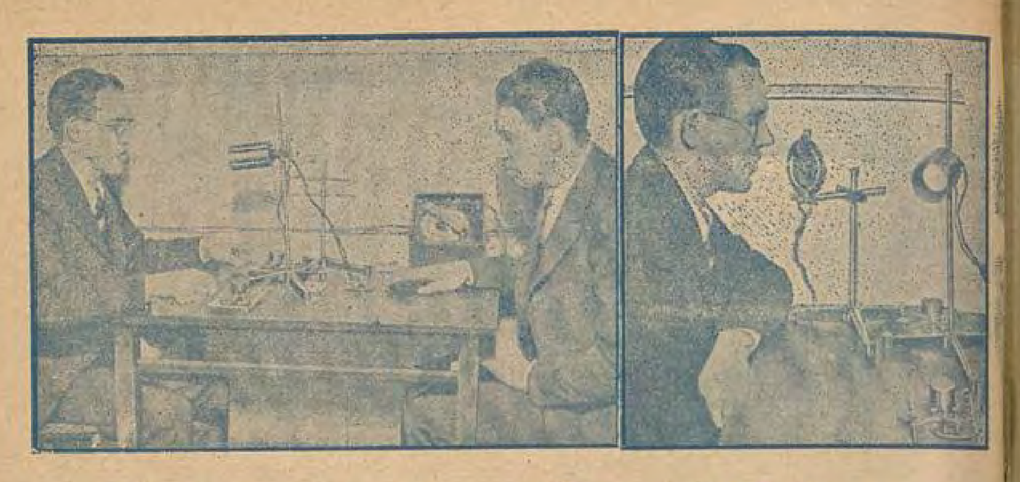


هذه صورة (الدلفين) أكبر غواصة فى الولايات المتحدة وهى مجهزة « بقارب سيارة » له (جراج) خاص يوضع فيه على ظهرها فى حالة عدم استعماله ، وفى حالة الغطس ؛ فان المياه لا تضره، نظراً لأنه « ذو مناعة ضد الماء » .

أشعة اكس
جهاز جديد للتداوى



تمثل الصورة جهازاً جديداً يلبس بالرأس ، ثم تسلط عليه أشعة إكس فيسهل التداوى بها .



انتقل علم النفس فى الأيام الأخيرة من دائرة البحوث الفلسفية النظرية إلى دائرة التجاريب العلمية التى تستخدم لاجرائها شتى الأجهزة والأدوات الحديثة . وتريك الصورة جهازاً جديداً لقياس الذكاء وتفاوت درجات التفكير .





أنموذج مكبر من نوع من الكاميرات السينما توغرافية البحرية . والكاميرا موضوعة داخل خزانة من المعدن الثقيل وتستعمل مباشرة بأن يوضع تحتها الحامل ذو الثلاث قوائم على قاع المحيط .

لاغاظة اللصوص !!



يرى القارىء فى هذه الصورة جهازاً جديداً يغيظ لصوص البنوك كثيراً !! ذلك لأن ضربات القلب الانسانية (وهى هنا ضربات قلب اللص) تجعل جرساً فى هذا الجهاز يدق . وذلك عند ما يقترب اللص من قفص البنك . !!

مملكة المرأة والبيت

الزواج السعيد

أحدث قراء « المعرفة » هـذا الشهر عن الزواج وكيف يمكن أن يؤدى بالزوجين إلى السعادة ، التى هى إربة الجنسين من هذه الحياة الدنيا .

والمرأة إذا تحدثت عن الزواج ، كان معنى ذلك أنها تتحدث حديثاً صادقاً ، لا تعتوره الريب ، ولا تخامره الشكوك ، ذلك لأن البيت وتكوينه هو مهمتها الأولى والأخيرة من الحياة ، وكاذبة دعية جاهلة تلك التى تقول: إن المرأة خلقت لغير المنزل وحياة المنزل؛ والقارىء إذا سلم معى بأن الطبيعة بقانونها الاجتماعى الأعلى قضت بالتزاوج ، كان لا بد له أيضاً أن يسلم معى بأن فى التزاوج معنى التقسيم . . . وليس التقسيم إلا تقسيم « الجهود » التى تبذل فى سبيل تكوين البيت والأسرة ، أو نظام الأزواج ، سمه كما تشاء ... وللميزات الجسمانية والعقلية التى خص بها الرجل دون المرأة ، فقد أرادت الطبيعـة له أن يقوم بالجزء الأشق والأتعب من خصائص هذه الشركة ، وتركت للمرأة مهمة أخرى من هـذه الخصائص ، هى مهمة إدارة مركز هذه الشركة . . . هكذا أرادت الطبيعة فى نظام التزاوج ؛ وعلى هـذا الأساس يجب أن يسير الزوجان ، لكى يعيشا سعيدين ، وبمعنى آخر لكى يستمتعا بكل ما فى الزواج من متعة مشروعة .

وطبعاً فليس بى من حاجة لأن أذكر لقارئاتى وقرائى الكرام ، أن نظام « التكافؤ الاجتماعى » يجب أن يراعى فى مسألة الزواج،فعلى أساس مراعاته ، أو عدمها ،توجد السعادة المنزلية ، أو تنعدم .

ومن مقتضيات « قانون التكافؤ الاجتماعى » فى الزواج ، ألا يقترن الفتى إلا بفتاة ، والرجل إلا بامرأة ، والأرمل إلا بأرملة ، والغنى إلا بغنية ، والفقير إلا بفقيرة ؛ ذلك لأن كلا من الحالات السابقة تستلزم لصاحبها درجة خاصة من « المستوى الاجتماعى » ، يضايقه كثيراً أن يتحول عنها إلى أقل منها ، وهو إذا ارتفع إلى مستوى أعلى غير عارف بتقاليده وأوضاعه ، فانما يسير فيه أعمى فاقد الادراك ، ومتى اجتمع العمى وفقدان الادراك ، فعلى السعادة السلام .

والآن عندنا شاب وشابة ، عندهما تكافؤ اجتماعى،وربط بينهما رابط الحب ، أو رابط الخطوبة الوالدية ... وكل منهما ينتظر أن تؤاتيه سعادة الدنيا كلها عند ما يكون مع الآخر جنباً إلى جنب ... وقد يكون أحدهما تعرف إلى الآخر نفساً وخلقاً ، وقد لا يكون هذا ، ذلك ما لا يهم الآن . . . وما هى إلا أيام حتى يكون الزفاف ، وتبدأ الشركة بدأها العملى ،

وعلى التدريج تزاح أستار التحفظ ، وينكشف كل من الطرفين للآخر ، بما فيه من محامد ومنفرات ، لا تلبث على توالى الأيام ، حتى تغلظ وتزداد ، وهنا يدخل كل من الطرفين « رتوشاً » على الصورة التى كان يرسمها فى مخيلته عن الطرف الآخر ، وهنا أيضاً يكون من واجب كل من الطرفين أن يأخذ بما فى الآخر من محاسن ، ويحاول أن يسدل ستراً كثيفاً على ما فيه من نقائص ... ويبدأ بوضع نظام يسير عليه فى حياته مع الطرف الآخر ، على مقتضاه يمكن أن توجد السعادة ، حتى مع دمامة الخلقة ، أو حدة الطبع ، أو ضعف الكسب ، أو القوة الجسمانية ، أو العقلية .

وفى كل من الجنسين ، قلما يوجد اثنان يتفقان فى محاسنهما ، أو فى عيوبهما ، ومن هنا يكون من المستحيل وضع نصائح مجدية .

إلا أنه لوحظ أن الزوج يحب من زوجته فى الغالب :

١ — أن تحترمه — ولو احتراماً ظاهرياً فقط — خاصة أمام الناس .

٢ — أن تخلص له العاطفة من كل قلبها .

٣ — أن تظهر له اهتمامها به عن أى إنسان عداه من الرجال ، حتى إخوتها .

٤ — أن تعمل ، وتقدم له كل ما تثبت التجربة ميله إليه .

٥ — ألا تظهر أمامه إلا نظيفة جميلة على قدر الامكان .

٦ — ألا تستقبله إلا هاشة باشة ، مرحبة مؤهلة .

٧ — ألا تخصص يوم راحته الأسبوعية لغسل ، أو عجن ، أو تنظيف المنزل .

٨ — أن تحافظ على مواعيد عمله وخروجه ، فتوقظه فى الوقت المناسب وبالأسلوب المناسب .

١٠ — أن تخصص نفسها لبيتها وأولادها ، ولا تخصص نفسها لزيارة جاراتها وصويحباتها .

كما لوحظ أن الزوجة تحب من زوجها :

١ — أن يظهر حبه لها فى كل الفرص والمناسبات .

٢ — ألا يسيئها بكلمة واحدة أمام الضيوف .

٣ — أن يظهر اهتمامه بها عن أى مخلوقة عداها من النساء ، ولا يستثن لأخته .

٤ — أن يسرع باحضار كل ما تطلبه منه : من ملبوسات ، وحلى ، وزينة .

٥ — ألا يقطب وجهه فى حضرتها .

٦ — ألا يتأخر عن موعد غدائه أو عشائه .

٧ — ألا يتأخر خارج البيت إلى ما بعد التاسعة .

٨ — ألا يتنزه دون مصاحبتها إياه .

٩ — أن يلازمها داخل الدار وخارجها ، كما تلازمه عصاته .

١٠ — أن يكون فتى القلب ، ولو شاخت سنه .

وأغلب ظننا أن زوجين يراعيان ما تقدم يمكن بسهولة أن يعيشا سعيدين . (س)

مكتبة المعرفة

نهج الانشاء

أهدانا الأستاذان الفاضلان : محمد على أبو شنب ناظر مدرسة المعلمين الأولية الأميرية فى بنى سويف ، ومصطفى محمد ابراهيم المدرس بالمدرسة المحمدية الابتدائية الأميرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية - المزيدة والمنقحة - من كتابهما « نهج الإنشاء » ؛ وقد قرأناه فوجدناه محاولة لا بأس بها ، تساعد الطلبة كثيراً على تفهم طرائق الإنشاء والكتابة ، مما نشكر لأجله الأستاذين الفاضلين .

ولكن لنا بعض ملاحظات فى تدريس الانشاء العربى بالمدارس ، كنا نود لو التفت إليها المؤلفان ... إذاً لوصل منهجهما حد الكمال .

فنحن نلاحظ - مثلا - أن الأساتذة ما يزالون يجرون فى تدريس الانشاء على الطريقة القديمة (غير المباشرة Indirect) ، وهى طريقة ثبت فسادها وعدم ملاءمتها للطلبة فى هذه الأيام ، بخلاف الطريقة الحديثة المباشرة (Methode Direct) التى نجحت نجاحاً كبيراً فى الوصول بالطلبة إلى استنتاج كثير من المعلومات والحقائق، التى كان المعلم يجد صعوبات كثيرة فى تفهيمها لهم عن طرق الكتب والأسفار الصماء العقيمة .

ونلاحظ أيضاً أن مدرسى الانشاء العربى جروا على أن يطلبوا إلى تلاميذهم الكتابة فى موضوعات تنبو عنها أفهامهم ومداركهم، ولا تستسيغها بحال ما ؛ كأن يطلب إليهم الكتابة عن حكمة من الحكم، أو مثل من الأمثال، أو بيت من الشعر لزيد أو عمرو من الشعراء، مما يكون مدعاة لاضطراب الطالب فى كتابته ، فينشأ وهو لا يعرف كيف يعبر عن مكنونات نفسه ، وينشأ ، وهو لا يعرف كيف يكتب خطاباً ارتبطت جمله بعضها ببعض ! ، وما لهذا الغرض كان تدريس الانشاء !

ونلاحظ أيضاً أنه حتى أولئك الذين يستعملون الطريقة المباشرة - وهم أقلية ضئيلة - يعمدون فى بعض الأحيان إلى تكليف الطلبة بالكتابة فى موضوعات لا ترتاح نفوسهم إليها، وقد يعجز الأديب المختص عن وصفها أو الكلام عنها ؛ كأن يطلبوا منهم وصف نخلة ! ماذا يعرف الطالب الصغير فى علم النبات أو فى الخيال العالى حتى يستطيع أن يصور لنا النخلة تصويراً يلذ من يقرأه أو يطرب لسماعه ؟

وهناك ملاحظات أخرى قد نفرد لها مقالا خاصاً ، كما نرجو لو أتيحت الفرصة للمؤلفين الفاضلين ، ليخرجا لنا نهجاً جديداً على الطريقة المباشرة الجديدة .

محاضرات محفل فرعون

أهدى إلينا محفل فرعون كتاباً بهذا العنوان ، يقع فى ٩٦ صفحة من القطع المتوسط ، ويحتوى على المختار من المحاضرات التى ألقيت من كبار الأدباء بالدار الماسونية المصرية ، من طبع المطبعة الأهلية بالاسكندرية وثمنه ٢٥ مليماً .

والكتاب - على صغره - له قيمته، فقد حوى كلة من رئيس المجمع فرج جودة ، يشرح فيها فكرة الماسونية ؛ ثم محاضرة فى المناعة الاجتماعية للأستاذ محمود عوض البحراوى منبه أول المحفل، ثم أخرى فى الأخلاق للزميل الفاضل الأستاذ زكريا أحمد رشدى صاحب جريدة «الرشديات» الغراء، تكلم فيها ضمن ما تكلم عن وجود النفس وقواها المختلفة، وتكلم أيضاً عن أخلاق النبوة باعتبارها المثل الأعلى فى الأخلاق؛ ثم محاضرة عن واجب الأحرار فى الشرق للأستاذ فيلكس فارس رئيس قلم الترجمة ببلدية اسكندرية ، وختمها بشىء عن الماسونية فى بلاد الغرب، وعن الفكرة الخالدة والمدنيات المنقرضة؛ ثم محاضرة فى علم النفس للأستاذ محمد مظهر سعيد، من حيث تاريخه وتطوراته وأبحاثه ، وأن الفلاسفة والحكماء ظلوا زمناً طويلا يخلطون بين المنطق والنفس والأخلاق ، وكيف أن علم النفس صار فى عداد العلوم التجريبية ، بعد أن كان جزءاً من الفلسفة ؛ ثم محاضرة فى علم الاجتماع لمصطفى فهمى ، بدأها بفكاهة لذيذة عن علم الاجتماع ومحاولة العلماء نسبته إلى أفلاطون أو أرسطو ، وأشفق على هذين الفيلسوفين أن ينسب إليهما كل ما هب ودب من العلوم .

وتؤيد « المعرفة » فكرة طبع المحاضرات التى تلقى فى مصر فى المحافل العامة ، ليمكن أن ينتفع بها من لم تساعدهم ظروفهم الخاصة على حضورها .

المناصب ومكائد الرابطة

رسالتان خطيرتان من جاوة

طبعهما ونشرهما السيد حسن بن جديد الحبشى: لابوان حاجى

حمل إلينا البريد الشرقى الأخير كتيباً بالعنوان المتقدم ، يقع فى ثمان عشرة صفحة من الحجم الكبير ، ومطبوع فى مطبعة الوحدة فى حضرموت .

يحتوى هذا الكتيب على مقدمة ورسالتين :

أما المقدمة ففيها شرح لموقف حزب الارشاد ورجاله من السادة الباعلويين ، والنهضة العربية فى المهجر ، ومنها يفهم أن حزب الارشاد - الذى أعلن فى برنامجه الرسمى أنه لم ينشأ لأغراض سياسية - قد لعب به رؤساؤه ، وأداروا دفته إلى الأعمال السياسية ، التى تنحصر فى معاكسة الهيئات الحاكمة ، وذوى المناصب الرفيعة من الباعلويين ، مع أن للباعلويين على

زعماء هذا الحزب خيراً كثيراً ؛ وتحوى المقدمة أيضاً طعناً فى زميلتنا جريدة « حضرموت » الغراء .

وأما الرسالتان : فأولها مرسلة من عيسى وسالم الحبشى إلى أخيهم السيد حسن الحبشى ، والأخرى رده على الأولى ؛ وفيهما يجد القارىء « كثيراً من الحقائق ، وصورة مصغرة للحياة فى حضرموت ، ومجرى الخلاف الواقع فى جاوة ، وعلى من تلقى المسئولية » .

اللصوص

للفيلسوف الشاعر الألمانى فردريخ شلر

تعريب الأستاذ عبده حسن الزيات

أهدى إلينا الأديب «عبده حسن الزيات» نسخة من رواية اللصوص، تأليف شاعر الألمان وفيلسوفهم فردريخ شلر ، قام هو بتعريبها عن نسخة انكليزية ، وكتب مقدمتها الأستاذ الدكتور منصور فهمى — طبعت فى مطبعة وادى الملوك، وتقع فى ثمانين ومائتين من الصفحات؛ وقد زينت غلافتها بصورة المؤلف، وبتلك الكلمة الخالدة التى قرظ بها (توماس كارليل) رواية اللصوص: « إن اللصوص مأساة ستظل طويلا ولها قراء تدهشهم ، بل تهزهم ، رغم كل ما يرد عليها من مآخذ » .

والقصة تمثيلية رائعة ، كتبها (شلر) وهو ما يزال ضابطاً طبيباً ، وانتهى من كتابتها فى عام ١٧٨٠ م ، وطبعت للمرة الأولى ، فكان لها فى نفوس آلاف قرائها أثر بالغ ، شعر به (دوق واتمبورج) مؤسس المدرسة الحربية بها ، فاستدعاه وطلب إليه أن يكف عن كتابة مثل هذه القصص ، وأن يقتصر فى كتاباته على البحوث الطبية ، إذا كان لا بد له من مزاولة الكتابة .

ولقد ترجمت هذه القصة الخالدة إلى سائر اللغات الحية ، وجاء الأديب عبده حسن الزيات فنقلها لنا إلى اللغة العربية عن طريق إحدى الطبعات باللغة الانجليزية، والترجمة حرفية خالية من كحل التواليف الخيالية .

أما من حيث فكرتها المسرحية ، فقد مثلت فى ألمانيا وفى إنجلترا أيضاً ، ولكن بعد أن هذبت وحذف منها الشىء الكثير ... ولعل التطويل هو المأخذ الوحيد على هذه القصة الرائعة ، التى أهاجت الرأى العام الألمانى ردحاً من الزمان غير قصير ، والتى من أجلها ومن أجل روايتين أخريين منحت فرنسا مؤلفها وسام الشرف .

وبعد ، فلعل من خير اللغة العربية أن ترجمت هذه القصة إليها ، ولعل من فخر « عبده الزيات » أن يكون ناقلها إلى العربية .

الطاغية أو الكونت فيسكو

دراما تاريخية فى خمسة فصول

تأليف الشاعر الألمانى العظيم فردريخ شلر ، وتعريب الاستاذ فائق رياض

أهدى إلينا الأديب فائق رياض نسخة من رواية الطاغية تأليف (فردريخ شلر)، وتعريب الأديب المذكور تقع فى ثمان وتسعين ومائة صفحة من القطع المتوسط ، طبعت فى مطبعة المجلة الجديدة . وهى دراما تاريخيــة فى خمسة فصول لشلر ، وضعها بعد إذ صدرت قصته المسرحية الأولى «اللصوص». و(شلر) شاعر وفيلسوف نحب من صميمنا أن تنتشر بيننا كتاباته لأنها تدور فى الأول والاخير حول الحرية ، وحرية الفكر خاصة ، ولانها تنطبق على حياتنا فى هذه الأيام انطباقاً كبيراً ، فقط: تستبدل بالاسماء الافرنجية والبلدان الافرنجية أسماء مصرية.

والطاغية ثانية القصص المسرحية التى تترجم للعربية ـ من ثمار قريحة هذا الفحل الالمانى العظيم. فحبذا لو أقبل عليها عشاق الادب والفن .

إمعان فى أقسام القرآن

فى ٦٦ صفحة من القطع المتوسط ـ تأليف « المعلم عبد الحميد الفراهى » — طبع عن دار المصنفين بمدينة أعظم كره (بالهند)

هذا الكتاب هو فريد فى نوعه ، قيم فى موضوعه ، إذ أنه تفرد للبحث فى الشبهات التى أوردها بعض الناس على أقسام القرآن ، وقد تصدى لذلك كثير من أئمة الاسلام، أمثال : الفخر الرازى وابن القيم وغيرهم ، إلا أن هذا الكتاب هداه إلى فتح جديد فى هذا الباب ؛ فقام بتأليف هذه الرسالة القيمة وحصرها فى الرد على إزالة الظن الباطل الذى صار حجاباً على فهم أقسام القرآن ، حتى يتبين أن أصل القسم ليس فى شىء من التعاظيم ، إنما هو يفهم من بعض أقسامه ، ثم بيان أقسام القرآن بالمخلوقات ليست إلا آيات دالة ، ثم الفرق بين مواضع القسم المحمودة وغير المحمودة .

هذه هى أغراض الكتاب الأساسية، فقد صدر بردى العلامتين: الفخر الرازى وابن القيم على النقط ، ثم ناقشها المؤلف مناقشة منطقية ، أظهرت ضعفها فى كثير من المواطن، ثم تولى الرد عليها فى بيان قوى وحجج دامغة ، مما يوقفنا على أن المؤلف كان على جانب عظيم من العلم ، ثم استتبع ذلك الكلام باثنين وعشرين بحثاً تتعلق بالموضوع ، كلها بحث ، وكلها علم وافر ، وبيان فياض ، ثم ترجمة حياة المؤلف وأعماله ومؤلفاته .

ومؤلف هذا الكتاب هو مؤلف لعدة كتب قيمة مثل : أساليب القرآن ، وأسباب النزول ، وتاريخ القرآن، وأوصاف القرآن ، والتناسخ والمنسوخ، ومفردات القرآن، وأصول التأويل ، وغيرها مما يظهرنا على أن المؤلف خبير بعلوم القرآن ، وهو مطبوع طبعاً متقناً على ورق ممتاز ؛ فنوجه إليه أنظار العلم .

بين المعرفة وقرائها

تناسخ الأرواح

(النجف الأشرف . العراق) عبد الطيف سعاده — ماهو رأيكم فى تناسخ الأرواح ؟ هل هو حقيقة أم خرافة ؟ ومتى عرف ؟

(المعرفة) نعتقد أن القول بتناسخ الأرواح خرافة من غير شك ، إذ لم تؤيده العلوم الوضعية ، كما لم تؤيده الكتب السماوية ؛ وإن كان البراهمة يدعون أنه ثابت فى كتابهم المقدس (فيداس) ؛ ولهذا تراهم يعتقدون به ، زاعمين أن روح الانسان تحل فى إنسان آخر إن كان سعيدا ، أو فى حيوان إن كان شقياً ، وهذه الأرواح جميعاً على تعدد مظاهرها تندمج فى النهاية فى الاله الأكبر (برهما) .

وقد وقفنا — فى بعض كتب تاريخ الفلسفة — على رأى ينسب هذه العقيدة إلى قدماء المصريين ، وقد يكون هذا الرأى صحيحاً ، خصوصاً بعد أن أيدته الاكتشافات الأثرية الحديثة .

هل تعرف جنسية الجنين ؟

(ريوجه . أرجنتين) شكر الله مسعود — هل يمكن معرفة الجنين وهو فى بطن أمه ، وتحديد ما إذا كان ذكراً أم أنثى ؟ لقد رأيت إحدى الطبيبات تحكم بذلك فى منتصف شهور الحمل ، فما رأيكم ؟

(المعرفة) رأينا أن هذه دجالة وليست طبيبة ؛ لأن العلم الحديث لم يستطع — حتى الآن — معرفة ذلك ؛ فأنى لهذه المدعية بمعرفة ما تدعيه ؟

من هو هوميروس ؟

(القدس . فلسطين) على حسن الطيب — فى المحاضرة الأخيرة التى ألقاها الدكتور طه حسين ، ونشرت بجريدة « السياسة » ، وردت عبارة عن الشعر اليونانى وهوميروس ، تشعر القارىء بوجود هوميروس هذا ؛ فهل كان موجوداً حقيقة ؟ ومتى ؟

(المعرفة) كما تصدى الدكتور طه حسين لانكار وجود «مجنون ليلى» وأكثر شعراء المعلقات — وهم قبل مجنون ليلى كما تعلم — ؛ كذلك تصدى كثيرون من كتاب النقد الأدبى الانجليزى لانكار وجود هوميروس ، فزعموا أنه شخص خيالى لا أثر لوجوده مطلقاً ، وأن كل ما ذكر عنه يدخل فى باب الأساطير :

والرأى القديم يرى أنه وجد فى المدة التى تقع بين عام ١٢٠٠ وعام ٨٥٠ قبل الميلاد ؛ وكما اختلفوا فى تحديد المدة التى وجد فيها ، اختلفوا أيضاً فى القرية التى نشأ منها أو ولد بها ؛ وكل ما نعرفه عنه أنه كان شاعراً كفيف البصر ، وأن من آثاره (الإلياذة) وقد عربها البستانى ، و (الأودسا) ولم نقف لها على ترجمة .

هل ترجع اللغات إلى أصل واحد ؟

(صالحجر . غربية) على محمود الدرينى — هل ترجع اللغات إلى أصل واحد ؟ هذا رأى بعض علماء الفرنجة فهل هو صحيح ؟ وإذا كان صحيحاً فما هو الأصل الذى ترجع إليه ؟

(المعرفة) لعلماء اللغات وفقهها آراء فى ذلك الموضوع غاية فى التناقض ؛ والرأى الشائع هو إرجاعها إلى أصل واحد ؛ ذلك لأنهم قسموها إلى أقسام عدة ، كل قسم منها يرجع إلى قسم آخر ، لما بينهما من علاقات ومشابهات وقرابة فى أشياء كثيرة أخصها المفردات ، ثم يجمعون هذه الأقسام إلى طوائف ، كطائفة السامية مثلا ، فانها تضم : العربية ، والعبرانية ، والسريانية ، والكلدانية . وطائفة الآرية وهذه تضم : السنسكريتية ، والأوردية ، ولغات الهند جميعاً ، وبعض اللغات الأوربية .

أما الأصل الذى اشتقت منه أو ترجع إليه ، فذلك ما نحيل الجواب عنه على شيخ العروبة أحمد زكى باشا ؛ فقد يكون لديه من المعلومات ما يتيح لك تحقيق سؤالك هذا .

فهرس

الجزء التاسع من السنة الثانية